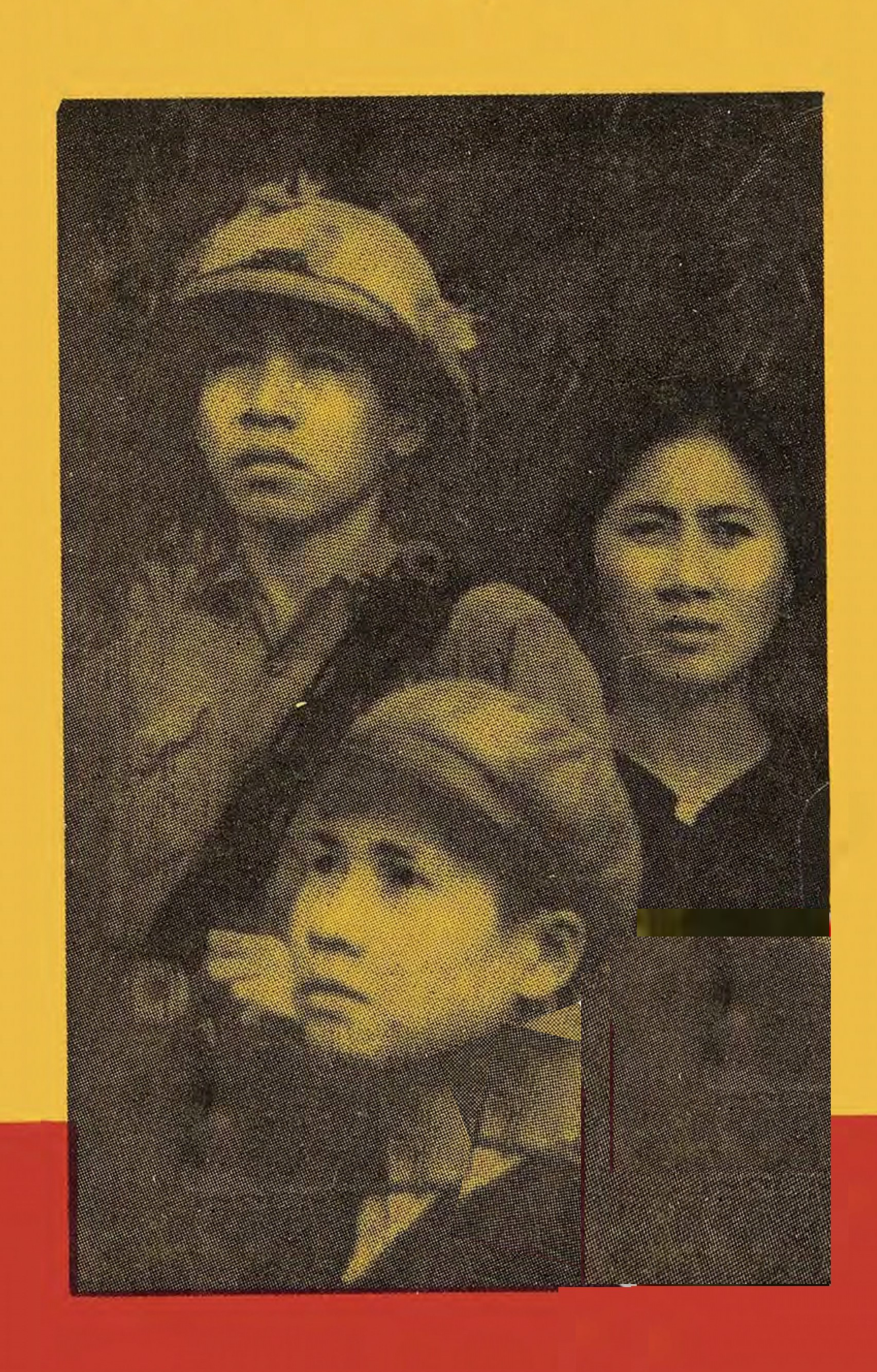
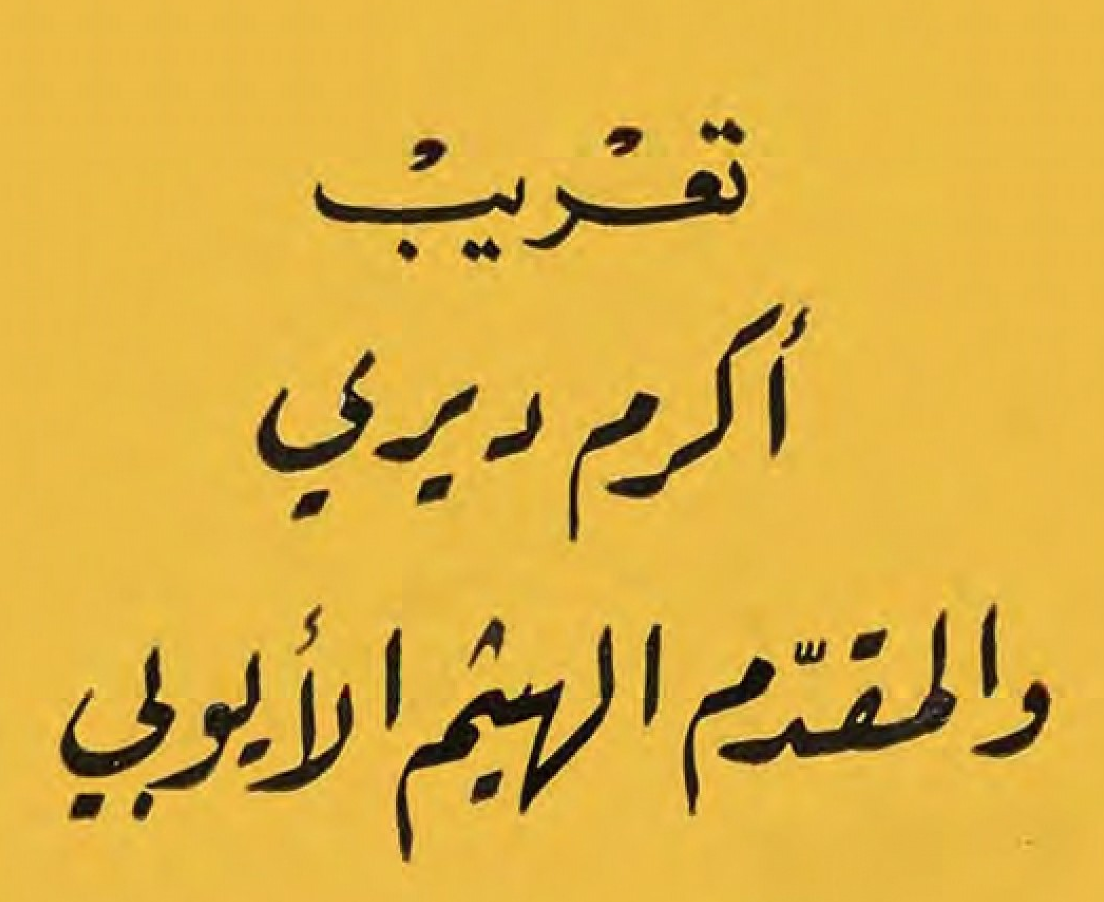
هانوي تحت القنابل

برهان

تأليف : ويلفرد بورشيت

تقديم : برتراند راسل





تعريب

أكرم ديري

والمقدّم الهيثم الأيوبي



دار الإرشاد

الطبعة الأولى

١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م

هانوي تحت القنابل

تأليف : ويلفرد بورشيت
تقديم : برتراند راسل
تعريب : أكرم ديري والمقدم الهيثم الأيوبي

دار الإرشاد
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ٦٣٤٧ - بيروت

تمت ترجمة هذا الكتاب عن النسخة الفرنسية الصادرة
تحت اسم :

Hanoï Sous Les Bombes

Wilfred Burchett

Préface de Bertrand Russel

edition Maspero -- Paris. 1967.

مقدمة الناشر

... « هانوي تحت القنابل » . اسم واضح الدلالة على محتوى هذا الكتاب الذي نرى فيه أكثر من كتاب للثقافة أو المطالعة والتسلية ...

إننا نرى فيه كتاباً تعليمياً ذا أهمية كبيرة لأمتنا وهي تعيش مرحلة خطرة ... تحتاج خلالها إلى الإفادة من تجارب الشعوب الأخرى .

فالعرب اليوم يعيش قسم منهم في المواجهة اليومية المريرة ، مع عدو متفوق تقنياً ، ومدعم بكل قوى البغي في الأرض ، ومشحون بكل أحقاد أهل الطغيان عبر القرون الطويلة ... ضد أمتنا دون سواها من الأمم ... ويعيش قسم آخر منها مهدداً بأن تطاله ضربات العدو وهو في عقر داره ، إن لم تبادر الأمة بمجموعها إلى تغيير حالها والخروج من قيود الوهَم والرعب اللذين يذلان كرامتها ،ويسوقانها إلى الخنوع .

ولكي نسهم في دورنا ، ونساعد على نزع لَبوس الخوف ... وبعد أن وجدنا في هذا الكتاب ما يفتح أمام المخلصين أكثر من باب ، ويمهد أكثر من سبيل للصمود في وجه القوة العاتية — أياً كان صاحبها — ننشره ونقدمه إلى القارىء العربي ... يحدونا أمل كبير في أن يسد حاجة ، ويملأ فراغاً ، ويكون له أثر جيد في تحويل كثير من النفوس الحائرة ، إلى جانب الصمود ، فالتصميم على القتال حتى انتزاع النصر ...!

ونحن إذ ننشر هذا الكتاب ، تحت هذا الاعتبار — وحده — يهمنا أن نشير إلى النقاط الآتية بوضوح وجلاء :

آ — إن الكتاب يحوي بين دفتيه من الأفكار والمفاهيم ما لا نوافق عليه ، ونصر على أن هذه الأمة لا يصلح آخرها إلا بما يصلح به أولها .

ب — وإذا كنا نرى أننا بحاجة للتعلم والاكتساب من خبرات شعوب سبقتنا في ميادين التضحية والفداء ... فليس ضرورياً أن نؤمن إيمانهم ، ونعتقد عقائدهم وفلسفاتهم لكي نصمد صمودهم ... فنحن نملك عقيدة قادرة على تحويل الأفراد منا إلى مردة في القتال ، وتحقق صموداً — لو نؤمن بها حق الإيمان — يفوق ما عرف عن كل أمم الأرض حتى اليوم ...!

ج — وتكمن أهمية الكتاب لأمتنا ، في كونه يشرح الأساليب التي ابتكرها

ابتكرها الفيتناميون « الفقراء » ، لضمان استمرار الحياة ، ومتابعة البناء والارتقاء ، رغم ضراوة الحرب وشراستها .

فالمدارس تنمو ، والتعليم في ازدياد ، والمصانع تؤدي عملها في المغاور والكهوف ، والسدود الكبيرة التي دمرها القصف ، استبدل بها سدود صغيرة حققت فائدة أكبر ، وقدمت حماية أكبر ضد الفيضانات ... وحتى الجسور ، تعود لتؤدي عملها رغم تدمير القصف لها ... بعد أن يتم إصلاحها بطرق بدائية ولكنها فعالة ... وكذلك يمكن أن يقال عن كل أوجه النشاط الحياتي المستمر رغم الحرب ...

د ــ ولعل أهم ما في الكتاب ، أمور ثلاثة ، نفتقدها بشكل فاضح ، هي : ١ ــ حشد الطاقات كلها في وجه العدو لتحطيمه وكسب الحرب . ٢ ــ بطولة المرأة . ٣ ــ وصمود القادة .

١ ــ فالقارىء يجد في هذا الكتاب ، أن قادة فيتنام ، ومن ورائهم شعبها ، قد حشدوا كل طاقة مهما صغرت ... ووجهوا كل فعالية لديهم ، وعاش الجميع عيشة الرجل الواحد الذي صمم على تحطيم خصمه بأي ثمن .

لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة ... إلا حشدت كلها من أجل هدف واحد تركزت عليه كل اهتمامات ذلك الشعب ... هو كسب الحرب ... أو الفناء الكامل ... فأين هذا من طاقاتنا وفعالياتنا المعطلة العاجزة ؟؟!.

٢ ــ والمرأة صممت على خوض الحرب حتى النصر ... فحلت محل الرجل في كل مجال ... ليتفرغ هو للقتال ، بل وشاركته قتاله ... فكانت الوقفة الجبارة لذلك الشعب « الفقير » في وجه أعدائه المتفوقين .

٣ ــ والقادة ، كانوا خير مثَل لشعبهم ، فاقتدى بهم وسار وراءهم .

كانوا في مقدمة المقاتلين ... فقاتل الشعب بضراوة أعجزت أعداءه .

وكانت تضحياتهم في مستوى ما قدمه غيرهم من أبناء الشعب ، إن لم تكن أكثر في مجالات معينة ، فأحبهم الشعب ووثق بهم ... ولذلك نراه يسمع لهم حين يطالبونه بالاستعداد لتضحيات أكثر ، في حرب طويلة قد تدوم عشرين عاماً .

هذه سطور أردنا التقديم بها لهذا الكتاب ... ولن نطيل أكثر .

فلنترك للقارىء أن يتابع بنفسه ، ونسأل الله أن يعين أمتنا على تغيير حالها ، ويأخذ بيدها إلى الإيمان الصادق به ... فيكون منها الصمود المطلوب ... وتكون منها التضحيات مهما غلت وعزّت ... وتعود إلينا الأرض والحقوق والشرف أكرم عودة .

الناشر

مقدمة المعرّبين

منذ عدة أسابيع لم تعد قاذفات القنابل الأمريكية تحلق فوق مدن فيتنام الشمالية وقراها. لتنقض على بيوتها وطرقها وجسورها فتجعلها حطاماً . لقد أوقفت الولايات المتحدة الأمريكية غاراتها الجوية بلا قيد أو شرط ، تمهيداً للدخول في مفاوضات باريز مع وفد فيتنام الديموقراطية ووفد جبهة التحرير الوطنية، معترفة بذلك بعجز آلتها الحربية الضخمة، وسلاحها الجوي الجبار ، عن إخضاع إرادة شعب قرر أن يموت في سبيل الحياة . ولكن كم بذل هذا الشعب من دماء وكم قدم من تضحيات وكم تحمل من آلام ونكبات قبل أن يصل إلى هدفه ؟ وقبل أن يُعلّم أعداءه بأن « التصعيد » وما يحمله من تهديد بكارثة شاملة لا يشكل حلاً واقعياً للمشكلة الفيتنامية . وأن الحل كامن في فهم التغيرات الدولية العميقة التي تأخذ مجراها الآن ، وفي الرغبة الأكيدة الصادقة للعيش بسلام .

إن و . بورشيت مؤلف هذا الكتاب هو أول صحفي أوسترالي كرس حياته وقلمه للدفاع عن الفيتناميين . وقد كتب كل دراساته ومشاهداته من قلب الأدغال ، ووسط الحقول ، ومن جحيم ميادين المعارك . وبعد أن زار فيتنام الشمالية والجنوبية مرات عديدة واحتك بشعبها البطل الذي ينحني أمامه العالم كله إعجاباً واحتراماً ، لأنه أقسم بصدق وبكل تواضع ، على مواصلة الكفاح إلى الأبد ، ضد أكثر القوى الأمبريالية في العالم قسوة وشراسة .

ولم يكن إنتاج المؤلف مقتصراً على هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم مترجماً إلى القراء العرب . فقد ألف كتباً أخرى عن الحرب الفيتنامية والحرب الكورية ، فضح فيها

الاستعمار الجديد في آسيا . فكان عمله تعبئة للرأي العالمي ضد الدور القذر الذي تلعبه الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الجزء من العالم .

وينم كتابه هذا عن شجاعة نادرة ، ورأي حر لا يخضع لأي نوع من الضغوط المادية والنفسية . وليس هذا غريباً عنه ، فقد كتب جيمس سي آلن عنه « إنه مراقب حاذق ، ذو إحساس لا يخيب بالنسبة للمغزى التاريخي للأحداث ودور الشعب فيها ... » وتقف تقارير بورشيت في مستوى كتابات كتاب من أمثال جون ريد (مؤلف كتاب عشرة أيام هزت العالم) حيث تناول التأثير المباشر للأحداث الثورية كما تمت رؤيتها ودراستها على الطبيعة .

ويمكن اعتبار كتاب « هانوي تحت القنابل » كتاب الساعة بالنسبة للأمة العربية المتعرضة للعدوان الصهيوني الأمبريالي . فهو يكشف لها تجربة شعب صغير من الفلاحين ، وصموده أمام ضربات طيران أقوى دولة في العالم . ويؤكد ، كما تؤيد كافة الحروب الشعبية ، عجز التقنية الحديثة والقوة المتغطرسة أمام القوى المعنوية الكامنة في قلب الجماهير المعبأة للحرب الشعبية .

وإذا كانت الأمة العربية لم تتعرض في معاركها مع إسرائيل في ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و١٩٦٧ إلى حرب شاملة لا تدور على خطوط الجبهة فحسب ، بل تستهدف المؤخرات والمراكز الصناعية ، والتجمعات السكانية ، ومعنويات السكان ، فقد تتعرض لمثل هذه الحرب في الجولة القادمة ، لأن العمليات الإسرائيلية بعد حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧ بدأت تتسم بالتصعيد لضرب أهداف مدنية ، بغية التأثير على معنويات الشعب العربي ، والضغط على حكوماته . ولعل ضرب مدن القناة ، ومصافي البترول في السويس بالمدفعية والصواريخ ، وغارات الطائرات على نجع حمادي ومدن الأردن الآهلة بالسكان ، والتهديدات المتكررة بتصعيد عمليات القصف ونقلها إلى أماكن أكثر ازدحاماً، وأهداف اقتصادية هامة أكبر ، دليل على ما يمكن لأمتنا أن تتعرض له في معركتها الحتمية المقبلة مع الصهيونية والأمبريالية .

وتستفيد إسرائيل من الوضع الاستراتيجي الذي حصلت عليه بعد حرب يونيو (حزيران) لتطبيق التصعيد أو التهديد به . فبعد أن كان العرب يملكون المناطق القاتلة لإسرائيل ، أصبحت إسرائيل اليوم تتمتع بمواضع استراتيجية ملائمة . فهي تحتل أراض عربية واسعة تؤمن لها هامش حيطة يساعد على حماية مراكزها الصناعية والبشرية ، كما تؤمن لها إمكانية تهديد عواصمنا ومراكزنا الحيوية بمدفعيتها وصواريخها وطيرانها . وهذا

ما يجعل مهمة الدفاع السلبي والإيجابي عن هذه المراكز أمراً حيوياً رئيسياً . ومن هذا الواقع الجديد تبرز أهمية كتاب «هانوي تحت القنابل» الذي يصف فيه الكاتب بكل واقعية كيف حل الفيتناميون في الشمال مشاكلهم ، ونظموا حياتهم اليومية ، وتابعوا إنتاجهم الزراعي والصناعي ، واستمروا في تعليمهم ورعاية أطفالهم وسط المعارك ، وتحت آلاف القنابل المنصبة من السماء . وكيف تحدى جيشهم الشعبي وشعبهم المسلح أعنف الغارات التي شهدتها البشرية . وكيف تابعوا نضالهم مع ذلك رغم كل الخسائر والآلام . وكيف رفضوا إيقاف مساعدة إخوانهم في الجنوب ومدهم بالسلاح والذخيرة والمؤن لمتابعة معركة التحرير ، حتى ولو أدى ذلك إلى فنائهم تحت أنقاض مدنهم التي بنوها بأيديهم بعد خروج الفرنسيين من البلاد .

لقد أدرك قادة فيتنام الشمالية من المدنيين والعسكريين أهمية مؤخراتهم ، واعتبروا أن الجنوب هو جبهتهم مع العدو ، وأن الشمال مؤخرتهم ، فنظموا هذه المؤخرة بدرجة عالية من الكفاءة ، وأعادوا توزيع المدارس والمصانع والورشات والمكاتب والإدارات . واستعدوا لما هو أسوأ . فكم نحن بحاجة لأن ندرك ذلك ، ونستعد لأسوأ الاحتمالات فالعدو الإسرائيلي لا يقل عن أسياده الأمريكيين وحشية ، ولا يمكن أن يمنعه من قصف الأهداف المدنية في المستقبل أي مانع أخلاقي أو إنساني .

ولكن لمَ بدأ الأمريكيون بقصف الشمال ؟ إن الأمبرياليين يجدون دائماً ألف حجة لتبرير عدوانهم .فلقد برروا قصف المنشآت الساحلية في فيتنام الديموقراطية في أغسطس ١٩٦٤ بحادثة خليج تونكين ، رغم أنهم كانوا أول المعتدين . وبدأوا بعد ذلك بقصف فيتنام الديموقراطية بشكل منهجي في فبراير ١٩٦٥ بحجة أن شمال البلاد يساعد جنوبها . ثم برروا تصعيد القصف وضرب الطرقات والجسور وتدمير مستودعات المحروقات في هانوي وهايفونغ في يونيه ١٩٦٦ بتزايد التسلل من الشمال إلى الجنوب .. والأمبرياليون الصغار في وطننا العربي يجدون الحجج أيضاً لقصف مدن القناة وشرقي الأردن . فهم يتذرعون تارة بتزايد نشاط المقاومة الفلسطينية ، ويدعون تارة أخرى أن كميناً قتل بعض جنود دورياتهم .. الخ وقائمة الحجج طويلة لا تنتهي ، ولكن أسلوب عرض العضلات واحد . وما عرض العضلات سوى أسلوب من أساليب صراع الإرادات ، ولقد عرف الفيتناميون أن الخضوع لإرادة الخصم خوفاً من تصعيد الغارات يعني الوصول إلى أسوأ درجات التصعيد ، وهي الاستسلام الذي يعيش الشعب فيه وسط سلم مخز ، ويدفع من التضحيات رغم السلم ، أكثر مما يدفعه من التضحيات المشرفة خلال المعارك.

لقد عرفوا أن منع المساعدة عن الجنوب تعني شراء حياتهم بحياة إخوانهم رجال جبهة التحرير الوطنية ، فرفضوا التهديد بإباء وسيرفض كل عربي شريف الخضوع للتهديد ، ولن يقبل بإيقاف عمل رجال المقاومة الفلسطينية خوفاً من ضربات الانتقام الجوية أو البرية ، حتى ولو كانت نتيجة ذلك دمار المدن والمصانع وامتداد الصراع إلى آفـاق أوسع ، فليس هناك مدينة تستحق أن يضحي الشعب بكرامته من أجل الحفاظ عليهـا . ولأن فيتناماً عربية هي الحل الوحيد لهذا الوضع المتردي الذي وصلنا إليه بعد أن كبا جوادنا في أحداث يونيه (حزيران) ١٩٦٧ .

إن فيتنام العربية بحاجة إلى جبهة التحرير الوطنية ، وها هي حركات المقاومـة الفلسطينية تسير على طريق النمو ، لتبدأ بعد استكمال استعدادها ، وتوحيد كافة فروعها وأجنحتها ، حرب التحرير الشعبية التي تصفي الوجود الإسرائيلي العدواني . وفي تصورنا أن فيتنام العربية بحاجة أيضاً إلى هانوي العربية ، ترى في المعركة معركتها المصيريـة ، فتزج فيها بكل طاقاتها البشرية والمادية ، وتتحمل من أجلها أقسى الضربات وأشدهـا هولاً ، وتجابه في سبيلها إسرائيل وكل قوى الشر التي تدعمها ... إن معركتنا الحاسمة المقبلة بحاجة إلى خطوات عديدة ، وها هي المقاومة الفلسطينية تمثل الخطوة الأولى ، فأنّى لنا بهانوي العربية التي تمثل الخطوة الثانية لننتقل بعد ذلك بخطى حثيثة نحو هدفنا الأسمى.

ولقد تعرضنا لهزيمة من أكبر الهزائم في تاريخنا . ولا بد أن نتساءل عن أسباب هذه الهزيمة . فليست أسبابها تقنية ومادية فقط ، أو لأن القوة الإسرائيلية متفوقة علينا. فلقد كان بإمكان القوات المسلحة العربية أن تخوض في أسوأ الاحتمالات حرباً دفاعية ، وكان ميزان القوى يسمح لها بمثل هذه الحرب دون أن يسمح لإسرائيل بالحصول على مثل هذه المكاسب . إن وراء الهزيمة أسباباً معنوية لا بد لنا من الانكباب على دراستها وبحثها . فهل تغير المقاتل العربي الذي عرفناه على مدى تاريخنا الطويل ؟ وهل ضعفت فضائـل الرجولة لدى الأمة العربية ؟ وما هو السبب في ضعفها ؟ وهل تملك الأمة العربية الفضائل الحربية أم أنها فقدتها بمرور الزمان وتتابع الأيام ؟

تلك أسئلة لا بد من أن نطرحها ونجيب عليها . وهناك جواب جاهز : هو أن معركة المقاومة الفلسطينية اليوم تضرب أروع الأمثلة في البطولة والشجاعة ، والشعور بالعداء ، والتفوق المعنوي ، وإرادة القتال والصمود ، والفضيلة الحربية الرائعة . وهي مثل يعيد للشعب العربي ثقته بنفسه ، وللفرد العربي ثقته بمستقبله .

وإذا كانت إسرائيل اليوم تهددنا بأنها على مقربة من مناطقنا الآهـلة بالسكان .

وتستهدف عملياتها الانتقامية هذه المناطق . وإذا كان هذا الوجود يشكل تفوقاً جيداً استراتيجياً لإسرائيل ، إلا أنه سيشكل لنا تفوقاً معنوياً مع الزمن . إن المناطق التي تتعرض اليوم للاعتداءات المتكررة بواسطة المدفعية والصواريخ ، ينمو فيها الشعور بالعداء ضد الفاشستيه العسكرية . وهذا ما كنا نفتقر إليه على كل المستويات في معاركنا السابقة ضد إسرائيل .

لقد استخدمت أمريكا ضد فيتنام وسائل التدمير ، من طائرات الـ ب ــ ٥٢ إلى طائرات الفانتوم . ومن النابالم ، إلى القنابل الفوسفورية ، والغازات والمواد الكيميائية السامة ، معتمدة على قوتها الطاغية ، ومستغلة الخلاف القائم داخل المعسكر الاشتراكي .. ولكنها لم تستطع رغم كل جبروتها أن تنال من روح هذا الشعب ، ولم تحطم إرادة القتال لديه ، بل حفزت الرأي العام كله ضد النازية الأمريكية الجديدة ، ودفعت الفيلسوف العالمي راسل وغيره من المفكرين إلى تشكيل محكمة على غرار محكمة نورمبورغ لمحاكمة المسؤولين عن حرب فيتنام باعتبارهم « مجرمي حرب » نظراً لما يرتكبونه من جرائم وحشية ضد شعب مسالم لم يهدد أمريكا ولم يعتد عليها .. وقد استخدم الفيتناميون مختلف الأساليب والخُدَع ليحولوا دون تحقيق أهداف أمريكا . فهم تارة يتسللون إلى قواعدها الجوية ليحاصروها ويضربوا طائراتها فوق الأرض ، وتارة أخرى ينصبون المصائد لجذب الطائرات إلى أمكنة معينة كي تنقض عليها طائراتهم القليلة .

إن من واجبنا أن نواجه المعركة المقبلة كاللاعب الذي يصمم على خسران كل شيء ، أو ربح كل شيء ، وكاللاعب الذي يغامر بآخر ما لديه . إن علينا أن لا نحسب حساب الخسائر ، وأن نصمم على أن نربح الحرب أو أن ننهزم بشرف وعزة . وهذا لا يعني أن نخوض المعركة بغوغائية أو دون تخطيط ، بل علينا أن نفهم على العكس أنه « لا شيء ينجح في الحرب إلا ماتم التفكير فيه وتصميمه وإنضاجه بإرادة قوية » . ولكن ذلك يعني أن نملك الشجاعة والذكاء في خططنا والتصميم على تنفيذها مهما كانت النتائج . وكما قال كلوزفيتس « أن نصمم على الهلاك للحفاظ على الشرف » .

المعربان

١ ــ ١٢ ــ ١٩٦٨



إن الحرب التي تخوضها الولايات المتحدة الأمريكية ضد شعب فيتنام هي بالتأكيد من أكثر الحروب التي عرفتها ذاكرة الإنسان شراسة وعنفاً . ولا يمكن فصل هذه الحرب عن محتواها التاريخي والاجتماعي . ولنتذكر أن الدول الصناعية الكبرى في الغرب قد قتلت منذ الحرب العالمية الثانية حتى الآن أربعة ملايين فلاحاً ، بعد أن تدخلت بقوة عسكرية ضخمة . وقد قتل ١٥٠,٠٠٠ فلاحاً على يد الفرنسيين في مدغشقر ، و٢٥٠,٠٠٠ على يد الإنجليز في كينيا ، ومليونٌ بيد الفرنسيين في الجزائر ، ومليونٌ ونصف المليون بيد الأمريكيين والفرنسيين في الهند الصينية .

إن شعب فيتنام شعب مزارع صغير ، ضعيف التصنيع ، لا يملك أية تكنولوجيا متطورة . ورغم هذا ألقت الولايات المتحدة الأمريكية على نصف هذا البلد الزراعي الصغير ، أي على فيتنام الشمالية ، من القنابل خلال الأشهر التسعة الأولى من عام ١٩٦٦ أكثر مما ألقته في كل معارك الباسيفيكي طيلة الحرب العالمية الثانية . وهذا العمل هو منتهى الشراسة والعنف .

وإذا كنا ندين لشخص من الأشخاص بتعبئة الرأي العام الغربي وإنذاره عن طبيعة هذه الحرب ، وبتوعية العالم كله بكفاح الشعب الفيتنامي فإن هذا الشخص هو ويلفرد بورشيت . وإني لسعيد جداً بأن تتاح لي فرصة الاعتراف بالدين الهائل الذي أدين به نحوه : فقد كان كتابه « **الحرب المخادعة** » The Furtive War وثيقة أساسية بالنسبة لي . إذ

خلد هذا الكتاب الكفاح النادر للشعب الفيتنامي وجعله قريباً منا . ويعود تاريخ ارتباطي العميق والشامل بالشعب الفيتنامي إلى تاريخ قراءة كتابه الذي يدافع فيه عن هذا الشعب. إن بورشيت هو المؤرخ المعاصر ، والصحفي الدقيق الذي اختار أن يجعل من قضية فيتنام قضيته الخاصة فخدمها بشكل رائع . فلقد كتب بأسلوب مثير جداً ، وباقتناع تام ، جعل الكثيرين منا يتطوعون فوراً للدفاع عن القضية الفيتنامية . فقد عرف بورشيت كيف يجد الملاءمة الصحيحة بين الالتزام المعنوي والالتزام السياسي . وكانت تقاريره الصحفية ، الدقيقة والعلمية ، تعلم وتجند في نفس الوقت كل من أتاح لهم الحظ قراءتها .

إن كتاب « **هانوي تحت القنابل** » ، هو تتمة تقريره عن فيتنام الذي يشكل مع كتابيه ، « **الحرب المخادعة** » ، و « **المقاومة الثانية** » خدمة رائعة للتاريخ المعاصر . وسيُقرأ هذا الكتاب وسيدرس بمزيد من الإعجاب لعدة أجيال مقبلة . وقد كتب بورشيت من قلب الأحداث التي عاشها مع أولئك الذين كافحوا ضد العدوان الأمريكي الذي لا يصدق . ولست واثقاً من أن هناك سابقة تاريخية يمكن أن تقارن بالمقاومة الفيتنامية ضد العدوان الأمريكي . ويعالج كتاب « **هانوي تحت القنابل** » مسألة تتمتع بأهمية دائمة : كيف يمكن لشعب فلاح أن يبقى على قيد الحياة دون قوة جوية ، ليواجه قصفاً جوياً شاملاً ومتكالباً ؟ وكيف يمكن أن يستمر تموين هذا الشعب ؟ وكيف يمكن الاعتناء بضحايا الغارات الجوية ؟ وكيف يستطيع تجنب الأوبئة ؟ وكيف يمكن لهذا الشعب أن يدعم معنوياته ؟ ونتساءل بعد هذا كله عن نوع الحرب التي يشنها الأمريكيون ضد الشعب الفيتنامي ؟ يحدثنا بورشيت من داخل فيتنام عن الاندفاع والبطولة اليومية ، وروح المقاومة التي لا تضاهى ، والتي تتفجر في القرى الفيتنامية ، حيث يتحمل الفلاح الفيتنامي الذي كان مضطهداً عبر كل تاريخه ، والذي جوعه الأسياد الإقطاعيون ، وعاملوه بشراسة وعنف ، والذي حرمته من التعليم نظم أجنبية عن بلده ، يتحمل هذا الفلاح ألفي طن من القنابل يومياً . ويتعرض لقنابل النابالم ولقنابل التشظي[1] التي تمزق إرباً أولئك الذين تركتهم عمليات القصف الجوي الواسعة بلا مأوى .

---

(١) Bombes à fragmentation. : وهي نوع من القنابل ، مصمم على أساس أن تنقسم القنبلة بعد انفجارها في الجو فوق الهدف إلى شظايا تتناثر على شكل مخروط رأسه إلى الأعلى وقاعدته إلى الأسفل ، ويستخدم ضد الأهداف والتجمعات البشرية بقصد إنزال أكبر الخسائر بالأشخاص . يسمى هذا النوع من القنابل : (قنابل المنشار) .

ويتحدث جيمس رستون ، وهو واحد من أشهر المراسلين الأمريكيين فيالنيويورك تايمز في ٣٠ من أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٦ تحت عنوان : **جلد الهندي المعلق على الجدار** . ذاكراً بكل وضوح « **السعادة الناجمة عن الدعوة النابعة من طبيعة وتقاليد الأرض التي عاش فيها الرئيس والتي وجهها هذا الرئيس إلى قطعات خليج كام رانه في فيتنام عندما قال : « عودوا مع جلد رجل ملون تعلقونه على الجدار »** . وكلنا يعلم أن كلمة « رجل ملون » هي كلمة ذم تطلق على الزنوج الأمريكيين في الولايات المتحدة الأمريكية . وتعني العادات في المناطق التي ينحدر منها الرئيس الأمريكي أن عودة المرء إلى بيته مع جلد رجل ملون دليل على قتل هندي أو زنجي . وليس تذمر النيويورك تايمز من عنصرية الرئيس أكبر من الحرج الذي تحس به الصحافة الغربية عندما تود الحديث عن الحرب الأمريكية ضد الشعب الفيتنامي .

« إن كل من عاش في فيتنام بعض الوقت ، استطاع أن يرى الأسرى وقد دفنت رؤوسهم في المياه ، واستقرت رؤوس الحراب فوق حناجرهم .... لقد كانوا يدخلون شظايا البامبو تحت أظافر الضحايا ، ويثبتون شرائط الهاتف الميداني على أيديهم ، أو على حلمات أثدائهم ، أو على خصيهم » .

(النيويورك تايمز ، ٢٨ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٦٥) .

« وتعتبر الكهربة الجزئية ـ من أكثر وسائل التعذيب شناعة ـ أنها « القلي » حسب تعبير مستشار أمريكي . فقد ربطت أصابع الإبهام لأسير من الفيتكونغ بشريطين كهربائيين . وكان جهاز التعذيب يحدث تياراً يعطي الأسير شحنة كهربائية تحرقه . وهناك فنون تعذيب أخرى .... تشتمل على نزع الأصابع والآذان والأظافر ، أو الأعضاء التناسلية . ويزين عقد من آذان الفيتناميين المنزوعة حائط إحدى المؤسسات العسكرية الأمريكية . كما أن مؤسسة أمريكية أخرى تملك أذناً لأحد أفراد الفييتكونغ محفوظة في إناء مملوء بالكحول »

(النيويورك هيرالد تريبيون ، ٢٥ أبريل (نيسان) ١٩٦٥) .

وقد أشار مالكولم براون ، مراسل الأسوشيتدبرس بما يلي :

« يتضمن التعذيب الذي يرافق الاستجواب تثبيت قطبين لمولد كهربائي على صدغي المواطن ، أو على أجزاء أخرى من جسمه . وعندما يكون الأسرى من النساء ، تثبت

الأقطاب الكهربائية على حلمات أثدائهن .... ويتسلى كثير من الجنود الأمريكيين بقتل الأسرى من الفييتكونغ ويموت الأفراد الذين يخضعون للتحقيق ، في غالب الأحيان ، عند استجوابهم ، وتبدو عملية التفتيش عن المعلومات عملية ثانوية » .

وتزخر الصحافة الغربية بمثل هذه الوصوف . وهي تنقل إلينا أيضاً دونما اهتمام ، أنباء قصف المدارس والمستشفيات والمصحات :

« يعتبر الأمريكيون المستشفيات أهدافاً صالحة للهجمات البرية والجوية . وقد أجاب ناطق عسكري أمريكي على سؤال وجه إليه ، عما إذا كان الأمريكيون يقومون بهذه الهجمات بصورة رسمية ، فأجاب : لم نحصل على قرار نهائي حول هذه المسألة » .

(النيويورك تايمز ، ٢٥ يوليه (تموز) ١٩٦٢)

فمنذ أن قبلوا اعتبار المستشفيات أهدافاً صالحة ، دمر شمال فيتنام تدميراً منهجياً . وخضعت المستشفيات والمصحات لهجوم مدبر ومعزز .

إن جونسون الذي يدعو رجاله اليوم لتعليق جلود الفيتناميين على الجدران ، هو نفسه الذي صرح في ١٥ مارس (آذار) ١٩٤٨ ، في مجلس الشيوخ بما يلي :

« مهما كانت الأسلحة الأخرى الهجومية أو الدفاعية التي نملكها ، فإن أمريكا بدون قوة جوية ، عملاق مقيد ، وفريسة عاجزة سهلة الافتراس من قبل أي قزم أصفر مسلح بمطواة »

تلك هي الإيديولوجية التي تسمح بقصف شعب شمال فيتنام . وتلك هي العقلية التي تدير التجارب على المواد الكيمياوية ، والغازات السامة ، والأسلحة الجراثيمية . ولا ينبغي أن يكون هناك أي شك بالهدف الذي يتابعونه . وقد قال هانسون بالدوين في النيويورك تايمز ما يلي : « **إذا كانت الولايات المتحدة تريد أن ترسل أكثر من مليون رجل إلى فيتنام ، فينبغي أن يكون أولئك الرجال قادرين على القيام بتنظيف فيتنام عند نهاية الهجمات الجوية » .**

ويعلمنا كتاب « **هانوي تحت القنابل** » كيف يقاوم الفيتناميون . فلقد حان الوقت لنقول كل شيء عن كل ما جرى هناك . ولهذا الهدف ألفت محكمة دولية لجرائم الحروب تضع أمام الرأي العام العالمي وثائق كاملة ودقيقة وصادقة عن جرائم الأمريكيين ضد الشعب الفيتنامي خلال سنوات الهول هذه . وأعتقد أن لمثل هذه المحكمة فرصة تاريخية تستطيع خلالها أن تكشف النقاب عن الإطار الحقيقي والاجتماعي لحرب فيتنام . إن

علينا أن نفهم دوافع هذه الحرب ، وأن نقيّم أسبابها ، وأن نرى طبيعتها أمامنا . وعلينا أيضاً أن نبحث علاقاتنا الخاصة عبر خطوة تشكيل هذه المحكمة بحرب الاضطهاد الدائرة ضد الفيتناميين ، وعلاقتنا مع المقاومة الفيتنامية ذاتها .

إن كل الذين يدعون في الغرب إلى التعاون مع الشعب الفيتنامي يهتمون أساساً بإيجاد مصالحة يعامل فيها الفيتناميون الولايات المتحدة الأمريكية كند أخلاقي لهم . وليس من المهم كثيراً أن يخوض هذا العملاق الصناعي حرب إبادة . وليس من المهم كثيراً أن يتعرض الفيتناميون إلى العمل الإجباري ، وإلى سياسة الأرض المحروقة في الجنوب ، ويعانوا من التعذيب ، ويخضعوا للتشويه والتسمم . وليس من المهم كثيراً أن تجرب أسلحة جديدة ضد شعب ، جريمته الوحيدة هي الكفاح الضاري من أجل استقلاله الوطني ومن أجل حقه في تسيير أموره . إن الرأي العام الغربي ، وبخاصة الرأي العام الذي يعلن عن تعاطفه مع الفيتناميين ، لا يعرف كيف يميز خلقياً بين المعتدي والضحية .

إن كتاب ويلفرد بورشيت يوحي إليّ بهذه التأملات :

إن الفيتناميين يقاومون في بلدهم ، وإن المراكب الحربية التي تقف على سواحل فيتنام تظهر في الدول الغربية ، وكأنها محمية من أعمال الردع والانتقام ، وكذلك قواعد تايلاند ، ولاووس وجنوب فيتنام أيضاً . إنه ليس من حق الشعب الفيتنامي أن يدمر الأسطول السابع الذي هو مصدر الهجمات الشرسة ضد بلاده كلها فحسب ، بل إن من حقه أيضاً أن يدمر قواعد كل البلدان التي تحتمي فيها قلاع القتل الجماعي هذه . كما أن من حق شعب فيتنام أن يقوم بقصف سان فرنسيسكو ، ونيويورك ، وشيكاغو . إن كل المناقشات الدائرة حول الحرب الفيتنامية تنطلق بصورة غريبة من مبدأ لا أخلاقي يتضمن ضرورة الحكم بصورة قاسية على الفيتناميين الذين قاوموا مقاومة أكثر مما يجب في بلادهم ! وبإمكاننا أن نرد على هذا بأنه لو حدث انتقام بسيط ضد مدينة أمريكية ، لحدث عندئذ دوي عالمي يكشف اللثام عن الظلم السخيف لهذه الحرب .

ولقد قيل إن الطيارين الأمريكيين الذين كانوا يعرفون أهدافهم ، والأسلحة التي يحملونها ويستخدمونها ، حوكموا في فيتنام بعد أن وقعوا في الأسر . وقد أثارت هذه العملية في الصحافة الغربية ردود فعل هيسترية ضخمة . واعتبرت محاولة الحكم بمسؤولية هؤلاء الطيارين الذين قاموا بقصف الشعب الفيتنامي عملاً غير شرعي . أي ظلم هذا وأية عنصرية . ! إن القوانين تصاغ في الغرب فقط ! إن شعباً زراعياً تعزله الولايات المتحدة الأمريكية عن العالم ، فإذا قاوم ، كان ذلك دليلاً على فساد أخلاقه وإذا انتقل من المقاومة

إلى الانتقام ، فذلك كاف ليؤدي به إلى الدمار التــام . إن الذين يرتكبون العــدوان لا يتعرضون إلى الانتقام . ولا يجوز أبداً أن تعرف مدن الولايات المتحدة الأمريكية ما يتعرض له الفيتناميون . فمكان القواعد وحاملات الطائرات خارج حدود أعمال الانتقام الفيتنامية. وينبغي أن يكون بوسع الأمريكيين أن يتابعوا هجماتهم ، دون أن يردعهم عنها أحد ، وبخاصة دون أن يمنعهم الفيتناميون عن القيام بها ، وهم ضحايا عدوانهم ، ونجد هــذا الانحطاط اللاإنساني في كل التقارير الغربية التي قرأتها . إنه ليس شيئاً آخر غير الهتلرية، والتكبر العنصري ـ إنه غطرسة الشراسة والقوة الغاشمة .

إن كتاب ويلفرد بورشيت يشبه المقاومة الفيتنامية ذاتها ، إنه دفاع عن المدنية والأخلاق البشرية .

برتراند راسل
الحائز على جائزة نوبل للسلام
٣٠ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٦

مقدمة المؤلف

فلنعِدّ أنفسنا للأسوأ

كان جسم الحيوان الصغير المربوط بطاولة العمليات يرتعش بصورة خفيفة ، على حين كانت تذوب فوق ظهره قطرات من سائل لا لون له . وفي خلال أربعين ثانية تقريباً ، ارتفع دخان أبيض من جلده المبلل بالسائل . وبعد عدة لحظات ، تصاعدت صرخات قلقة : فقد تحولت سحب الدخان الحلزونية التي ترقص فيها شرارات نارية إلى لهب . وعندئذ ، سكب شبح أبيض ملثم سائلاً آخر أطفأ النار ، لكن الصرخات لم تتوقف . ثم غُطي الجسد بغطاء رطب ، وحُمل وهو يصرخ باستمرار . واستبدل جسم الحيوان الأول بجسم حيوان آخر وضع على طاولة العمليات وهو يرتعش ، ومن جديد ، صبت قطرات من السائل الذي يبدو غير عدواني ، فتصاعد من الجسد دخان أبيض ، وتحول مكان سقوط القطرات على الجسد العاري إلى حروق استقرت عليه وسط صرخات كانت تنبعث منه . وما لبث الأنين أن ضعف حينما سُكب سائل آخر . وتوقف الأنين نهائياً حينما وضع على الجسم قماش مبلل بهذا السائل . وبعد ثوان كان الخنزير الهندي المعرض للتجربة يقضم أوراقاً وهو في منتهى السعادة .

وكان الدكتور فام نغوك تاش وزير الصحة العامة لحكومة فيتنام الشمالية قد حضر هذه التجربة . فتوجه إليّ قائلاً « **إنه الفوسفور الأبيض ، ونحتاج دون أدنى شك إلى دواء مضاد له يتوفر في كل قرية ليقاوم أثره ، دواء يستطيع الفلاحون استخدامه . ومن**

المعروف أن سلفات النحاس تقاوم الفوسفور الأبيض بصورة عامة ، إلا أن هذه المادة غالية جداً . ومن المستحيل إنتاجها بكميات كافية . ولقد استخدمنا هذه المادة في التجربة الأولى . وفي الثانية كانت المادة التي استخدمناها هي محلول الكلس الذين يمكن صناعته في أي مكان في فيتنام . وكما رأيت ، فإن محلول الكلس أكثر فاعليه من سلفات النحاس ، لأن الألم يتوقف فوراً ، كما أن الحروق تشفى بسرعة أكبر . ويكفي استعمال كمية كافية منه بدقة لإبطال مفعول الفوسفور الأبيض . »

وقد أفهمته بأنني لم أسمع أبداً بأن الأمريكيين استخدموا القنابل الفوسفورية ضد فيتنام الشمالية .

فأجاب الدكتور تاش قائلاً : « **إنهم يستخدمون القنابل الفوسفورية في الجنوب . وعلينا أن نتوقع استخدامها ضدنا عندما يُصعّدون هجومهم علينا . وينبغي علينا أن نتوقع كل ما هو أسوأ** » .

« **لنعد أنفسنا للأسوأ** » : كان عليّ أن أسمع هذه الجملة في كثير من الأحيان خلال إقامتي مرتين في فيتنام الشمالية ، الأولى في فبراير (شباط) ، والثانية في أبريل – مايو (نيسان – مايس) ١٩٦٦ . وقد غدت هذه الكلمة شعاراً وطنياً . وكانت هذه الجملة قبل ذلك شعاراً على كل حال لأولئك الذين يديرون الاستراتيجية العسكرية واقتصاد البلاد . وتشكل هذه التجربة على حيوانات التجارب مثلاً من أمثلة طريقة لا سابقة لها في التاريخ ، تستعد فيها حكومة البلاد لحرب طويلة وقاسية يؤمن الحكام والشعب عن اقتناع أنها حرب لا يمكن تجنبها .

وخلال سبعة أسابيع أمضيتها في فيتنام – الشمالية ، كان كل يوم تقريباً حافلاً بقسطه من المفاجآت . وكنت أرى كل يوم فرجة غابة تؤدي إلى ساقية ماؤها شفاف ، وعليها أطواف من شجر البامبو ، مربوطة بالشاطىء بواسطة حبال متعرشة ، تتلوى في مسيرها نحو عالية الساقية ، كماتتلوى في طرق خطت في بطون الوديان . وكانت أرتال من الفتيان السائرين جنباً إلى جنب على ضفة النهر المنيعة باتجاه الفرجة في الغابة ، يحملون فوق أكتافهم خمسين متراً من البامبو الهائل . وفي الفرجة ، فتيان آخرون ، صبيان وبنات ، كانوا يقطعون جذوع الأشجار إلى ألواح رقيقة ، وكانوا يطوون أوراق الأشجار كي يغطوا السطوح بها . وهناك بعيداً جداً أيضاً ، في ظل الأحراج الطبيعية الكثيفة (مجاهل الغابات) كانت ترتفع أبنية مصنوعة من نفس المواد ، وكنا نلاحظ في الداخل ، عبر « نوافذ » جدران البامو ، أشباحاً انحنت على طاولات مغطاة بالكتب .

قال لي الدليل الذي كان يرافقني : **« هذه هي س — ٥ ، إنها فصيلة التعدين التابعة لمعهد البوليتيكنيك . وقد ابتدأت فيها دراسات الفصل الأول من العام الدراسي ١٩٦٥ — ١٩٦٦ ، في يوم تدشين المبنى الرئيسي الجديد للمعهد في هانوي . وقد أخليت أيضاً كل الجامعات الأخرى »** .

قلت لأحد الأساتذة الذين يتكلمون الفرنسية :

« ولكن ألا يسبب مثل هذا العمل تبديداً كبيراً للأموال ؟ إن هانوي لم تقصف . وقد صرح الأمريكيون أنهم لا ينوون قصفها » .

فأجابني قائلاً : « إننا لا نستطيع أن نثق بعصابات من القتلة . وعلينا أن نعد أنفسنا للأسوأ . وتعير الحكومة أهمية كبرى لحماية الطلبة الذين يشكلون إطاراتنا التقينة في المستقبل .

فإلى أي مدى كان هذا الأستاذ ، وأولئك الذين كانوا يشجعون هذا الموقف الواقعي على حق ، هذا ما أثبته بعد شهرين قصف مستودعات محروقات ضواحي هانوي وهايفونغ على حدود أحياء كثيفة بالسكان .

إلا أن هذا الشعار « **لنعد أنفسنا للأسوأ** » ، هو أكثر من مجرد شعار يطلق . إنه في الوقت نفسه التعبير عن الثورة الواقعية والمنظمة التي حدثت في البلاد ، وتحليل متواضع للنوايا الأمريكية .

وقد صرح الرئيس هوشي مينه في ندائه للرأي العام العالمي في ١٧ من يوليه (تموز) ١٩٦٦ بما يلي :

« ينبغي أن يفهم جونسون وجماعته أنه ليس من المهم كثيراً فيما لو أرسلوا ٥٠٠,٠٠٠ جندي ، ومليوناً أو أكثر ، كي يزيدوا من حدة عدوانهم ضد فيتنام الجنوبية وبإمكانهم أن يعززوا هجماتهم ضد فيتنام الشمالية مستخدمين آلاف الطائرات الجديدة فهم لن يحطموا بعملهم هذا الإرادة الحديدية للشعب الفيتنامي البطل ، هذا الشعب الذي سيتابع كفاحه ضد العدوان الأمريكي ، في سبيل إنقاذ وطنه . فكلما تصاعد عدوانهم ، كلما تضخمت جرائمهم . وربما تستمر الحرب خمسة أعوام أو عشرة أو عشرين عاماً أو أكثر . وقد تدمر هانوي وهايفونغ ومدن أخرى . إلا أن الشعب الفيتنامي لن يرهب العدوان .. ليس هناك من شيء أثمن من الاستقلال والحرية . وعند ما يحين يوم الاستقلال والحرية ، سنعيد بناء بلادنا ، وستكون أجمل مما كانت عليه في السابق .

« **لنعد أنفسنا للأسوأ** » ، جملة تتردد في كل الأنحاء ، على حين يشمر ١٧ مليوناً

من المواطنين ، هم سكان فيتنام الشمالية ، عن سواعدهم ، إنهم يستعدون لمجابهة أضخم طاقة صناعية وعسكرية على الكرة الأرضية ، بأيد عزل ، في نزاع سيبقى دون شك نزاعاً غير متكافىء لم نر مثيلاً له في العالم . وقد استطعت خلال رحلتي أن استشف في كل خطوة من الخطوات ، الطريقة التي كان الفيتناميون يستعدون بها .

كنا نسير على طريق في المنطقة الساحلية . وكنت أتأمل بإعجاب حقلاً من الذرة ، ارتفاع سنابله خمسة عشر سنتيمتراً . وفجأة نبت في الحقل نبات شامخ من البشر : كانوا فلاحين ، رجالاً ونساء ، ظهورهم مغطاة بأوراق خضر ، وبأيديهم بنادق أو رشيشات . وهرع هذا النبات البشري إلى المنشآت الدفاعية المحاذية للطريق . وكان عليّ أن أنظر من جديد لأتأكد من أنهم كانوا فتياناً صغاراً .

قال الدليل : « **– إنهم أفراد مليشيا الدفاع الذاتي ، يتدربون على مواجهة الحالة التي ستنشأ فيما لو قام الأمريكيون بإنزال على اليابسة .**

« **وهل تتوقعون فعلاً أن يقوموا بالإنزال في الشمال ؟**

« **– سيكون جنوناً منهم لو قاموا بذلك ، إلا أن استراتيجيتنا مبنية على أساس هذا الاحتمال . وعلينا أن نعد أنفسنا للأسوأ » .**

وكان هناك معبد بوذي قديم قدم التاريخ ، زين سطحه بتماثيل محفورة تمثل مئات من التنين تبدو وكأنها منفصلة عنه ومعلقة في السماء . وقد انعكست عليها أشعة الشمس فلونتها بلون ذهبي . وفي داخل المعبد عشرات من البوذيين الصينيين ينظرون بعيون يقظة إلى المرضى المتمددين على أسرة الميدان التي نصبت بين أجران المذابح . وقد قاموا بنقلهم إلى هنا من مستشفى يقع في ضواحي هانوي . وعلى مقربة من هذا المنظر كانت هناك ممرضة ترتدي قميصاً أبيض تحرك بيديها دواسات دراجة عادية يتصل مولدها بواسطة سلك كهربائي بحجرة مغطاة « بناموسية » . ونتيجة لتحريك دواسات الدراجة من قبل الممرضة يضيء مصباح قوته ستة فولتات حجرة العمليات حيث يقوم جراح تحت نور هذا المصباح الضعيف ، مع مساعداته بإجراء عملية جراحية لمعدة أحد المرضى .

قلت لهم : « **هناك أسلاك كهربائية على بعد كيلومتر واحد . ويمكنكم الحصول على تيار كهربائي وعلى النور في ساعة واحدة » .**

وأجاب موظف وزارة الصحة العامة الذي كان يرافقني : **حقاً ، إلا أن على جراحينا ومفارزنا الطبية أن تعد نفسها للأسوأ . وينبغي عليهم أن يعتادوا على العمل في أسوأ الظروف. فإذا استمر تصعيد الحرب، تعرضنا إلى الحرمان من الكهرباء في بعض الأحيان ».**

إن مغارة هائلة تغطيها الصخور بسماكة مائة متر تقريباً ... لم تكن تحتوي في زياراتي السابقة ، إلا على الخفافيش وعلى بضع تماثيل من الحجر قد تحولت اليوم إلى مغارة لا يسمع فيها سوى دوي الآلات المنتظم . وقد وسعت ودعمت ممراتها التي تتفرع في كل الاتجاهات ابتداء من الممر الرئيسي . وأقيمت المحركات في بعض أجزائها ، وفي أمكنة أخرى أقيمت المولدات والمخارط ، ومناضد تركيب القطع ، والمثاقب ، وأدوات الصقل بينما وضعت في أمكنة أخرى بعض الآلات . إن المغارة كلها قد تحولت إلى ورشة صناعية تعمل بنشاط تام .

وتؤوي الكهوف والجبال ، وقرى فيتنام الشمالية مصادر الطاقة السرية ، التي كانت إلى أمد قريب مركزة في هانوي أو في المدن الأخرى . وبهذا التوزيع للقوى المادية والمعنوية يضع حكام هانوي ثقتهم بالنصر ، لا بالطائرات الميغ ، ولا بالصواريخ أو أعتدة الحرب الحديثة الأخرى . إنهم يعترفون بأهمية هذه الأسلحة ، سوى أنهم لا يعتبرونها أسلحة أساسية .

ها هو ذا بلد متخلف ، يسكنه تسعة عشر مليوناً من المواطنين ، بلد ذو اقتصاد زراعي أساساً . فكيف يستطيع مثل هذا البلد أن يعالج دعم (وربح) حرب ضد أغنى وأقوى دولة صناعية في العالم ، وضد أقوى دول العالم ، من الناحية العسكرية ؟ ولماذا نرى هذه الابتسامات الواثقة على وجوه هوشي مينه ، وفام فان دونغ ، وفونغوين جياب والزعماء الآخرين ؟ إن الجواب على هذا السؤال ، وأسباب هذه الابتسامات هو ما حاولت التفتيش عنه خلال زياراتي لفيتنام الشمالية .

لقد تحدثت مع القادة العسكريين ، ومع المسؤولين عن اقتصاد البلاد ، وكبار الموظفين المكلفين بإعادة التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي . وزرت مراكز البناء الجديدة ، والمصانع التي أخليت ، والمناطق التي وصل فيها القصف إلى درجة الإشباع . وسرت على جسور أعلن الأمريكيون أنها دمرت ، وطرق قيل إنها لم تعد صالحة للمرور . وبدت لي الأجوبة على أسئلتي بمنتهى الوضوح : كانت البلاد تحقق « **باستعدادها للأسوأ** » ثورة جديدة ذات أبعاد هائلة ، من نوع جديد في تاريخ الإنسانية . ووجدت الشعب وأولئك الذين يقودونه مصممين على الدفاع عن الشمال ، وعلى توحيد البلاد ، أو الموت دونهما .

وحاولت ، في الصفحات التالية أن أظهر كيف سيعالجون كل هذا .

ويلفرد بورشيت

فنومبنه ، أغسطس (آب) ١٩٦٦

الفصل الأول

اقتصاد حربي طويل المدى

خلال حفلة موسيقية جرت في هانوي ، أثناء الجزء الأول من رحلتي الأولى ، تحدثت لبضع لحظات مع الجنرال فونغوين جياب ، وزير الدفاع الوطني البارز والقائد العام للقوات المسلحة لفيتنام الشمالية . وكان الجنرال جياب يعرف أني عائد من المناطق الساحلية التي تحتدم فيها المعركة من أجل الطرق والسكك الحديدية . فقال لي : « **هل ترى ما حققه الطيران الأمريكي** » ، وأطلق ضحكة ازدراء ، وهو يتابع حديثه قائلاً « **لا شيء أبداً** » ، وفي حديث صحفي فيما بعد ، كان عليه أن يعطيني بعض الإيضاحات . فلقد كان لازدرائه للقوة الجوية الأمريكية ما يبرره : فمن المستحيل تفسير بعض الوقائع دون أن نعرف أساسها . وهكذا ، بعد أن أرسلت أمريكا أمهر طياريها لتدمير مئات الكيلومترات من خطوط المواصلات التي تؤدي إلى خط العرض ١٧ ، وبعد بدء عمل هؤلاء الطيارين بثمانية عشر شهراً ، كان عليهم أن يستمروا في ضرب الجسور نفسها التي قصفوها ، والمفارق ذاتها ومحطات الرادار نفسها ، وأهدافاً صغيرة كمرفأ الصيد دون هوي أو جزيرة كونغ كو ، الواقعة إلى الشمال من الحدود مباشرة ، لأن كل هذه المنشآت تعود لتقف على قدميها بعد القصف .

وعلى الطريق الوطني رقم ١ كانت حركة المرور شبه طبيعية . وقد عبرت هذا الطريق بنفس سرعة عبوري لها في رحلتي السابقة تقريباً نحو خط العرض ١٧ ، قبل

عامين . ولقد أصاب الضرر بعض الجسور التي رأيتها في عام ١٩٦٤ ، إلا أن البعض الآخر كان سليماً . سوى أنني اكتشفت فيها أيضاً جسوراً جديدة ، أُقيمت فوق بعض الأنهار التي لم تعرف الجسور طيلة تاريخ فيتنام ، لأن الأمريكيين ، بقصفهم العبارات (المعديات) السابقة جعلوا الجسور أكثر فعالية وضرورة . ولكن الجسور الجديدة ليست من الأنواع الذي يستطيع الطيارون اكتشافها ، أو البحث عنها ـ كما أنهم لا يستطيعون تدميرها لو اكتشفوها . ويسميها الفيتناميون « جسوراً عائمة » . إنها جسور بديلة عن جسور المراكب ، تستخدم فيها حزم ضخمة من شجر البامبو الجبار ، بدلاً عن المراكب وهي جسور لا يمكن إغراقها . وكانوا يبنون أجزاء مستقلة منها يسهل حملها ، تجمع عند هبوط الليل ، ثم تفك عند الفجر ، وفي المساء التالي ، تنصب من جديد في نقاط العبور ، بعدد يوازي اثني عشر جسراً ، ترتبط بها الطرق الثانوية التي تنطلق من الطرق الرئيسية الوطنية .

وقد قال لي دوان ترونغ تروين ، من لجنة تخطيط الدولة : « **إن شعارنا هو التالي : العدو يدمر ونحن نرمم . فنحن نصلح كل الجسور لتأمين المواصلات . ويتضمن هذا العمل كفاحاً ضد العدو لا رحمة فيه ولا شفقة . ويتجمع ما يشبه جيشاً من العمال لتحقيق هذه المهمة . وهم لا يكتفون بإصلاح الأضرار . بل إنهم يقيمون شبكة جديدة . وقد نجحنا في تأمين نقل العتاد المدني والعسكري . وقد حدث بعض التأخير بين بدء الهجمات في فبراير (شباط) من العام الماضي ، وشهر يوليه (تموز) وهو التاريخ الذي أنهينا فيه تنظيمنا . ومنذ هذه الفترة إلى هذا اليوم (مايو ـ مايس ـ ١٩٦٦) ، ازداد حجم المواد الغذائية المنقولة بالنسبة لما كان عليه حجم النقل ـ في السابق ، وحتى بين هانوي وخط العرض ١٧** » .

وقد قمت بعدة رحلات إلى فيتنام الشمالية منذ معركة ديان بيان فو في عام ١٩٥٤ . وكانت آخر إقامة لي فيها في عام ١٩٦٤ . وكان من الطبيعي بالنسبة لمن يعرف البلاد أن يلاحظ بأن دوان ترونغ تروين كان على حق . فقد ازدادت حركة السير على الطرقات فعلاً . كما أن التموين والإمداد كانا يصلان ضمن المدد المقررة . وقد خطط الاقتصاد (والنقل جزء منه) خلال السنوات الماضية . أما القوافل ، سواء أكانت قوافل القطارات ، أو قوافل سيارات النقل ، وقوافل المراكب الشراعية ، أو الدراجات العادية ، فتخضع كلها لتوقيت دقيق . وتتعهد المنظمات المسؤولة بتسليم هذه الكمية من البضاعة أو تلك في مكان معين بتاريخ يتفق عليه مسبقاً . وقد أكدوا لي أنهم يتمسكون بهذه الوعود

ويفون بها ، ولا تتغير ، حتى في المناطق المعرضة تعرضاً أكبر للهجمات الجوية . ويُتفق على مدة معينة إضافية عند أخذ التعهد في حالة التأخير الناجم عن القصف الجوي . وهي مهلة تقدر بطريقة دقيقة جداً . وذلك لأن مصلحة ترميم الطرقات تتعهد هي أيضاً بالوفاء بهذه الالتزامات ، وتعمل طبقاً لخطة محددة . وهي تعرف الوقت اللازم لترميم الأضرار الكبرى التي يحدثها القصف الجوي بالقنابل في مكان معين . وبفضل هذا الأسلوب ، لا يجد المخططون الموجودون في قمة هرم الإدارة أمامهم سوى تسيير هذه البضائع في التواريخ الملائمة ، وكأنها تسير في أنابيب حقيقية ، مهتمين مع ذلك بتوقع هامش خطئهم الخاص . وهذا كاف كي يصل التموين والتجهيز بكمية مناسبة ، في المكان الذي تحدده الضرورة ، وفي الوقت المحدد . وقد كان على الجنرال فونغوين جياب أن يقوم بالحسابات ذاتها في ديان بيان فو : سوى أن الظروف لم تكن ملائمة في ذلك الوقت . فكان من الواجب عليه أن يكتفي بما تحمله ظهور البشر والعربات التي تجرها الأبقار : إذ لم يكن هناك في ذلك الوقت اقتصاد وطني بالمعنى الحقيقي للكلمة . أما اليوم ، فقد بدت القوة الجوية الأمريكية عاجزة حتى الآن ، رغم جهود جبارة وكثيرة التكاليف . وتعرف واشنطون ذلك حق المعرفة ، برغم كل البيانات المتفائلة التي تصلها من سايغون . وقد قال لي دوان ترونغ أيضاً : **« إن علينا في الواقع ، أن نقدر الجميل للأمريكيين ، لأن قصفهم الجوي قد اضطرنا للقيام بخطوة إلى الأمام ، وإلى تحقيق منجزات كثيرة بسرعة هائلة كانت تتطلب منا أعواماً ، لولا القصف . وقد قمنا في عام ١٩٦٥ في مجال تحسين النقل ، بعمل أكبر مما قمنا به في الأعوام الثلاثة أو الأربعة الماضية . وبهذا الشكل بحثنا مسألة تحسين الخط الحديدي لبينيشيانغ على الحدود الصينية . وكانت الأعمال الكبرى متوقعة لعام ١٩٦٥ ، وهي آخر سنة في الخطة الخمسية . وفي نهاية يناير (كانون ثاني) ١٩٦٤ ، أنهينا وضع برنامج العمل ، إلا أننا تخلينا عنه لعدم وجود اليد العاملة . وعندما ابتدأ القصف الجوي ، أخرجنا مخططاتنا ، وتمت الأعمال في خلال مدة لا تزيد عن أربعة أشهر . إن هذه التحسينات ليست ضرورة لزمن الحرب فحسب ، بل إنها هامة جداً في زمن السلم .**

إن ألفي طن من القنابل قد سقطت على جزء صغير فقط من الطريق والخط الحديدي اللذين يحاذيان الساحل . وهناك جسور قليلة الأهمية واقعة على هذه الخطوط هوجمت عشرين مرة أو أكثر . إلا أن الاثنين ما زالا يعملان بصورة طبيعية . وفي بعض الأحيان ، تصلح الأضرار الناجمة عن القصف ، قبل أن يتبدد دخان القصف نفسه . وقد تبدل

تقديرنا للوقت الضروري لإجراء التصليحات اللازمة لهذه الطرق تبدلاً جذرياً . ففي الماضي ، كنا نكتب كثيراً من الأوراق ، إذ لا بد من معاينة الخبراء ، ومن تقدير الأضرار ، وإرسال مختلف مشاريع إعادة البناء إلى الدراسة في كثير من المصالح . ومن ثم تصل مختلف تقارير الخبراء الماليين وغيرهم إلى الوزارات المتعددة . وكانت هذه الشكليات تتطلب عدة أشهر . وفي مطلع أعمال القصف الجوي ، قام الاختصاصيون بدراسة حالة الجسر الذي تعرض للقصف طبقاً للطرق التقليدية . وبعد الدراسة صرحوا :

« إن تصليحه يحتاج إلى ستة أشهر ، وربما يحتاج إلى عام بكامله » .سوى أن العمال المحليين ، الذين ضرستهم الحرب أجابوا على ذلك قائلين : « إن ما تقولونه مضحك ، فبوسعنا أن نعيد كل شيء إلى حاله في خلال شهر واحد . » وأصيب الخبراء بالدهشة واحتجوا ولكن حركة السير عادت بعد أسبوع واحد . وقد حدثت حالات متعددة من هذا النوع . وفيما بعد استطاع العمال أن يضعوا بناء على التجربة التي حصلوا عليها أسلوباً للعمل . وبفضل العناصر مسبقة الصنع التي صمموها بأنفسهم بمعونة بعض الاختصاصيين توصلوا إلى ترميم واستبدال الجسور في يوم واحد » .

وإنه لمما يثبط العزيمة بالنسبة للطيارين الأمريكيين أن يعلموا بأن الصور الجوية التي كانت تؤخذ بعد تدمير جسر من الجسور ، تظهره وقد أعيد بناؤه بصورة كاملة . وقد تم كل ذلك لأن زمر إعادة البناء ، التي يقودها في غالب الأحيان الخريجون الجدد الشباب الذين تخرجوا من كلية التكنولوجيا في هانوي ، أو من معهد البوليتيكنيك ، يتمتعون بكل الصلاحيات للشروع بالإصلاحات دون أخذ موافقة الإدارات أو الوزارات .

وغالباً ما لاحظت أثناء رحلتي عدة طرق لم أرها في السابق . وقد التقيت بمجموعات من الشباب الذين كانوا يعملون ليلاً على ضوء المصابيح الكهربائية أو الأنوار الباهتة وكانوا يقطعون الصخور والأشجار ، وينقلون التراب في سلال من الخيزران ، ويسحبون المداحل الضاغطة إلى مسافة عدة كيلو مترات . وقد فسر لي دوان ترونغ تروين ذلك بما يلي : —

« لقد بنينا ، خلال هذه السنوات الأخيرة عدة طرق استراتيجية في داخل المناطق ، كما بنينا شبكة طرق كاملة تربط مختلف المناطق والأقاليم والمحافظات ببعضها . ويسمح لنا هذا البناء الجديد باستخدام مختلف المسالك ، في كل اتجاه . ولا تخضع هذه الأعمال ، كما لا تخضع أعمال الجسور إلى السلطة المركزية . لقد كانت هذه الأعمال في السابق تتم تحت إشراف وزارة النقل والمواصلات . أما اليوم ، فهي تحت إشراف سلطات مختلف

التقسيمات الإدارية الإقليمية » .

وقد سافرت إلى إحدى القرى بعد عدة أيام من هذا الحديث بغية القيام بأبحاث لا تمت بأية صلة إلى التخطيط الاقتصادي . وكلما كنا نقترب من تلك القرية كان ضجيج الآلات العادي يلازمنا ويحيط بنا . ووصلنا إلى حدود حقول الأرز وباقات أشجار الموز والبامبو . وكانت الجواميس تتقدم بتثاقل على طول درب تم توسيعه ورصفه بالأحجار حديثاً . وتحت ملجأ مرتجل سقفه محمول بعدة أوتاد، رأينا بعض آلات النسيج التي كانت تعمل . وهذه الآلات تسيرها فتيات يتمتعن بوجوه مشرقة ، وقد جئن من مصنع نسيج كبير في هانوي . وقد صوّرت هناك ، في ورشة النسيج وفي أمكنة أخرى مواضع خالية ، ولم يكن هناك سوى صواميل قد ثبتت في الإسمنت المسلح تشير إلى مكان الآلات التي اختفت ، على حين ، رأيت على الجدران خطوطاً بيانية تبين إنتاج العاملات . وقد رأيت بعيني عمالاً يحملون الآلات التي كانت تسد مداخل ورش النسيج الصغيرة على سيارات كبيرة ، على حين كانت مجموعات من النساء تجلسن القرفصاء بانتظار نزول آلاتهن ، وكانت بعض النسوة قد اصطحبن أولادهن . وقد كانت بعض الورش مستمرة في عملها في هانوي . ولكنهم أفهموني في القرية أن جزءاً من مصنع النسيج قد أقيم فيها . وقد اندفعت نحوي رئيسة العمال ، التي ابيض شعرها من وبر النسيج ، وبيدها كراس صغير ، وأفهمتني أن إنتاج النسيج أعلى عندها من الإنتاج في هانوي . وقد قالت لي إحدى الفتيات بوجه ينضح بالبشر : « **إن مهنتنا عبارة عن رشاشات ضد الغزاة** » . ثم ابتعدت لترضع طفلاً موفور الصحة حملته إليها ممرضة بثوب أبيض .

وقد وجهت إلى خبير لجنة التخطيط السؤال التالي : « **هل من الممكن، بهذه الدرجة من اللامركزية والتوزيع أن يستمر النشاط الاقتصادي ؟** » وإني لأتذكر الآن ورشة أُقيمت في مغارة ، ومصنعاً ينتج بعض ماكينات العمل ، وجزءاً من مصنع ينتج المضخات الكهربائية المخصصة للري . ومصنعاً آخر ينتج قطعاً مستقلة من الدراجات ، وورشاً صغيرة مختلفة صادفتها أثناء تنقلاتي . ورأيت في مناطق أخرى على طرق المراكز البعيدة قوافل تنقل العتاد المخصص لخلاطات الإسمنت .

وقد أجابني خبير لجنة التخطيط قائلاً : نعم . « **لن تفهم لماذا نعمل هذا عندما تقوم بحساب النفقات . ينبغي أن تعرف قبل كل شيء شعارنا : « كل شيء من أجل النصر » . ومن واجبنا أن نرد على مشروع التدمير الذي تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية . إن علينا أن نتوقع الأسوأ . وإذا استمر التصعيد ، علينا أن نتوقع هجوم**

القطعات الأمريكية على أرضنا . ومن الضروري لمجابهة هذا الغزو أن نطور اقتصادنا ، وأن نتبنى فنوناً جديدة تتلاءم مع الوضع الحاضر ، ومــع كل الأحداث التي يمكن للإنسان أن يتوقعها . ومن الضروري أن نزيد قبل كل شيء إنتاجنا الزراعي ، وسأتحدث معك عن ذلك .

ولكي أرد بصورة دقيقة وواضحة على سؤالك ، علينا بالتوازي مع ثورتنا التقنية أن نقوم بتوزيع جديد لقوانا المنتجة ، وأن نقيم أسساً اقتصادية جديدة ، وأن ننشىء المصانع في مناطق جديدة ، تتلاءم مع الوضع الحاضر ، وأن نخلق فيما بعد الشروط الملائمة للنصر . إن تطوير مناطقنا الجبّلية هام جداً للدفاع الوطني ، لا للحماية فقط ضد القصف الجوي أو محاولات الغزو ، ولكن من أجل نهضة البلاد في المستقبل . وفي الوقت الذي نقوم فيه بالثورة التقنية وتوزيع طاقتنا الاقتصادية من جديد ، فإن لدينا إمكانية تعزيز إنتاجيتنا الاقتصادية والعسكرية ، وتثبت الأرقام صحة ذلك . إنه لمن الصعب أن يفهم ذلك عدد من أصدقائنا الأجانب ، إلا أن الوقائع هي التي تتكلم .

وقد وضعنا مبدأً آخر لعملنا ، وهو أن من الواجب علينا أن نعتمد على أنفسنا . إننا نقدر العون الذي نتلقاه من أصدقائنا ونحتاج إليه ، إلا أن علينا أن ننتج بأنفسنا . وعلى ظهورنا ستسقط أقسى الضربات ، وعلينا أن نتحملها بفضل عضلاتنا وأدمغتنا . إن من واجبنا أن نطبق مبدأ الاكتفاء الذاتي الكامل ، على المستوى المحلي ، وعلى المستــوى الوطني . وعلى كل منطقة أن تغدو مستقلة اقتصادياً وعسكرياً . وينطبق هذا المبدأ على الصناعة والزراعة معاً ، وهو ضروري لكل المناطق ، ابتداء من المنطقة الرابعة[1] حتى دلتا النهر الأحمر وجبال الشمال والغرب . وعلى كل هذه المناطق أن تكون قادرة على الحياة لوحدها ، وأن تستعد لصد هجمات العدو ، من حيث أتت ، وأنّى كان شكلها . إنك لم تر سوى أجزاء صغيرة من هذه الصناعة التي أقيمت حديثاً . ولو استطعت أن تكون فكرة عامة عن كل العناصر لغيرت رأيك . وهذا ما تعبر عنه أرقام إنتاجنا » .

وطلبت الاطلاع على اللوحة العامة للوضع ، فقدم إلي نغوين فان شو اللائحة التالية :

الإنتاج الزراعي العام : زاد ٣٫٣٪ عما كان عليه في عام ١٩٦٤ ، وهي أفضل سنة من سنوات الخطة الخمسية التي انتهت عام ١٩٦٥ .

الإنتاج الصناعي العام : زاد بنسبة ٨٫٤٪ بالنسبة لعام ١٩٦٤ .

---

(١) المنطقه الساحليه الممتدة حتى خط العرض ١٧ .

ويرتبط الإنتاج الصناعي للمصانع بالوزارات مباشرة : وتعادل الزيادة فيه ١٢ ٪ بالنسبة لعام ١٩٦٤ .

وزادت الغلال المخصصة للصناعة بنسبة ٧,٣ ٪ من مساحة الأرض المزروعة بالنسبة لعام ١٩٦٤ . وزاد مردود الهكتار بنسبة ٢٥,٤ ٪ بالنسبة لعام ١٩٦٤ .

ويشتمل الإنتاج الصناعي العام على إنتاج أدوات العمل ، والتجهيزات المخصصة للنقل . وكلها تشير إلى زيادة واضحة بالنسبة لعام ١٩٦٤ . كما أن الزيادة واضحة في إنتاج الكهرباء ، والفحم ، والإسمنت ، والنسيج ، بالرغم من قصف مصنع نان دينه في يوليه (تموز) ١٩٦٥ ، وإخلاء جزء كبير من ورشاته فيما بعد . وقد عرف الإنتاج الصناعي المحلي ، وإنتاج المصانع التي أنشئت حديثاً زيادة تعادل ٤٠ ٪ .

وقد قال لي دوان ترونغ تروين ما يلي : « **ساهم إنشاء المصانع الصغيرة والمتوسطة في زيادة إنتاجنا إلى حد كبير . وقد اضطررنا إلى إيقاف بناء مصانع أوسع منها ، أو إلى إبطاء العمل فيها ، بغية زيادة عدد المصانع الصغيرة . وقد وجهنا جهدنا نحو المناطق الجبلية بصورة خاصة . فإذا ما وضعنا ضرورات الحرب جانباً ، وجدنا أنها رائعة جداً من الناحية الاقتصادية . فالمصانع الصغيرة تسمح في الواقع بتعويض رؤوس الأموال المستثمرة بصورة أسرع** » .

أفلا يتعارض كل هذا العمل مع التخطيط الصناعي ؟ وما هو مصير برنامج التصنيع ؟ وما هو مصير طلبات الأعتدة الثقيلة الموجهة إلى الدول الاشتراكية ؟

أجاب خبير لجنة التخطيط قائلاً :

« **كانت خطتنا الخمسية الأولى للتصنيع تغطي الفترة ما بين ١٩٦١ ـ ١٩٦٥ . وكانت تستهدف قبل كل شيء السماح ببناء القواعد المادية والتقنية للاشتراكية . وقد أعطت هذه الخطة نتائج جيدة . ومنذ عام ١٩٦٤ ، ابتدأنا في تحديد شكل الخطة الخمسية التالية . وهاجمنا الأمريكيون في أغسطس (آب) ١٩٦٤ ، وبدأت الغارات المنتظمة في فبراير (شباط) ١٩٦٥ . وقد اضطرنا ذلك إلى تبديل تكتيكنا ، لا إلى تبديل أهدافنا . فكانت مهمتنا الرئيسية تشتمل في بادىء الأمر على بناء اقتصادنا ، دون أن نهمل الدفاع الوطني أثناء القيام بهذه العملية . وكانت مشكلتنا الأساسية هي التوفيق ما بين هاتين الرغبتين . فقد اضطرنا العدوان الأمريكي إلى إعادة النظر بطرقنا وأساليبنا . وعلينا الآن أن نفكر بتجنيد كل مواردنا البشرية والمادية والمالية بغية زيادة الإنتاج . ويسمح**

لنا هذا العمل بتلبية احتياجاتنا العسكرية ، ومساعدة فيتنام الجنوبية قدر استطاعتنا لأن الجنوب يشكل الجبهة ، بينما لا يشكل الشمال سوى المؤخرة . وهكذا تخلينا عن بعض الأشياء ، ووضعنا خطة لعامين مخصصة لسد النقص . وتأخذ هذه الخطة بعين الاعتبار وقبل كل شيء ، المطالب الناتجة عن الحرب ، مع السماح لنا بمتابعة بناء الاشتراكية لأننا لن نترك أبداً الجهد الحربي يحفر ثغرات في تطورنا الاقتصادي . بل على العكس ، إن الحرب ستساهم منذ الآن بإعطاء دفع جديد لإنتاجنا .

ومن جهة أخرى، أرسلنا وفداً برئاسة نائب رئيس مجلس الوزراء إلى الدول الاشتراكية التي وجهنا إليها بعض الطلبات . وقد أعلن هذا الوفد للمسؤولين في تلك الدول ، أن احتياجاتنا قد تبدلت . وكان علينا أن نلغي طلبات التجهيزات الثقيلة ، وأن نطلب بدلاً منها عتاداً خفيفاً يتلاءم مع منهاجنا في توزيع الصناعة إلى مصانع صغيرة .

— وكيف سيكون منهاجكم بعد برنامج خطة السنتين ؟

— إن ذلك متعلق بطبيعة الحرب . فقد تستمر هذه الحرب عشرة أعوام أو أكثر . ونحن نأخذ هذا الاحتمال بعين الاعتبار في إعداد إطاراتنا الفنية . ولكن إذا حصلنا على النصر بصورة سريعة ، فإننا نستطيع التلاؤم بسرعة كبيرة مع ظروف جديدة . وتشكل هذه الخطة في الواقع مرحلة انتقال . ومن الممكن أن نتوصل بواسطتها إلى مساعدة تطور الصناعة الحربية أو تعديلها لصالح الصناعة المدنية .

وفي مجال الزراعة ، تبقى مهمة الزراعة مهمة مشابهة للصناعة . ففي هذا المجال لا بد من تطبيق الأساليب الجديدة بغرض الحصول على أقصى مردود . ونحن الآن بصدد القيام بما نطلق عليه اسم « الثورة التقنية » في الأرياف .

— ولكن ، بوضعكم الفلاحين جانباً ، من أين تحصلون على اليد العاملة الزراعية ؟ وكيف تتوصلون إلى استخلاص أقصى مردود من الأرض ، مع إخلائكم السكان من المناطق الزراعية ؟ فنحن لا نرى ، عملياً ، سوى نساء في الحقول ، وهن لا ينقلن الأرز كما كن تفعلن في الماضي فحسب ، بل إنهن يحرثن الأرض وينفذن الأعمال الأخرى .

— هذا صحيح . لقد حلت النساء محل الرجال بنسبة كبيرة . فالفقر في اليد العاملة الزراعية باق ومستمر ، ولكن لا تنس أنه منذ زمن ليس بالبعيد ، كان فائض العمال الزراعيين يخلق لنا مشكلة دائمة »

لقد كان ما يقوله صحيحاً . فعندما أبديت اهتمامي في المرة الأخيرة في عام ١٩٦٢ بهذه

المشكلة ، اكتشفت أن كل مواطن لا يتمتع إلا بجزء من أحد عشر جزءاً من الهكتار الواحد في أرض صالحة للزراعة . وكان عمال حقول الأرز لا يعملــون أكثر من مائة يوم في العام ، وكان عدد العمال كبيراً جداً لدرجة كانوا معها يضايقون بعضهم بعضاً . فمكننة الزراعة لم تكن لتقدم أية فائدة ، لأنها لو تمت لساهمت في تخفيض عدد ساعات العمل وهي أساس حساب الأجور . وكان التصنيع يسير ببطء كبير حتى يعوض ذلك ويتيح مجالات جديدة للعمل .

إن الحرب هي التي سمحت بالثورة التقنية ، لأن اندلاعها خفض من عدد اليــد العاملة . ولم تعط هذه الثورة حتى الآن سوى نتائج متواضعة ، إذا أردنا أن نحكم عليها طبقاً للمقاييس الغربية . ولم تبدأ مكننة المزارع الجماعية إلا في مطلع عام ١٩٦٥ . وقد كان حصاد الشهر الخامس من هذه السنة أول حصاد الحرب[1] . ولقد تعرضنا لصعوبات كبرى في فبراير (شباط) ومارس (آذار) ، وبخاصة في المناطق الساحلية ، حيث كانت هذه المناطق هدفاً لقصف مستمر . وكان الوقت لصالحنا أيضاً ، إلا أن المحصول كان جيداً جداً ، كما ازداد مردود الهكتار .

وقد صادف حصاد الشهر العاشر صعوبات جديدة : فيضانات ، وجفافاً ،وإصابات بالحشرات ، بالإضافة إلى القصف الجوي وقلة اليد العاملة . ولم تكن محصولاتنا في هذا الشهر بقدر جودة الشهر الخامس ، سوى أنها كانت كافيــة لتجعل من عام ١٩٦٥ ، أفضل عام في الخطة الخمسية . إن الإنتاج كان أغزر في المنطقة الساحلية المعرضة للقصف الجوي من المناطق الأخرى بصورة كبيرة ، وحتى في بعض أجزاء هذه المنطقة التي كانت الغارات مستمرة ومتواصلة عليها ، فقد زاد الإنتاج الزراعي فيها بنسبة ١٤ ٪ عما كان عليه عام ١٩٦٤ . وقد تمت هذه الزيادة نتيجة لارتفاع معنويات السكان ، الذين كان القصف الجوي بالنسبة إليهم دافعاً ومحرضاً على مزيد من العمــل . ومن ثم فقد ازداد الإنتاج نتيجة لنظام ري وسقاية أفضل كانت تؤمنه المحطات الكهربائية ، بالإضافة إلى استخدام الأسمدة وانتقاء البذور. والخلاصة : نجم هذا الإنتاج الزائد نتيجة لتطبيق «الثورة التقنية» بين ٢٨،٠٠٠ جمعية تعاونية زراعية ، حققت ٧٠٠ جمعية منها إنتاج ٥ أطنان من الأرز في الهكتار الواحد ، مما يثبت إمكانية الوصول إلى هذه النتيجة في كل مكان . وكان

---

(١) هناك محصولان رئيسيان للأرز في العام الواحد ، في فيتنام الشماليه . وتبذر الحبوب في الشتاء وفي نهايه الربيع ، وتحصد أثناء الشهر الخامس والعاشر القمريين .

المردود المتوسط لعام ١٩٥٩ – وهو أفضل عام في الإنتاج الزراعي لما قبل الحرب – ١,٥ إلى ١,٦ طن في الهكتار الواحد . وبلغ ٣ أطنان في بعض الأماكن النادرة ، حيث استطعنا بصورة استثنائية جني محصولين . إن طريقة المحصول المزدوج قد أضحت اليوم قاعدة في ٨٠٪ من جمعياتنا التعاونية .

– ماذا يمثل حصاد عام ١٩٦٥ بالنسبة لاحتياجاتكم الغذائية ؟

– سيسمح لنا هذا الحصاد بتكوين مخزون أهم من ذي قبل . وتتجاوز الموادالاحتياطية التي كوناها في هذا العام احتياط السنين السابقة بكميات كبيرة . وهنا يتدخل عاملان في هذا المجال : أهمية الغلال التي حصدناها ، ووطنية الفلاحين . وقد احتفظ الفلاحون لأنفسهم على الأقل بكميات كبيرة من الأرز لاستعمالهم الشخصي . وقد قمنا بتخزين ٢٣٪ من المحصول العام ، وشجعنا التعاونيات على أن تخزن لنفسها مواداً احتياطية أيضاً . ويسمح لنا مثل هذا العمل بالتوصل إلى اكتفاء ذاتي كامل ، إلا إذا وقعت بعض الكوارث الطبيعية . وبوسع مختلف المناطق والأقسام أن تتوصل أيضاً إلى العيش بفضل مواردها الخاصة . ويخفف هذا التخزين إلى حد كبير من مسؤوليات هيئات النقل العام ، ويزيل حملاً ثقيلاً عن عاتق أولئك المكلفين بتوزيع الغذاء فيما لو تعطلت المواصلات بين المحافظات ، وتعرضت لأضرار كبيرة . ويمكن القول إذن إن هذا العام الأول من الحرب كان عاماً مشجعاً من الناحية الزراعية .

– ألم تلاحظوا ميلاً لدى الأفراد للاحتفاظ بمخزون احتياطي خاص من السلع الغذائية ، كما هو شائع ومعروف في زمن الحرب ، الأمر الذي يرفع الأسعار بصورة عامة ؟ وبعبارات أخرى ، هل تصمد المبادىء الاشتراكية أمام الوضع الحاضر ؟ وكيف تحصلون على الأرز الذي تقومون بتخزينه ؟

– إننا نقوم بتخزين السلع الغذائية منذ عدة أعوام . وخلال فترة معينة ، أي خلال خمس سنوات مثلاً ، تضطر الجمعيات التعاونية إلى بيع الدولة كمية معينة من الحبوب . وتدفع الدولة ٣٣ سو Saus في الكيلو غرام الواحد من الأرز غير المقشر الذي يباع بسعر ٤٠ سو للمستهلك[1] . ولكننا دفعنا في عام ١٩٦٥ سعراً أعلى بـ ٥٠٪ لجميع الحبوب التي تسلم بالإضافة لما هو مطلوب ، كي نشجع الإنتاج ونحول دون بيع الفلاحين للفائض

---

(١) يقسم الدونغ الى ١٠٠ سو ، وهو الوحدة النقدية لجمهورية فيتنام الشمالية . ويساوي الدونغ ٠,٧٥ ٪ من الفرنك الفرنسي تقريباً . (المؤلف)

من محصولاتهم ، ولكي نساعد على انتشار المبــادىء الاشتراكية ، نشجع « المعونــة المتبادلة » بين التعاونيات . وبهذا الشكل ، عندما يفتقر أحد الأشخاص إلى الأرز بصورة مؤقتة ، فإن من واجب بقية أعضاء المجموعة تزويده بما يحتاجه بالسعر المحدد من قبل الحكومة . فلا وجود إذن لاستغلال الفاقة . وتبقى المبادىء الاشتراكية مطبقة ، على حين تتطور التقاليد الإنسانية والوطنية لشعبنا . ويجري هذا التطور بصورة جيدة .

وقد عرفت السوق الحرة ارتفاعاً في الأسعار . إذ ارتفعت أسعار الخضار ، والبيض والسمك بنسبة ٢٥ ٪ إلى ٢٧ ٪ خلال العام المبتدىء بفبراير (شباط) ١٩٦٥ . ولكن بوسعنا القول مع ذلك إن الأسعار بقيت ثابتة ، لأن ٨٥ ٪ من مشتريات المواد الغذائية تم بواسطة مشروعات الدولة ، التي لم تتبدل قوائم أسعارها . ولا يستطيع السكان أن يخزنوا بصورة سرية ، لأن تجارة الجملة غير ممكنة إلا بين التعاونيات ومؤسسات الدولة الشرائية ، التي تشرف تقريباً على كل أسواق المفرق . فليس هناك سوق سوداء مــن الناحية العملية بفضل وحدة شعبنا ووطنيته وثقته بحكومته » .

وقد لاحظت شخصياً في هانوي ، وفي أسواق القرى ، وبين عامة المستهلكين أن ارتفاع الأسعار كان بنفس الشكل الذي ذكره دوان ترونغ تروين ، ولكن يصل سعر الأرز في بعض الأماكن ، في السوق الحرة ، إلى ٨٠سو للكيلو الواحد ، أي ضعف السعر الرسمي . ويعود تقنين لحم الخنزير ، والأرز ، والحليب المكثف والسكر إلى عام ١٩٥٧ . ولم يشمل التقنين أية مادة جديدة ، كما لم تتعرض الحصص الفردية لأي تخفيض منذ بدء الحرب . ويخصص للبالغين ١٣ كيلو غراماً من الأرز شهرياً ، أما الاطفال فيخصص لهم ١٠ كيلو غرامات . وقد أكدت لي معظم العائلات أن الكمية كافية جداً ، وأنه من النادر أن تضطر إلى شراء كميات إضافية . ويباع الخبز المصنوع من دقيق القمح بصورة حرة في كل الأسواق . وتتوفر الخضار بكمية كبيرة في هانوي وفي الريف ، كما يتوفر اللحم والسمك والفواكه . وقد انخفضت الأسعار انخفاضاً ملحوظاً منذ عامين .

وقد فسر لي دوان ترونغ تروين هذا الموضوع قائلاً ما يلي : « **اتخذت السلطات العليا في عام ١٩٦٤ قرارات هامة ، فيما يتعلق بالتجارة الداخلية والأسعار . لقد كان من الواجب قبل كل شيء تثبيت هذه الأسعار ، وإعادة ضبط المرتفعة منها ، والقيــام بتخفيض عام لها . ثم جاءت الحرب . فكيف يمكن الاستمرار في تطبيق هذه السياسة ؟ كان عدد كبير من الخبراء يفكرون بالتخلي عن ذلك ، إلا أن حكامنا عارضوا رأيهم قائلين : « حقاً ، إن علينا أن نحارب ، إلا أن من الواجب متابعة بناء الاشتراكية . وبما**

أن الأسعار عنصر من العناصر الهامة للحياة في النظام الاشتراكي ، ينبغي إذن متابعة جهودنا في هذا الاتجاه » .

وقد نجحنا هذا العام في تخفيض أسعار الورق والكتب التقليدية ، والأدوية، والدراجات وأجهزة الراديو ، والمنسوجات ... الخ ... بصورة ملموسة » (وكان تنزيل الأسعار بمعدل يعادل من ٣٠٪ إلى ٦٠٪ وقد لاحظت هذا التخفيض عند قيامي بتحقيقات في بعض المخازن) .

ثم أضاف محدثي قائلاً باعتزاز مفهوم : « إنها نتيجة واحدة تقريباً في زمن الحرب . وقد سمحت لنا بالحصول عليها عوامل ثلاثة : التجربة التي اكتسبناها أثناء حرب الهند الصينية ، والإشراف الذي تمارسه الدولة على الاقتصاد العام ، وثقة الشعب بالسلطات الإدارية . وإننا لنبذل جهدنا في الوقت الحاضر لتخفيض أسعار الآلات الزراعية . والخشب والفحم التي نسلمها للتعاونيات . ونحن ننوي تطبيق التدابير نفسها ، بصورة منهجية ، على أسعار وسائل الإنتاج . وعلينا أن لا يغيب عن ذهننا بناء الاشتراكية » .

« ــ إن بناء الاشتراكية يفترض ارتفاعاً مستمراً لمستوى الحياة . إلا أنكم تجندون اليد العاملة ، وتخلقون اضطرابات اجتماعية واقتصادية ، تؤثر على مستوى الحياة بصورة آلية . أليس في هذا العمل عودة إلى الوراء ؟

« ــ لن يكون بوسعنا تحسين مستوى الحياة قبل مرور زمن معين . ونحاول الآن جهدنا للمحافظة على حالته الراهنة . ونطالب الشعب بقبول كل أنواع الحرمان بوطنية وبروح عالية من التضحية ، وبممارسة اقتصاد دقيق جداً . وإننا نسعى جاهدين لتلبية المطالب الحيوية الأساسية ، وأن يباع الأرز ، والسكر ، والملح ، والمحروقات ، والمنسوجات بأسعار معقولة تحددها الحكومة . إلا أن من الممكن أن يتم التوزيع بصورة غير عادلة ، لأن الأشخاص الذين يملكون النقد السائل هم وحدهم الذين يستطيعون الشراء من المخازن . مثلاً : هناك بعض المناطق التي تعاني من فقدان إبر الخياطة ، والكبريت ، والسكاير ، وحينما يصل النبأ إلينا نقوم بتسليم هذه المواد إلى التعاونيات وإلى النقابات التي توزعها بواسطة مصالحها الخاصة . وبهذا الشكل نكون واثقين من أن المواد تصل إلى أولئك الذين يحتاجونها ، وأنه لن يكون هناك ارتفاع في الأسعار ، أو تشكيل لمخزون خاص .

ولا نعتقد أن مبادىء الاشتراكية تعاني من هذه التدابير . بل على العكس ، فإن كل فرد يحاول أن تكون قسمة المكاسب والتضحيات قسمة عادلة » .

« – لقد وضعتم مؤخراً أسلوباً جديداً للتعليم . ألن يتأثر هذا الأسلوب من التعبئة العامة ، ومن تعبئة الشباب بصورة خاصة ؟ أليس من الخطورة بالنسبة للمستقبل تجنيد آلاف الطلاب ، والإطارات الفنية ؟ »

« – إن من حق وزير التربية الوطنية أن يجيب على هذا السؤال أكثر مني . فقد جندنا فعلاً عشرات الألوف من الشبان . بل إننا جندنا كل الشباب تقريباً ، أي إن أكثر من ثلاثة ملايين ينتمون اليوم إلى حركة « الاستعدادات الثلاثة » [1] . وفي المناطق الجبلية وحدها ، جندنا ٢٥٠,٠٠٠ للمساعدة في التطور الاقتصادي للقطاعات المتخلفة عن غيرها. ويقوم عشرات الألوف ببناء طرق المواصلات ، أو يساعدون في إصلاح الأضرار الناجمة عن القصف . ولكننا لم نستدع الـ ٩٠,٠٠٠ شاباً الذين يتابعون دراستهم كي ما يصبحون إطارات فنية أو عمالاً اختصاصيين ، كما أننا لم نستدع أساتذتهم ، فهم يمثلون رأسمالٍ ثميناً للمستقبل . إنهم سيحاربون إذا ما استمرت الحرب مدة طويلة ، إلا أنهم سيكلفونَ بصورة خاصة بمهام أكبر وأعظم لا بد من أن نقوم بها عندما يأتي السلم .

إننا لا نخدع أبداً بالصعوبات والأخطار التي تنتظرنا ، ولابنوايا عدونا ، إلا أننا مقتنعون أننا سنتغلب عليها . وسنتوصل إلى الأهداف التي رسمناها لأنفسنا . وأهم هذه الأهداف هو المحافظة على استقلالنا الوطني.

لقد ذهب حتى الآن ٨٥٠,٠٠٠ شاباً إلى الجبال . إنهم يبنون فيها المصانع والطرق ، ويخوضون كفاحاً يومياً : في إصلاح الأضرار التي سببتها القنابل .

وتقدم مقاطعة كوانغ بنه مثلاً حسناً لانتشار الصناعات ، وللجهد الذي تحقق لإعطاء المحافظات أقصى ما يمكن من الاكتفاء الذاتي . وقد أقيمت ورش لبناء وتصليح الآلات في عام ١٩٦٥ ، وفي مطلع عام ١٩٦٦ في الأقسام وعلى مستوى مناطق أوسع وقد أصبحت تلك الورش تزودنا بالتجهيزات الصناعية والزراعية ووسائل النقل وتقوم بتصليحها . وتتشكل هذه الورش من درّاسات صغيرة ، ومضارب للأرز ، وعربات

---

(١) الاستعدادات الثلاثه : Les Trois Prêts وهي :
– مستعدون للقتال بإقدام والالتحاق بالقوات المسلحة .
– مستعدون للتغلب على كل الصعوبات ولتحسين الإنتاج ، ومستوى العمل والدراسات في كل الظروف .
– مستعدون للالتحاق في أي مكان ، للقيام بأية مهمة يلقيها الوطن على عاتقنا .
(المؤلف)

يدوية للقيام بدور السلال المعلقة على قصبة طويلة محمولة على الكتف ،ومجارف ومعاول ، وسكك المحاريث ومدارج الكريات [1] وضاغطات لصنع القرميد والآجر . وهنـاك مصانع أخرى تنتج الإسمنت ، والأدوية المضادة للحشرات ، والأسمدة ، وكل مواد الاستهلاك العادي : كالكبريت ، والسكاير ، والصابون ، والسكر ، وأدوات المطبخ من الآجر الترابي الخ .... كل هذه الصناعات جديدة في الريف حيث تتفتح المعامل والورش تحت سيول القنابل والرصاص . وقد تحققت اقتصاديات للنقل بهذا الشكل ، وتجنبنـا النقص الذي يسببه البعد عن هانوي .

وفي عام ١٩٦٦ ، تضاعفت الاستثمارات المخصصة للزراعة بالنسبة لعام ١٩٦٥ . وتقدم مخازن الدولة وأسواقها كمية متنوعة من المواد المصنوعة في هذه المصانع الجديدة. إنها في أغلب الأحيان تعاونيات حرفية قديمة ، توسعت بقدر توسع الآلات وازديـاد عدد العمال . وقد أعطيت الأولوية للصناعات المرتبطة بوسائل النقل ، وللصناعات التي تصنع العربات اليدوية ، أو التي تجرها الدواب ، ومقطورات الدراجات ، أو سيارات النقل الخ ...

وقد عمم استخدام عدد هائل من المولدات الكهربائية الصغيرة ،ونجدها بلا استثناء في الجبل والسهل . ويعمل قسم منها بالفحم الذي يستخرج محلياً ، على حين يعمل البعض الآخر بواسطة الزيت (الفيول) . وفي الحالة الأخيرة تحجب المولدات وتخبأ في ملاجىء عميقة تحت الأرض . وتتوقع الخطة زيادة هائلة في إنتاج المعادن في عام ١٩٦٦–١٩٦٧ وبما أن الهجمات على السدود الحواجز هجمات كثيرة منذ عام ١٩٦٦ ، فإن هنـاك أعمالاً ضخمة للري والحماية ضد الفيضانات .

وتعتبر هذه الخطة التي ستسمح باستكمال ما تحقق في عام ١٩٦٥ ، الدليل العملي على أن فيتنام الشمالية تتجه إلى اقتصاد حرب طويل المدى . »

---

(١) تقابلهـا في اللغه الفرنسيه Roulements à billes – ترجمة المعجم العسكري الفرنسي – الصادر عن قيادة الجيش الأول السورية في عهد الوحدة . (المعربان)

الفصل الثاني

على الأرض

كان طريقنا يخترق حقول البطاطا الحلوة التي كان ورقها الأخضر الكثيف ينبيء بمحصول رائع . وكان الماء يسيل في خندق ري مواز للطريق ، عرضه متر واحد ، كي يصب بفواصل زمنية منتظمة بين النباتات . واقتربنا من سد بان تاش .

وفكرت فجأة أنه كان علينا أن نرى حقولاً من الأرز في هذه المنطقة ، لأن البطاطا الحلوة لا تحتاج إلى مثل هذه الوفرة في الماء ، وتشكل بالنسبة للفلاحين الفيتناميين غذاء أقل وفرة بالفيتامينات من الأرز . وطرحت السؤال على رئيس لجنة القسم الذي كان يرافقني كدليل .

فأجابني قائلاً : « إنك على حق . كان من الواجب أن تكون هذه الحقول حقولاً للأرز ، ولكن السد دمر خلال الأشهر الماضية . ويسمح هذا السد بري ٥٠,٠٠٠ هكتاراً من الأرز . وقد تأثرت مضارب الأرز . ثم حدثت ثغرات في السد مرة أخرى ، وسارع الفلاحون إلى سدها . ونحن نسعى بكل جهدنا للمحافظة عليه ، ولكن لو حدث الأسوأ ..

فمنذ وقوع الهجمات الجوية الأولى ، وأعضاء التعاونيات يعملون بأيديهم في بناء سدود مساعدة ، وأقنية للري للمحافظة على الماء بقدر المستطاع لحقول الأرز . وحيثما كان ذلك ممكناً ، قاموا بتسوية الحقول ، ورفعوا حواف السطوح لمنع الماء من التبدد .

إلا أن الأراضي التي نجتازها في هذه اللحظة مرتفعة جداً : فلو أن السد أصيب بأضرار جدية ، فلن يصل الماء اليها أبداً . ولهذا قررنا أن نزرع البطاطا الحلوة التي تتيح لنا محصولاً حتى في أسوأ الظروف » .

وكان العمال يعملون في الاسكار ، وفي المصنع الصغير الذي ينتج الطاقة الكهربائية بقوة اندفاع الماء ، وقد جمعوا القطع التي ما زالت في حالة جيدة ، من آلتين متعطلتين ، وحاولوا أن يصنعوا منها آلة جديدة . وكانت الأرض حول السدود والحواجز التي تحول دون تسرب المياه ، والتي يتجمع الماء فيها قبل أن يندفع إلى العنفات ، كانت الأرض قد حفرتها القنابل . ولم يكن هناك أي شيء على عشرات الكيلو مترات حول المنطقة يشير إلى وجود هدف عسكري . وكانت الكهرباء التي حصلوا عليها بهذه الطريقة تغذي مضخات ري المنطقة . ولم يكن السد والمصنع يخدمان إذن سوى الزراعة .

ووصلنا إلى السد التوأم لباي تونغ . وكنا على السد عندما مرت فجأة طائرتان مقاتلتان نفاثتان فوق رؤوسنا . فتدخلت ضدها فوراً مدافع مضادة للطائرات من عيار ثقيل ، وظهرت غيوم صغيرة سود حول الطائرات . وكان أزيز النفاثات يختلط بانفجارات المدفعية وانفجارات القنابل . كل هذا حدث في بضع ثوان . ولم تكن الطائرات تنقض بل كانت تفرغ قنابلها من ارتفاعات عالية ، ودونما تسديد . وانفجرت القنابل وسط حقول الأرز ، وفي دغل صغير من أدغال البامبو ، فسببت تطاير أجزاء من الأرض من بعيد . وارتفع الدخان ، على حين كان الفلاحون المنبطحون في الحقول عند حدوث الغارة ، قد بدأوا فوراً بإغلاق الحفر التي أحدثتها القنابل الضخمة . وبعد مرور الطائرات ، ترك حارس من الحراس بندقيته ليهتم من جديد بقصبة صيده . أما الكوخ المصنوع من القرميد الذي أخفينا سياراتنا الجيب قريباً منه ، فقد تطاير قطعاً صغيرة خلال الغارات السابقة .

وتوقفنا أمام خرائب المصحة رقم ٧١ ، أثناء عودتنا إلى تانهوا عاصمة المقاطعة . وكانت تلك المصحة قد هوجمت في ٨ يوليه (تموز ١٩٦٥) من قبل أربعين قاذفة قنابل نفاثة . وقتل في هذه الغارة أربعون مريضاً وخمسة أطباء ، ودمر حوالي خمسين مبنى . وفي ٢١ أغسطس (آب) جاءت خمسون قاذفة فأتمت عمل التدمير ، وحولت المباني الباقية إلى مجموعة من الخرائب . وقد رأينا شيخاً مسناً يلقي بشبكة في حفرة من حفر القنابل المملوءة بالماء موجودة في مواجهة ما كان في الماضي مخبراً للأبحاث ، ورأينا صبياً صغيراً يقود بطة إلى بركة أخرى . وكانت قذيفة صاروخية قد اخترقت جدران

قاعة التصوير الراديوغرافي ، تاركة فيها ثغرة كبيرة .

وقد كانت منطقة تنه جيا ، في مقاطعة تانههوا أكثر القطاعات تعرضاً للتدمير في فيتنام الشمالية . وهنا يقع في الواقع مفترق طرق المواصلات شرق – غرب ، وشمال – جنوب . وقد قدروا في نهاية فبراير (شباط) ١٩٦٦ سقوط القنابل بمعدل قنبلة واحدة لكل سبعة من السكان ، أو في كل ٢٥٠ متراً مربعاً من الأرض .

وتتميز هذه المنطقة بأنها تضرب الرقم القياسي للإنتاج الغذائي . والمردود فيها حوالي ٥ أطنان في الهكتار الواحد . أما مردود الإنتاج في بعض تعاونياتها فيرتفع إلى ٧,٥ طن . وقد نالت إحدى مدارس تنهجيا لقب « مدرسة نموذجية » ، كمكافأة وطنية تعني أن كل التلاميذ، في كل صفوفها ، قد حصلوا على أقصى العلامات في كل المواد ، وتبرز المقاطعة الشعار التالي بصورة كاملة : **«كلما قصفونا ، كلما أنتجنا ودرسنا بصورة أفضل»**.

وتعتز النساء في مرفأ الصيد الصغير بالان ، في المقاطعة نفسها ، بأنفسهن ، لأنهن حللن مكان الرجال على مراكب الصيد الصغيرة . وقد رأيت أولئك النسوة وهن يشرعن شباكهن على الشاطىء ، بالرغم من أن مثل هذا العمل عمل متعب جداً . وتجبر الهجمات الجوية الصيادين على صيد السمك قريباً من الشاطىء في مياه أقل وفرة بالسمك . ورغم ذلك فإن كمية السمك التي اصطادوها لا تقل إلا بنسبة ٢ ٪ عن الكمية التي اصطادوها في عام ١٩٦٤ حينما كان بوسعهم التوغل في المياه . أما فيما يتعلق بعدد الأطنان التي باعوها للدولة فقد زادت زيادة طفيفة . فإذا تركنا هذا المجال وانتقلنا إلى حقول الأرز وجدنا عدداً آخر من النسوة الفيتناميات تحرثن حقول الأرز بمحاريث تجرها الجواميس ، وهي سابقة لا مثيل لها في فيتنام ، كما أن هناك منظراً جديداً كل الجدة ، وهو رؤيا عاملة من أصل اثنتين من العاملات تعلق بندقية أو سلاحاً آلياً على كتفها .

ولنلاحظ أن جمال الفلاحات الشابات الفيتناميات قد ازداد خلال الأعوام الأخيرة ، وقد أقلعن عن عادة صبغ أسنانهن بالسواد . وتكشف ابتساماتهن الآن عن أسنان بيض منتظمة . كما أن الارتفاع الطفيف في مستوى المعيشة قد سبب وفرة كبيرة في الغذاء ، ومزيداً من الصحة . ولم تعد النساء نحيلات كما كن سابقاً ، كما أن لون بشرتهن غدا أكثر حمرة ، إن لهن عيوناً سوداً ، وشعراً فاحماً ينسدل حتى الخصر ، ووجهاً متناظر الأعضاء ، وجلداً رقيقاً . ويتوصلن إلى الحفاظ على أنوثة طيبة ، حتى وهن يقمن بأشق الأعمال ، أو عندما يقمن بتمارين القتال بالحراب .

وقد أُخذت إلى قرية تانغ لوي ، في مقاطعة توكسوان . ويبلغ تعداد هذه الضاحية ١,٦٠٠ مواطناً موزعين إلى ٣٦٠ عائلة ، كانوا يزرعون إلى تاريخ قريب ٨٥ هكتاراً من الأرض ، وهو رقم أدنى من المعدل المتوسط الوطني . وفي عام ١٩٦٥ ، هاجرت ٨٤ عائلـــة أي ٤٢٠ شخصاً إلى الأراضي البكر في الشمال الغربي . وكان متوسط المحاصيل حتى عام ١٩٦١ طنين في الهكتار الواحد ، حيث لا تعطي الأرض سوى محصول واحد في العام . ثم سمح سد بانتاش بالري . ومنذ ذلك الوقت ، أتاح هذا الوضع الجديد الحصول على محصولين في العام الواحد . إن التعاونية تستخدم إلى حد كبير الأسمدة الخضر ، وبخاصة أسمدة النباتات المائية التي تحتوي على الآزوت ، والتي تزرع في المستنقعات . وفي عام ١٩٦٥ ، كان المردود محسوباً بالنسبة لمجموع الأراضي المزروعة ٦,٩ طناً في الهكتار الواحد .

وكانت القرية تتلقى من الدولة حتى عام ١٩٦١ عشرة أطنان من الأرز كل سنة أما في عام ١٩٦٥ ، فقد باعت ٣٩,٥ طناً من الأرز إلى الدولة بعد أن وزعت على أعضاء التعاونية جراية تعادل ٢٧ كغ من الحبوب للشخص في الشهر الواحد . وقد قال لي رئيس التعاونية ، إن شعارنا هو التالي : « **نأكل كفايتنا ونتغلب على المعتدين الأمريكيين** » وكانت تعاونية تانغ لوي في مقاطعة تانهوا الأولى في إنتاج ٥ أطنان في الهكتار وفي تربية خنزيرين للعائلة الواحدة . وقد سلمت هذه التعاونية للدولة ، بالإضافة إلى الأرز ، ٢٢ طناً من لحم الخنزير في عام ١٩٦٢ .

وبالإضافة إلى هذا كله فإن هذه التعاونية تشكل قرية رائعة ، شوارعها محفوفة بأشجار جوز الهند ، وتملك بيوتها حدائق مملوءة بأشجار البرتقال ، وبأشجار الموز والباباز وبشبكات سلك مغطاة بالخيار . وتلقي زهور الهيبيسكوس والأسيجة الجهنمية وبعض النباتات المدارية الأخرى بقعاً ذات ألوان قاتمة . وقد عدد لي رئيس التعاونية لائحة بالتبدلات التي طرأت على حياة السكان : إذ كان كل بيت يملك بئر ماء مصنوعة من الإسمنت ، ومراحيض مزدوجة من القرميد . وتملك كل عائلة من العائلات ناموسيتين وغطاءاً من الصوف . ويرتدي كل البالغين الكنزات الصوفية . « **أما في الماضي فقد كان الملاكون والفلاحون الأغنياء وحدهم هم الذين يلبسون هذه الثياب** » . وينام كل فرد من الأفراد الآن على سرير ذي نوابض ، لا على سرير قديم من ألواح البامبو . كما أن كل الأطفال يذهبون إلى المدرسة الخ ....

وهناك شيء لفت نظري عندما أشار إلى المراحيض المصنوعة من القرميد ، وإلى

النظافة العامة . وهذا الشيء هو أن تانغ لوي قد تخلصت من الروائح الكريهة التي كانت تنبعث منها ، وأصبحت نقية مثل القرى الأخرى التي زرتها . والواقع ، كان من الصعب في الماضي على الغربي الذي يزور فيتنام أن يخفي ضيقه من الروائح الكريهة التي تسببها المراحيض الموجودة في الهواء الطلق ، وحفر القمامة والروث والآبار الراكدة المهجورة . إن الروائح الكريهة في طريقها إلى الزوال مثل زوال السواد عن أسنان معظم النسوة . وهذا مظهر آخر من مظاهر « الثورة » التي ترسم لفيتنام صورة جديدة .

إن وزير الصحة الدكتور فام نغوك تاش رجل قوي وإذا كان هذا الرجل معروفاً في الخارج بأبحاثه ودراساته عن السل ، فهو معروف في بلاده أيضاً بأنه يقضي نصف وقته في المختبرات والمستشفيات . أما نصف وقته الآخر فيقضيه في الأرياف ليتحقق من تطبيق التدابير الصحية . وكان يلح على تطبيق تلك التدابير عندما كان يرافقني إلى إحدى القرى النموذجية الواقعة على مقربة من هانوي .

وعندما وصلنا إلى كوانغ آن طلب مني الوزير بكثير من الاعتزاز أن أنظر إلى البيوت التي أصبحت مزودة بمراحيض حديثة ، وآبار صنعت حوافها من الإسمنت . ثم قال لي بنفس الاعتزاز : إن كل السكان قد لقحوا وحصنوا ضد الأمراض السارية .

وأضاف قائلاً : « **– إن المراحيض والآبار هي أفضل الوسائل لمكافحة الحرب الكيميائية والجراثيمية** » .

– هل تعتقدون أنكم ستواجهون مثل هذه الحرب ؟

– إن الأمريكيين في الجنوب يشنون مثل هذه الحرب على نطاق واسع . فهم يسممون خزانات المياه : « فعلينا أن نعد أنفسنا للأسوأ » .

وقد لاحظت خلال هذه الجولة أن المراحيض المزدوجة عميقة ومزودة بغطاء لا تنفذ منه السوائل . كما أن حفرها مدعمة بالقرميد الذي يمكنها من الاحتفاظ بالبراز مدة ثلاثة أشهر ، حيث يستخدم بعد ذلك كسماد . وخلال هذه الفترة تموت الجراثيم الخطرة . أما فيما يتعلق بالروائح فتختفي وتزول منذ البدء .

ويقدر الدكتور تاش أن الآبار الفردية ستجعل مهمة الأمريكيين أكثر صعوبة ، لأنهم لو قرروا تسميم خزانات المياه بالقاء السم في المجاري ، كما فعلوا في فيتنام الجنوبية ، فإن الأرض المحيطة ستصفي الماء بصورة كافية لتخلصه من كل مادة ضارة . وأضاف الدكتور تاش ما يلي :

« – ينبغي علينا أن نشكر الأمريكيين لأنهم خلقوا لنا هذه المشكلة الحيوية التي ينبغي حلها . فقد حضت وسائلهم المستخدمة الفلاحين ، وحرضتهم على العمل والإبداع ، فنجحوا خلال أشهر قليلة في تحقيق ما كنا سنعجز عن تحقيقه إلا بعد عدة سنوات من الدعاية المستمرة » .

وتعتبر قرية تانغ لوي رائعة أيضاً بتوزيع مدارسها وانتشارها حماية لطلابها من الغارات الجوية . فلقد كان هذا التوزيع بالتأكيد ضرورة من الضرورات بعد أن تحولت كل مدارس ومستشفيات ومصحات إقليم تانه هوا ، والمقاطعات الساحلية الأخرى إلى خرائب بسبب القصف بالقنابل ، أو أخليت توقعاً للغارات الجوية عليها ، لأن المباني الهامة من القرميد أو الحجر تشكل هدفاً سائغاً للطيارين الأمريكيين – وهم يلجأون بعد قصفها بالطبع إلى التصريح بأنهم هاجموا الثكنات والمستودعات العسكرية أو المنشآت الأخرى من هذا النوع – ولقد طلبت السلطات المحلية في هذه المناطق إلى السكان « بأن يتجاوروا ويقتربوا من بعضهم البعض » ، كما طلبت إليهم إخلاء بعض الأكواخ وتحويلها إلى قاعات للدرس . أما العائلات التي تنازلت عن بعض الغرف التي تسكنها للتلاميذ ، فتسكن في مطابخهـا مؤقتاً ، أو تسكن عدة عائلات بيتاً واحداً ريثما يتم بنـاء صفوف جديدة مشابهة قدر الإمكان لأكواخ الفلاحين . وتنتقى بصورة خاصة البيوت المحمية بالأشجار من طائرات الاستطلاع لتكون مدارس لأبناء القرى . وقد استقبل سكان تانغ لوي طلب السلطات المحلية بصدر رحب ، وفي بعض الحالات كانوا يقومون بتدمير بعض الجدران للحصول على مزيد من النور لقاعات الدرس . ويحفرون الخنادق في الحدائق ليسمحوا للأطفال بالوصول إلى الملاجيء الأرضية بسرعة ، لأنها أكثر أماناً لهم ، نظراً لكونها مدعمة بالأخشاب . وتبدأ الخنادق التي تؤدي إلى الملاجيء (خنادق المواصلات) بين مناضد الطلاب . ومن المستحيل تمييز قاعات الدرس عن بيوت الفلاحين ولا يمكن معرفة وجود التلاميذ إلا عند سماعهم وهم يرددون دروسهم بصوت عال .

وإذا تركنا الطلاب في مدارسهم ، وانتقلنا إلى تعاونية تانغ لوي ، وجدنا أن ستين شخصاً منها يتبعون دروساً خاصة في الفنون الزراعية . وهناك ثلاثة أبنـاء لأعضاء التعاونيات حصلوا على شهادات جامعية . واحد منهم مهندس كهربائي ، أما الآخران فمهندسان زراعيان . وقد عاد الثلاثة إلى القرية .

وكان رئيس التعاونية ، بوجهه النحيف ، ومظهره الصارم ، يسرد عليَّ ما فعلته الحياة الجماعية من أعمال حسنة . وقد احتفظ بأفضل نتائجها لآخر حديثه إذ قال :

« – لقد اشتركنا منذ عام ١٩٦٥ مع المزرعتين الأخريين لقرية كسوان تانـه ، لنشكل جمعية تعاونية واحدة . وفي هذه التعاونية ٨١٢ عائلة ، و ٣٧٠٠ عضواً ، ونملك ٢٣٠ هكتاراً من الأراضي . ولدينا ٨٠٠ حيواناً حلوباً . ونفكر بإنتاج ما يعادل ١١ طناً من الأرز في الهكتار الواحد في عام ١٩٦٦ . وسيكون هذا الإنتاج هو مساهمتنا في الكفاح ضد المعتدين الأمريكيين .

– ماذا تعني بكلمة : « ما يعادل ١١ طناً من الأرز » ؟

– إن ثلاثة أطنان من البطاطا الحلوة تساوي طناً واحداً من الأرز . ونحن نريد أن ننتج ٢٢ طناً من البطاطا الحلوة ، و ٤ أطنان من الأرز في الهكتار . إن توقعات المحصول للشهر الخامس تظهر أن ذلك ممكن جداً .

– وكيف يمكنكم الحصول على مثل هذه الزيادة ؟

– إننا نحتاج إلى الماء ، والأسمدة ، والعناية والبذور المنتقاة . وينبغي أن يتحقق ري الأراضي تبعاً لتوقيت زراعي دقيق . وينبغي أيضاً أن يعاد غرس الشتلات في أوقـات محددة . وعلينا أن نقوم بهذا العمل دون أن نهتم بنشاطات العدو الجوية . وسنضع ١٠ أطنان من السماد في الهكتار الواحد . وستؤخذ هذه الأسمدة من البراز البشري بصورة خاصة بعد معالجته معالجة فنية . ولكننا سنستخدم أيضاً وحل المستنقعات . أما عمليـات الاعتناء فإنها تتضمن نزع الأعشاب السيئة ، وبخاصة الأعشاب الموجودة في حقـول الأرز ، والانتباه بصورة جيدة إلى المشاتل قبل وضع الغراس . أما فيما يتعلق بانتقـاء البذور ، فإن لدينا في التعاونية ، لجنة من الخبراء ، يديرها أخصائيونا ، وقد تشكلوا وأعدوا في مدرسة إقليمية .

وإليك الآن مشاكل العمل : إن كل رجل عمره من ١٨ إلى ٤٠ عاماً ينتسب إلى حركة « الاستعدادات الثلاثة » . أما النساء ، فينتسبن إلى حركة « المسؤوليات الثلاث[1] » وقد التحق الشباب بفرق المتطوعين للعمل ، وكانت نسبة التطوع في صفوفهم ٩٠٪ . وتمثل النساء الآن ٧٠٪ من اليد العاملة . وتقوم النساء بعمل الرجال . وقد تعلم المسنون غرس الأرز ، وهي مهمة كانت تقع على عاتق النساء فقط . ومن الضروري أن يتم هذا

---

(١) المسئوليات الثلاث Les Trois responsabilités وهي :
الحلول محل الرجال في العمـل ، وتشجيع الزوج والأبناء على الانتساب إلى القوات المسلحة ، والاهتمام بأعمال البيت الخ ...

العمل في وقت محدد إذا أردنا الحصول على محاصيل جيدة . ويساهم كل الناس إذن في الجهد العام ، حتى ولو كان جهداً خطراً ، يتطلب العمل في الليل والنهار » .

واخترقنا الحقول ونحن نبدي إعجابنا بخصوبتها ومزروعاتها الخضر . وكانت حقول الأرز تمتد على امتداد النظر في كل الاتجاهات . وكانت الفتيات الشابات في الوحل حتى الكعاب ، يحركن آلات ميكانيكية لنزع الحشائش ، بين صفوف هندسية للنباتات ، وكن يتحركن باتجاه الشرق ، كأشعة ضوء أخضر . وعلى الأراضي العالية التي تتصل بالجبال الزرق الشاحبة للاووس تمتد صفوف البطاطا الحلوة . ويسمع خرير الماء في برك الري .

وتنتهي حقول البطاطا على بعد عدة أمتار من الخط الحديـــدي . ومن الناحية الأخرى ، هناك محطة للسكك الحديدية تحولت إلى خرائب . وهناك منزلان من الآجر كانا بلا شك لسكن المستخدمين في المحطة قد دمرا أيضاً . وفي هذه المرة كان أزيز الطائرات النفاثة التي ظهرت فجأة من جبال لاووس قد جعل فتيات الدفاع الذاتي يهرعن إلى ملاجئهن الفردية المصنوعة من أسطوانات إسمنتية غرزت في الأرض . ويسددن على الطائرات للرمي عليها في حالة انقضاضها . واقتربت طائرتان من بين هذه الطائرات إلا أنهما مرتا بصورة مستقيمة عبر السماء ، خارج مدى الرمي . وقال مدير المزرعة « إنهما طائرتا استطلاع » .

ثم انطلقنا ، وكانت سيارتنا مملوءة بالموز ، والباباز وجوز الهند وقصب السكر . وحملنا أيضاً سمكتين كبيرتين من بركة تربية الأسماك . وقال لنا المدير : « **إن أريافنا ، كما ترون مقر لثورة حقيقية . ولا يمكن أن نسير بمثل هذه السرعة في التطور والتقدم لولا قصف الأمريكيين لنا** » . وقد ذكرنا هذا القول بمقال لصحفي إنجليزي اسمه جيمس كامرون كتب بعد رحلة إلى فيتنام الشمالية ما يلي : « **إن كل قنبلة من القنابل هي ورقة رابحة إضافية لهوشي مينه** » .

وقد كان على الدكتور فام نغوك تاش أن يفهمني ، في القرية الرئيسية لكوانغ آن ، قرب هانوي ، مظهراً آخر من الثورة الفلاحية . وفي مستشفيات الولادة ، وجدنا قابلة ما تزال تصبغ أسنانها بالسواد تعطي نصائح واقعية جداً لاثنتين من النساء عن استخدام الأدوات الغربية التقليدية التي تتحكم بالحمل . وقد فسر لي الدكتور تاش أن القابلـــة اشتغلت في الماضي طبقاً للتقاليد القديمة . وقد جندت مع مئتين من شبيهاتها في مصالح الصحة العامة ، بعد اتباعهن دورات صحية حديثة مدتها ثمانية أشهر .

ولقد كانت كثيرة الاعتزاز عندما استطاعت أن تظهر لي على رسم بياني حالة السكان . وقد بدأ الفيتناميون في الحديث عن تنظيم النسل في عام ١٩٦٢ . وفي كوانغ آن ، ساهمت هذه القابلة ، في العام نفسه ، في ولادة ١٣٦ طفلاً ، ثم ٨٢ طفلاً في عام ١٩٦٣ ، و ٧٣ طفلاً في عام ١٩٦٤ و ٥٨ طفلاً في عام ١٩٦٥ . وهي تتوقع ولادة ٤٨ طفلاً في عام ١٩٦٦ . ان انخفاض وفيات الأطفال كان بمعدل ٥٠ ٪ . أما زيادة الولادات على الوفيات فلم يزد عن ٣,٤٦ ٪ في عام ١٩٦٢ و ١,٦٧ ٪ في عام ١٩٦٥ . ولو تمكنوا من تحقيق هذا الرقم على المستوى الوطني لاعتبر رقماً مقبولاً . والواقع أن أرقام الولادات المرتفعة كان يقلق المسؤولين الرسميين بعض الشيء منذ عدة سنوات . وقد زرت في عام ١٩٦٣ القرية الكاثوليكية التابعة لمقاطعة هونغ ين التي كان يعد أفرادها ٢٠٠ عائلة . وكان متوسط عدد الأطفال فيها ١١ طفلاً للعائلة الواحدة .

وينتشر تنظيم الأسرة في هذه الأيام انتشاراً واسعاً في الريف . وقد اكتشفت ذلك في كوانغ آن . وأضفت بعد هذه الزيارة أسئلة جديدة حول هذا الموضوع ، إلى لائحة الأسئلة التي كنت أوجهها بصورة آلية في كل مكان كنت أزوره . وشاركني الدكتور تاش فيما بعد بالأبحاث الهامة التي شرع بها في هذا المجال .

وقد رأيت أسخف نتائج للقصف الجوي على طريق سامسون في مقاطعة تانهوا . إن سامسون محطة من محطات العلاج . وقد أنشىء فيها مؤخراً بيوت عمالية للراحة . وعلى عدة كيلومترات منها ، يوجد بيت جميل لإيواء المسنين . ويشتمل على اثني عشر بناءاً من القرميد الأحمر . وقد دمرت هذه الأبنية تدميراً تاماً خلال الغارات الجوية التي تمت في يوليه (تموز) عام ١٩٦٥ . ولا شك ، أن البنتاجون قد سجل فيما بعد تدمير « ثكنة أخرى للبحرية » . وقد أكدت الصحافة الأمريكية في ذلك الوقت أن الرئيس جونسون تحقق شخصياً من لائحة كل الأهداف في فيتنام الشمالية ، كي يتأكد من عدم تعرض المدنيين لأية أخطار . فإذا كان ذلك صحيحاً ، فإن هناك أحد أمرين : إما أن الرئيس جونسون متعطش للدماء بصورة خاصة ، أو أن مصلحة المخابرات الأمريكية غير فعالة لدرجة تدعو إلى الرثاء ، لأن ثمانية مستشفيات قد دمرت فيما بين ١٢ يونيه (حزيران) و ٢٢ أغسطس (آب) ١٩٦٥ . وبعض هذه المستشفيات تعرض لغارات متكررة لم تترك شيئاً على وجه الأرض .

إن قصف مركز أبحاث مرض الجذام في كينه فضيحة من الفضائح . فحتى لـــو قبلنا أن للولايات المتحدة الحق في التعرض لجمهورية فيتنام الشمالية الديمقراطية ، التي

ليست في حالة حرب معها ، فإن قصف مراكز الأبحاث الطبية عمل يصعب قبوله . وهناك عشرات من الصحف والمجلات العلمية الفيتنامية قد طبعت صوراً لمرضى الجذام اطلع عليها العالم كله . ويقع هذا المركز في إقليم نغوآن ، على شاطىء البحر مخفياً تحت أشجار الصنوبر وفي ١٢ يونيه (حزيران) عندما حدث القصف الأول كان هناك ٢٠٠٠ مريضاً موزعين على ١٦٠ بناءاً . وقد وقع منهم ١٣٩ قتيلاً ، و٨٠ جريحاً جروحاً خطيرة . واستمر القصف عشرة أيام . وفي بعض الحالات كانت تحدث عدة غارات في اليوم الواحد ، لم تبق من تلك الأبنية شيئاً . فإذا كانت الخسائر البشرية خسائر فادحة بصورة خاصة ، ذلك لأن كثيراً من المرضى أصيبوا بطلقات الرشاشات ، عندما كانوا يحاولون الوصول إلى الملاجىء على أطرافهم المقطوعة .

وقد أخذ المصورون الفيتناميون فيلماً وثائقياً مرعباً : ممرضات بلباسهن الأبيض يحملن المرضى على النقالات ، أو على ظهورهن ، على حين تنفجر القنابل حولهن . وتتطاير الجثث خارج النقالات ، وتتساقط الممرضات على الأرض بتأثير الضغط الذي أحدثته الانفجارات ، ثم تقفن وتحملن من جديد أحمالهن وهن تتعثرن في خطواتهن الثقيلة بين حفر الانفجارات التي تجتزنها وهن في طريقهن إلى الملاجىء المتوارية بين الصخور .

وإذا كان الطيران الأمريكي قد استطاع نتيجة لغاراته السخيفة التي لا شفقة فيها ولا رحمة أن يدمر مستشفى الجذام في كينهلان ، فإنه وقف عاجزاً أمام جسر هام رانه على نهر (ما) ، هذا الجسر الذي يعتبر رمزاً ليقظة الشعب الفيتنامي . وقد عبرت هذا الجسر للمرة الأخيرة في مطلع مارس (آذار) ١٩٦٦ . وكان قد قاوم مئات الغارات التدميرية التي صبت عليه . ثلاثة آلاف ، وبضع قنابل ، ومئات من الصواريخ . وصواريخ « بولبوب »[1] . ورغم هذا فقد صمد الجسر الذي يعتبر ذا أهمية حيوية ، لأنه يحمل الطريق الكبرى والخط الحديدي الكبير لحركة السير من الشمال إلى الجنوب . ويصرح الذين يدافعون عنه أنهم أسقطوا ٦٩ طائرة . ويبدو أن الأمريكيين قد امتنعوا مؤخراً عن تدميره . وكان سليماً عندما تركت المنطقة لآخر مرة . ويحمل الجسر حتى الآن آثار القصف العديدة ، إلا أن القطارات والقوافل تمر عليه بكل أمان .

وقد اجتمعت بالرائد الطيار دانتون ، من البحرية الأمريكية ، الذي كانت طائرته

---

(١) صواريخ موجهة جو - أرض للقوات الجوية التابعة للبحرية . (المؤلف)

قد أُسقطت ، بينما سقط هو في النهر أثناء قيامه بمهمته الأولى فوق فيتنام الشمالية وفي الوقت الذي كان يهاجم فيه جسر هامرونغ[1] . وسألت هذا الطيار عن الهدف الذي كان يستهدفه في غارته ، وعن المكان الذي سقط فيه ، فرفض الإجابة . إلا أنني كنت قد التقيت ، عن طريق الصدفة ، قبل هذا الحديث ، بإحدى الشخصيات التي شاركت في أسره وهي الفتاة الشابة الجميلة نغيين تي هانغ التي تقود جماعة الدفاع الذاتي المحلي ، والتي خاضت أكثر من ثلاثين معركة .

قالت لي الفتاة التي يعني اسمها : **« ضوء القمر »**

« – لقد ألقى بمسدسه وبخنجره ، وهو يهبط بالمظلة . وسقط في النهر ،ويداه مرفوعتان فانتشلناه من الماء وأوثقنا قيده » .

وقد توجهت في أول مرة استخدم فيها أمامي تعبير « معركة » بالسؤال التالي :

– **« هل تعنون بهذا التعبير : هجوماً جوياً ؟**

– **كلا إننا نعتبر هذه الاشتباكات معارك حقيقية بين القوات الأمريكية وقواتنا » .**

وسمعت عندئذ الوصف الأول الدقيق لكل ما حدث في تلك اللحظات . وراقبت فيما بعد التدابير المتخذة في سبيل هذه « المعـــارك » وشاهدت بعضها . وكان علي أن أعترف بأن التعبير الذي استخدمه الفيتناميون كان صحيحاً .

إن كل الهجمات الجوية تلاقي في الواقع مقاومة مباشرة وقوية . ويشتكي الطيارون الأمريكيون ، وهم على حق في شكواهم ، من أن عليهم أن ينزلوا عبر عدة نطاقات نارية متتابعة قبل أن يكون بوسعهم الوصول إلى أهدافهم . ولهذا السبب ، لم ينجحوا أبداً في بلوغ جسر هام رونغ ، كما لم ينجحوا في الوصول إلى تحقيق أهدافهم في تدمير عشرات من الجسور الأخرى التي أغاروا عليها مرات عديدة .

إن كل الأهداف الهامة محمية بالمدفعية المضادة للطائرات من عيار ثقيل ومتوسط . والطائرات التي تنقض للقيام بقصف دقيق تقع في الشبكة المميتة التي نسجتها مئات البنادق والمسدسات الرشاشة ، بل أحياناً آلاف البنادق والمدافع الرشاشة التي تحملها أيدي الملايين من أعضاء التعاونيات ، والعمال ، والفلاحين والطلاب . وأغلى أُمنية لكل مقاتل من

---

(١) انظر هذا الحديث في الفصل الرابع . (المؤلف)

المقاتلين هي أن تقع طائرة من الطائرات الأمريكية داخل خط تسديده ، تلك الطائرة التي تحمل إليه الموت من مكان بعيد ، ولا يعرف من أي أفق تبرز له . وهذا ما يفسر الشعور بفرح الانتصار الذي يتفجر لدى أقل مناسبة يرد فيها الفيتناميون الضربة بضربة مماثلة . إن تعلم معرفة تمييز أشكال الطائرات ، وحفظ خصائصها ، ومميزات طيرانها ، وسرعتها وارتفاعها ، ومعرفة المسافة التي ينبغي التسديد منها على هذه الطائرة أو تلك التي تطير بصورة أفقية ، أو الجزء الذي ينبغي محاولة إصابته منها عندما تنقض ، إن تعلم كل هذه الأمور ، واجب أساسي في كل أطراف البلاد .

يبقى هنا سؤال لا بد من طرحه : ما هي فاعلية الأسلحة الخفيفة الموجودة في أيدي الفيتناميين ضد المقاتلات القاذفة الأمريكية ؟ إنها فاعلية مؤكدة . ويكفي للاقتناع بها زيارة « مقبرة » الطائرات التي جمع فيها عدد معين من الطائرات الأمريكية التي أسقطت . إن معظم الهياكل مثقوبة بفتحات من مختلف العيارات . حتى لتجدن فيها ثقوباً أحدثتها رصاصات البنادق . هذا السد الناري الذي تصنعه الأسلحة الفيتنامية الخفيفة يحمل في لهيبه مزيتين : أولاً إنه يجعل الطائرات المنقضة تتحول عن خط طيرانها المرسوم . وتقدم هذه المزية التفسير المنطقي الوحيد الذي يمكن إعطاؤه لسقوط ٧٠٪ من القنابل التي استهدفت جسر هام رونغ على القرية المجاورة له ين فوك . ولم يبق في هذه القرية سوى الخرائب ، بينما ما يزال الجسر صامداً حتى الآن . ولم يستطع الطيارون الذين أسقطتهم هذه السدود النارية المتتالية ، ومن بينهم بضعة طيارين من أفضل الاختصاصيين في هذا النوع من الغارات الجوية ، لم يستطع هؤلاء الطيارون المحافظة على انقضاضهم إلى نهايته . فقد اضطروا إلى الارتفاع مرة أخرى قبل أن يبدأوا بإسقاط قنابلهم كي يتحاشوا نيران الأسلحة صغيرة العيار . وتبعاً للأرقام التي قدمها الفيتناميون فإن ٦٩ ٪ من أولئك الذين تابعوا مسيرهم ، وسط هذه السدود النارية واجهوا مصيراً من المصائر التالية : فريق تحطمت طائرته فوق الأرض ، وفريق ذهب بطائرته ليسقط في مكان آخر وفريق ثالث استطاع أن يقفز بالمظلة بعد أن أصيبت طائرته .

إلا أن للأسلحة الخفيفة مزية أخرى ضد الطائرات التي تصل من البحر على ارتفاع منخفض ، آملة أن لا تكشفها الرادارات ، وأن لا تتعرض لنيران المدفعية المضادة التقليدية . فهذه الطائرات تتحاشى كل هذه الوسائل الدفاعية ، سوى أنها تقع مرة أخرى في سدود نارية صنعتها مواقع دفاعية يحرسها على الدوام عشرات الألوف من الفلاحين والعمال ، الأمر الذي يجعل مهمة الطيارين صعبة جداً . وهكذا تكون القدرة الشاملة

لنيران كل هذه المواقع قدرة هائلة جداً . إن الأيدي الفيتنامية التي تمسك بالسلاح لا ترتعش ، كما أن أعين هؤلاء الحراس لا تغفل . ورغم انقضاض الطائرات يتابعون الرمي بسلاحهم الخفيف . فيضطر المهاجمون إلى التحليق والارتفاع من جديد ، ليقعوا تحت رحمة المدفعية المضادة للطائرات . وهكذا يزول أثر المفاجأة زوالاً تاماً .

ويصطدم الأمريكيون بمتناقضات عديدة أثناء قيامهم بمهماتهم . فلا يمكن أن يتم القصف الدقيق إلا بطائرات بطيئة ومروحية . وتستطيع هذه الطائرات رسم دوائر ذات قطر صغير ، ثم تهبط لتسقط قنابلها ، إن لم يكن بدقة رجل العصابات الذي يضع قنبلته في الهدف بيده ، فهي تسقطها على الأقل بدقة كافية . إلا أن مثل هذه القاذفات تشكل فريسة تحلم بها المدفعية المضادة ، وتحلم بها أيضاً القوات الجوية الوليدة لفيتنام الشمالية . وقد تعرض الأمريكيون لخسائر هامة في الأشهر الأولى من هذا الصراع بين الجو والأرض وعليهم أن يحاولوا مع ذلك تحاشي قبضة من طائرات الميغ ١٧ والميغ ٢١ التي تدفعها فيتنام ضدهم في بعض الأحيان . وهم مضطرون إذن إلى استخدام أسرع مطارداتهم القاذفة . ولا تقوم هذه الطائرات في الغالب إلا بمرور واحد على ارتفاع عال فوق هدفها . فهي إذن غير قادرة على القصف الدقيق . ويعوض الأمريكيون عن عجزهم هذا بإلقاء كمية هائلة من القنابل ، آملين أن تصيب هذه القنابل الهدف المحدد .

وينطبق الموضوع نفسه على القاذفات ب ــ ٥٢ . وقد تمت غارتها الجوية الأولى التي تحدث عنها العالم كثيراً ، وقيل « بأنها أهم غارة في الحرب الفيتناميــة » ضد مضيق موجيا ، حيث يجتاز الطريق الوطني رقم ١٢ حدود لاووس . ويبدو أن الطريق والمضيق دمرا تماماً ، وحدثت زلازل في الأرض ، فأضحت غير صالحة للمسير . وقد قال لي الفيتناميون الذين حضروا هذه الواقعة إن ١٠٩ قنابل سقطت فوق المنطقة ، منها أربع قنابل سقطت على الطريق ، أما القنابل الباقية فقد ضاعت في الأدغال . ثم تم إصلاح الطريق في بضع ساعات . ولم يلاحظ الأمريكيون ذلك إلا بعد خمسة عشر يوماً ، عندما علموا أن الطريق ما زال مستخدماً . فقصفوه من جديد، ولكنهم باؤوا مرة أخرى بالفشل، ولم يحصلوا على أية نتيجة .

إلا أن فشل الطيارين قد عوض إلى حد واسع بحماس محرري البلاغات . فلقد قرأت بمزيد من الدهشة ، في مقـــال للنيويورك تايمز بتاريخ ٩ مايو (مايس) ١٩٦٦ ، إن المتحدث العسكري الأمريكي في سايغون قد صرح بأن كل خطوط المواصلات المؤدية إلى هانوي أصبحت غير صالحة . وأن العاصمة غدت معزولة عن باقي أنحاء البلاد :

وقد انقطعت معظم طرق المواصلات الهامة أثناء تنفيذ سلسلة من الغارات الجوية التي تمت في منتصف أبريل (نيسان) . ولكن ، طبقاً لتصريح نشر أمس ، كانت أهم نتيجة حصلت عليها هذه الغارات ، في نظر العسكريين ، هي ما تم يوم الأربعاء الأخير في ٧ مايو (مايس) من تعطيل الطريق والخط الحديدي المؤديين إلى الصين » .

وبما أنني غادرت هانوي يوم ٧ مايو ، فمن المستحيل عليّ أن أعرف إذا كان الطريق والخط الحديدي المؤديان إلى الصين ، قد « أغلقا » . ولدي من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد ، بأن هذين الطريقين لو انقطعا فعلاً ، فإنهما « أصلحا حتماً » في اليوم التالي وقد تجولت بين منتصف أبريل (نيسان) ومطلع مايو (مايس) في كل الاتجاهات بدءاً من هانوي ، فوجدت أن كل الطرق وخطوط السكك الحديدية تعمل بصورة طبيعية . وكنا حوالي اثني عشر مراسلاً صحفياً نتجول في كل الأنحاء ، ولم أسمع أبداً أن « طرقاً هامة للمواصلات » قد « انقطعت » .

وينبغي أن يعرف دافعو الضرائب الأمريكية النتائج التي حققها الطيران الأمريكي بفضل النفقات الخيالية التي تبدد من أموالهم وحتى لو لم يتأثروا بالمظهر الأخلاقي للمشكلة ، فيحسون دون أدنى ريب بصدمة كبرى في قلوبهم ، أو على الأقل في أكياس نقودهم . وهناك مقال ظهر في ٥ أبريل (نيسان) ١٩٦٦ في مجلة لوك ، يعطي الحق للجنرال جياب ويبرر كلمة الازدراء التي قالها : « إن القصف الجوي لن يؤدي إلى شيء ! » . وكان كاتب المقال هو الجنرال ماتيوريد جوي الذي كان يقود قوات الأمم المتحدة في كوريا . فمن الممكن أن نفترض إذن أنه يعرف المشكلة معرفة جيدة .

ولقد كتب ريد جوي يقول :

« وقد علمتنا التجربة الكورية أيضاً أن من المستحيل تعطيل طرق التموين العسكرية في آسيا بواسطة الطيران وحده . ففي كوريا الشمالية ، كنا الأسياد المطلقين للمجال الجوي وقد سحقنا أرتال التموين الصينية دون رحمة ، وأوقعنا بها خسائر فادحة ، وجعلنا مشكلة تسيير النجدات وتوجيهها مشكلة صعبة جداً . إلا أننا لم ننجح في إيقاف الهجوم ولا في تخفيف حدته وعنفه . فالصينيون كالفيتناميين لا يثقلون أنفسهم بالمتاع أثناء تنقلاتهم ويحمل كل جندي أسلحته وذخائره وغذائه على ظهره . وقد رأيت أقساماً كاملة من الخط الحديدي حولها الطيران إلى رماد . ومع ذلك ، أعاد العدو بناءها في ليلة واحدة ، ومرت عليها القطارات في اليوم التالي .... إن المدنيين واقعون تحت تأثير إغراء فكرة غزو « سهل » بواسطة الطيران . ولكن الحقيقة تقول : إن جنود المشاة هم

دائماً الذين يربحون المعارك الهامة . »

وقد بقيت أثناء عامين في كوريا ، في المناطق التي قصفها الأمريكيون كمراسل صحفي وكمراسل لمحادثات السلام في بانمونجون ، واستخدمت الطريق الذاهبة من سينانجو على نهر يالو والحدود الصينية ، إلى كايزونغ بانمونهوم عشرين مرة على الأقل . وأعرف أن الآراء التي أذاعها الجنرال ريدجوي آراء صحيحة جداً . وكانت بلاغات القوات الجوية الأمريكية عن تدمير القوافل مصدراً للتهكم والمزاح الذي لا نهاية له بالنسبة للكوريين وللصينيين على حد سواء . وقد كان الأمريكيون يصرحون دوماً بأنهم دمروا ٣٠٠ أو ٤٠٠ سيارة نقل ، بينما في الحقيقة لم تصب أية سيارة . ولم أرَ سوى سيارة واحدة مدمرة خلال عشرين جولة ليلية قمت بها على هذا الطريق . ولقد لاحظت أن حركة السير تتم ليلاً ، وتتعرض هذه الحركة للطائرات الأمريكية التي كانت تقصف وترمي برشاشاتها كل ما تراه على الطرق ، إلا أن هذا القصف كان يذهب سدى ولا يحقق أية فائدة .

وأقمت أيضاً في المناطق المقصوفة في شمال وجنوب فيتنام . ويبدو لي بعد إقامتي تلك أنني أستطيع أن أضم ازدرائي للنتائج العسكرية إلى ازدراء الجنرال جياب والجنرال ريد جوي .

ويعالج الجنرال ريد جوي المظهر الأخلاقي للمسألة في مقاله فيستطرد قائلاً :

« إن حكامنا يتجاهلون بصورة واضحة بعض النتائج التي قد تتمخض عن أعمالهم . فهم لا يقيمون وزناً للعامل الأخلاقي .... عندما يلجأون إلى استعمال القوى المدمرة الهائلة الموجودة الآن بين أيديهم . وإني مقتنع قناعة تامة أنه لا شيء في الوضع الحاضر ، أو في عرفنا الأخلاقي يضطرنا إلى قصف بلد آسيوي صغير « لإعادته إلى العصر الحجري » ... إن للوسائل التي نستخدمها لتأمين النصر نتائج لا أخلاقية » .

وقد اعترف ماكنمارا وزير الدفاع بوضوح ، بعجز الطيران الأمريكي عن قطع خطوط مواصلات فيتنام الشمالية عندما قدم في نهاية يونيه (حزيران) ١٩٦٦ الأسباب التي أدت إلى قصف مستودعات المحروقات في هانوي وفي هايفونج . وقد قال الوزير الأمريكي في شرح الأسباب ما يلي :

« إن أهمية قوافل سيارات النقل المتجهة إلى فيتنام الجنوبية قد تضاعفت خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٦٦ بالنسبة للفترة التي تقابلها من العام السابق .... وقد ازداد

حجم التموين المنقول بنسبة ١٥٠ ٪ وزادت تسللات الأشخاص بنسبة ١٢٠ ٪ . هذه الحركة الآلية والبشرية المتزايدة قد زادت من أهمية مستودعات المحروقات في جمهورية فيتنام الديموقراطية ، تلك المستودعات التي استهدفناها بغاراتنا .... »

إن زيادة حركة النقل من الشمال إلى الجنوب قد حدثت رغم مرور خمسة عشر شهراً من الهجمات الجوية المستمرة ، التي تتم نهاراً وليلاً ضد الجسور وطرق المواصلات . إذن فمن الممكن التنبؤ بأن تحتل مستودعات المحروقات المدمرة ، والتي تغذي حركة النقل هذه مكاناً لها في روتين البلاغات ، إلى جانب الجسور المقطوعة والطرق المدمرة . ومن المحتمل تبعاً لذلك أن نفاجأ خلال عام واحد بخطوات جديدة تستهدف تصعيد الحرب . ثم نحاول تبرير تلك الخطوات بالتصريح بأن حركة النقل تضاعفت أيضاً بالنسبة لعام ١٩٦٦ .

وقد بلغ سخف ردود الفعل الأمريكية ذروته عندما أعلن الرئيس جونسون في تصريح مهيب (!...) إن ٥٧٪ من احتياطي المحروقات قد دمر في ٢٩ يونيه (حزيران) أثناء الغارة الجوية الأولى . إن الرئيس قد تجاوز أسخف ردود الفعل الأمريكية بتصريحه هذا . فبأية إحصائيات قامت على الشعوذة ، وبأية معلومات تمليها مصلحة المخابرات توصلنا إلى مثل هذه الدقة في الأرقام؟ إن الرئيس جونسون وحده يعرف ذلك . أما الطيارون الذين قاموا بالغارات فهم لا يعرفون شيئاً لأنهم صرحوا بأن سحب الدخان منعتهم من تقدير النتائج التي حصلوا عليها . والواقع أن معظم كميات المحروقات الاحتياطية في فيتنام قد وزعت على ملاجىء تحت الأرض في كل أنحاء البلاد قبل الغارات الأولى . وكانت هذه الملاجىء بعيدة عن متناول القنابل والصواريخ لأن الحكومة الفيتنامية كانت تتوقع قصف مستودعات هانوي و هايفونغ منذ الغارات الأولى في فبراير (شباط) ١٩٦٥ .

وإذا كان الرئيس جونسون وخبراؤه في البنتاجون يعتقدون أن حكاماً مجربين كحكام فيتنام الشمالية يتركون ٥٧٪ من احتياطيهم بالمحروقات في أماكن معرضة للخطر ، فإنهم يرتكبون خطأ محزناً ، يعادل كل الأخطاء التي اتسمت بها مختلف مراحل سياستهم في التصعيد .

ومع ذلك ، فقبل سبعة أسابيع فقط من تلك الغارة ، صرح الناطقون باسم البنتاجون وسايغون أن هانوي معزولة عما تبقى من العالم ، وأن كل خطوط مواصلاتها مع الصين قد قطعت . إلا أن كل هذا لم يمنع ماكنمارا من أن يحدد في مؤتمره الصحفي الذي حاول

فيه تبرير أعمال أمريكا ما يلي :

« إن العدو يضاعف جهده العسكري ، ويحسن شبكة طرق التسلل . وتتحمل الطرق القديمة الآن كل أنواع سيارات النقل التي تعمل في كل الأوقات ، كما شقت طرق جديدة . ويوجد الآن مسالك تحويلية ، وسقوف من البامبو المجدول، تجعل بعض المسالك الترابية غير مرئية من الرصاد الجويين » .

لقد وعد الحكام الأمريكيون الرأي العام الأمريكي بأن ترغم الغارات الجوية على شمال فيتنام قوات الفييتكونغ إلى التوزع إلى وحدات صغيرة ، والعودة إلى قتال العصابات . إلا أن ماكنمارا صرح بما يلي :

« إن ازدياد الحركة على الطرق ، وازدياد حركة نقل الرجال والعتاد بفضل سيارات النقل ، والمراكب الصغيرة المزودة بالمحركات[1] قد دفع الفيتناميين إلى هجر حرب العصابات ، للقيام بعمليات أشبه بالعمليات التقليدية ، مستخدمين تجهيزات وأسلحة من عيار ضخم بكميات متزايدة » .

إن الغارات الجوية لم تبد غير فعالة من وجهة النظر العسكرية فحسب ، بل بدت كذلك من وجهة النظر المدنية أيضاً ، فقد استمرت الحياة المدنية ، وتتابع العمل بشكل طبيعي . وبهذه الصورة ، تم حصاد الربيع ، ونقل القمح ، وخُزن وسلم للدولة طبقاً للخطة الموضوعة، رغم ازدياد عدد الغارات الجوية في مايو (مايس) ١٩٦٦ .

ولا يمكن إهمال ما دفعه الطيارون والطائرات ثمناً لهذه العمليات . وقد فضحت برقية للأسوشيتد برس من واشنطن ، نشرت في النيويورك تايمز ، في ١٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٦ تحت عنوان « **نقص خطير في الطيارين** » ، فضحت هذه البرقية السلطة الأمريكية حينما قالت إن ما يقارب ٦٠٠ طياراً قد اعتبروا مفقودين في حرب فيتنام ، وهو رقم أكبر بكثير من العدد الشامل للطائرات التي أعلنوا عن خسارتها رسمياً . ويعتبر مقال هانسون بالدوين المعقب العسكري للنيويورك تايمز بتاريخ ١٠ أوكتوبر (تشرين الأول ١٩٦٦) ، يعتبر هذا المقال أخطر أيضاً ، من وجهة النظر الأمريكية الرسمية . يقول هانسون بالدوين ما يلي :

« وقد خسر سرب جوي تابع للقوة الجوية الأمريكية ، في شهر واحد من العمليات ،

---

(١) يتم هذا الأمر بالرغم من وجود الأسطول السابع الأمريكي في المياه الفيتنامية . (المؤلف)

ضد فيتنام ولاووس خلال الصيف ، وكان هذا السرب متمركزاً في تاخلي بتايلاند ، خسر ١٥ طائرة من أصل ١٨ و ٩ طيارين ... وتبعاً لمصادر البحرية الأمريكية، تفتقر كل أسراب القتال الجوي ، فيما عدا مجموعات الطيران التي تستخدم حاملات الطائرات في « المحطة الأمريكية » (سواحــل فيتنام الشمالية) تفتقر كل الأسراب تقريباً إلى الطيارين أو الطائرات ، أو تفتقر إلى الاثنين معاً .

وتعرف القوة الجوية الأمريكية الصعوبات التي تعانيها . وإذا استثنينا سربين جويين سيرسلان إلى الجنوب الشرقي الأسيوي . فإن القيادة التكنيكية الجوية للولايات المتحــدة الأمريكية لا تلعب الآن أبداً إلا دور مركز تدريب ، غير عملياتي . وقد أرسلت كل أسرابها إلى جنوب شرق آسيا ، أو اشتبكت في مكان آخر خارج البلاد .

وقد تجاوزت خسائر القتال واستقالات الطيارين إمكانيات التعويض بصورة واسعة . وكان عدد الاستقالات التي بلغت ٧٠٤ استقالة في العام الماضي سبباً من أسباب المشاغل الكبرى التي تعرضت لها القوة الجوية الأمريكية .

وقد كشف أحد الضباط أن البحرية ينقصها ١٦٦٠ طياراً ، كما ينقص مشاة البحرية حوالي ٦٥٠٠٠ »

وأعلنت جريدة التايمز النيويوركية بعد يومين : « إن خسائر فادحة في الطائرات وصعوبات في الإنتاج ضايقت بصورة جدية وزير الدفاع ماكنمارا . وإن النقص بالطيارين خطير جداً ، ويدل العدد الكبير من الاستقالات على أن بعض الطيارين ، لا يؤمنون أبداً بهذه الحرب الجوية الوحشية » .

الفصل الثالث

في الأجواء

بمَ يفكر الطيارون الأمريكيون ، وكيف يفكرون ؟ لقد تسنى لي إجراء أحاديث طويلة مع بعضهم ، ممن أسقطت طائراتهم ووقعوا أسرى بيد الفيتناميين . وفي ثلاث مناسبات التقطت تصريحاتهم كلمة كلمة . ومنها تأكد لي بأنهم ينظرون إلى المستقبل كشيء مجهول ، وأدركت من حواري معهم بأنهم لم يكونوا في حالة ذهنية مشرقة . ومن جهة أخرى تأكدت أنهم لم يكونوا مرتاحين للشروط التي كانت تطبق على قواعدهم ، أو على حاملات طائراتهم .

وقد كتب فرانسوا سوللي عن حاملة الطائرات الأمريكية «كيتي هوك» مقالاً نشر في ١٤ فبراير (شباط) ١٩٦٦ ، في النيوزويك الأمريكية الأسبوعية ما يلي :

« من المفروض أن يعتز الطيار بالمهمات الخطرة التي توكل إليه ، ولكن هذا النوع من الاعتزاز لا نجده في طياري القوة البحرية الأمريكية التي تعمل في فيتنام ، إذ أنهم ينفرون من الخوض في أحاديث صحفية مع صحفيين عابرين ، تتعرض لمهماتهم أو قصص بطولاتهم في فيتنام . وحينما يواجهون ضغطاً صحفياً عليهم يعترفون بأنهم يخشون هذا النوع من الدعاية لهم ، لأنه يعرض عائلاتهم لانتقام المنظمات الأمريكية المعادية للحرب . وقد صرح طيار كان يخشى التصريحات الصحفية بما يلي : « إن أضخم مشكلة يعانيها

على ظهر حاملة الطائرات هي مشكلة الرسائل المليئة بالشتائم والسباب ، وهواتف التهديد التي تتلقاها عائلاتنا في الولايات المتحدة » .

فكلما حاول أحد الصحفيين الاقتراب من طيار من الطيارين ، يقوم ضابط الصحافة في (كيتي هوك) بعملية لها بعض الدلالة . إذ يتوجه للطيار بسؤال يقول فيه : هل تتمسك بأن ترى اسمك وصورتك في الصحف ؟. إن الانطباع الذي نستخلصه من كل هذا غريب جداً ، لأنه يوضح لنا بأن هؤلاء البحارة القساة يرهبون ويخشون مواطنيهم الأمريكيين ، أكثر من مدافع أعدائهم الشيوعيين » .

وقد قضيت فترة طويلة لا بأس بها ، كمراسل حربي ، على ظهر حاملة طائرات أمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية . وشاركت أيضاً في عدة مهمات جوية كمراقب غير مقاتل . ولم ألاحظ أبداً وجود أية معضلة اخلاقية يعاني منها الطيارون . وفي مرة من المرات رأيت خلال معركة الفليبين طيارين يحلقون للقيام بمهمات عديدة ضد الاسطول الياباني . وكان هؤلاء الطيارون يعرفون أنهم لا يملكون إلا احتمالاً واحداً من احتمالين للعودة سالمين . ورأيتهم يعودون في إحدى المرات عند الشفق ، وخزاناتهم فارغة تماماً ، وكان الضباب كثيفاً جداً بحيث أصبح من الصعوبة بمكان كبير استدارة حاملة الطائرات في اتجاه الهواء للسماح للطيارين بالهبوط على جسرها (وهي عملية خطرة في حد ذاتها) . وبينما كان البحارة يحاولون تغيير اتجاه الحاملة ، كنا ننظر إلى اثني عشر ضوءاً من الأضواء الحمر والخضر التي تنبعث من الطائرات تلف وتدور في السماء دون توقف. ثم فقدت الطائرات ارتفاعها بالتدريج وسقطت لتختفي في المياه . وأمكن إنقــاذ بعض الطيارين . ورغم هذه الاهوال الرهيبة التي تعرض لها الطيارون لم ألاحظ بأن أحداً منهم اشتكى من مهمته ، أو من المهمات المماثلة التي كلف بها في اليوم التالي ، لأن هؤلاء الطيارين لم يكونوا يحلمون إلا بشيء واحد ، وهو التوصل إلى تدمير الجزء الأكبر من الأسطول الياباني .

وكان الطيارون في تلك الفترة سعداء جداً من التحدث إلى الصحفيين ، وكانوا أكثر سعادة عندما يرون صورهم وهي تنشر على صفحات الجرائد ، مــع قصص بطولاتهم . ويزداد اعتزازهم حينما تنشر تلك الصور والقصص في الصحف التي تصدر في المدن التي ولدوا فيها . فما الذي قلب الحال إذن ، وأحدث هذا الفرق بين طياري الزمن الغابر وطياري الزمن الحاضر ؟ من الطبيعي أن نرد على هذا السؤال بقولنا : إن الطيارين الجدد يخجلون من دورهم في هذه الحرب القذرة التي دفعتهم بلادهم إلى ميادينها.

ويتحدث الصحفي السويسري فرناند جيغون في كتابه: « **الأمريكيون في مواجهة الفييت كونغ** »[1] **عن رغبات مكتومة في نفوس الطيارين تدفعهم إلى التمرد. وهذه الرغبات هي التي تخيف رؤساءهم كثيراً، أولئك الرؤساء الذين يخشون أن تنتشر العدوى بين كل الطيارين. ويصف جيغون تردد بعض الضباط أمام تدمير القرى والمحاصيل، والكائنات البشرية وإحالتها إلى رماد. ويقول هؤلاء الضباط المترددون: « أنها ليست حرباً، إنها تدمير وقتل للجنس البشري »**. ويتابع المؤلف قائلاً:

« وفي قمة التفكك المعنوي الذي يصيب الطيارين، تقودهم قناعاتهم الدينيـــة في الغالب إلى عتبة التمرد، فيطلبون من رؤسائهم إعفاءهم من تعهداتهم، وتصاب الأركان العامة بذهول نتيجة مباغتتها بهذا الأمر، وتلجأ إلى تذكير أولئك الطيارين، أصحاب الضمير، بتعهداتهم التي جاءت في عقودهم، وبواجبهم كمتطوعين. وترفض الأركان العامة كل الأسباب الأخلاقية التي تدفع الطيارين إلى الاستقالة، ولكنها تقبل الأسباب الفنية التي قد تحولهم إلى رماة سيئين أو إلى طيارين ضعفاء. وبالتالي تحولهم إلى أمريكيين سيئين. وفي هذه الحالة يصبح الأمر خيانة من وجهة النظر العسكرية البحتة.

وتفرض الأركان العامة على أولئك المعارضين الذين استيقظ ضميرهم، التوقيع على وثيقة يتعهدون فيها عند عودتهم إلى الولايات المتحــدة، بعدم الكشف عن أسباب تخليهم عن المهمة، أو عن المشاهد التي رأوهـــا بأم أعينهم، أو أية معلومات تسيء إلى الحرب الدائرة، من قريب أو بعيـــد. ودون أي ضجيج، يحرم الضابط من رتبته، وتلغى كل مميزاته العسكرية. ويعود إلى بلده وحيداً ومنعزلاً أكثر من وحدته وعزلته لو ألقي في صحراء. وتبعاً لذلك، يتعرف بعض هؤلاء الطيارين عـــلى طريق عيادات الأطباء النفسانيين.

أما الطيارون الذين لا يملكون الشجاعة الكافية لطلب الغاء عقودهم، فهم يعدون الأيام المتبقية لهم في الخدمة. واليوم (ي) بالنسبة لهم، هو يوم تحررهم من عقودهم، أي اليوم ٣٦٥ بعد توقيع التعهد، إلا إذا قرر مجلس الشيوخ خلاف ذلك ».

وقد أجريت حديثي في بادىء الأمر مع أحد الأسرى الامريكيين في فيتنام، وهو المقدم آرثر فوهون، من البحرية الأمريكية. وهو ضابط من ضباط العمليات على حاملة الطائرات « هانكوك »، ويبلغ من العمر ٣٦ عاماً. وكان يقود قاذفة منقضة آ ــ ٤ د A. 4 D:

---

(١) Flammarion 1965.

وكان طويل القامة نحيلاً أشقر. وكانت إحدى ساقيه في الجبس إذ أنه سقط على الصخور وأصيب بجروح بالغة ، فأصبح من الواجب أن تجرى له عملية تطعيم عظمي . وكان يلبس بنطالاً من الكاكي ، وكنزة صوفية زرقاء. وقد أحضره لي حارس فيتنامي مسلح . وسألته عما إذا كان يقبل الإجابة على أسئلتي . فقبل . وها هو الحوار الذي جرى بيننا :

سؤال : متى أُسقطت طائرتك ؟

جواب :ـ في ٣ أبريل (نيسان) ١٩٦٥

سؤال :ـ ماذا كنت تفعل في تلك اللحظة ، وما هي المهمة التي كانت موكلة اليك

جواب :ـ كانت مهمة قصف .

سؤال :ـ هل تنتمي إلى مشاة البحرية أم إلى الطيران ؟

جواب :ـ إلى مشاة البحرية .

سؤال :ـ هل كنت على ظهر إحدى حاملات الطائرات .. ؟

جواب :ـ نعم .

سؤال :ـ ما اسم تلك الحاملة ؟ ..

جواب :ـ أفضل أن لا أجيب .

(تشير بعض الوثائق التي عثر عليها معه أن اسم الحاملة كان « هانكوك ») .

سؤال :ـ ماذا حدث بالضبط ..؟ هل أسقطتك المدفعية المضادة، أم أسقطتك المطاردات

جواب :ـ لا أعرف . ولكنني لا أظن بأن مقاتلة أسقطتني ، بل هو رمي الأسلحة الخفيفة .

سؤال :ـ ماذا حدث قبل أن تقفز بالمظلة . ؟

جواب :ـ بعد أن القيت قنابلي .. وجدت صعوبة في التحليق بعد انقضاضي على هدفي وعرفت عندئذ أن طائرتي تحترق .

سؤال :ـ ماذا كان هدفك ؟ وبما أنك كنت تنقض بطائرتك ، فلا بد أن الهدف كان جسراً ولا شك .

جواب :ـ نعم ، لقد كان جسراً .

(إنه جسر دولين ، في مقاطعة تانههوا ، الذي بقي سليماً في (مايو مايس ١٩٦٦) .

سؤال :ـ كم عدد المهمات التي قمت بها ؟

جواب :ــ ثلاث .

سؤال :ــ إذن فقد كانت مهمتك الأخيرة هي الثالثة ؟

جواب :ــ أعتقد أنها كانت الرابعة .

سؤال :ــ كم استغرق الوقت الذي فصل بين سقوطك وأسرك .. ؟

جواب :ــ خمس دقائق .

سؤال :ــ هل هبطت في البحر ، أو في حقل من حقول الأرز . ؟

جواب :ــ هبطت على الصخور .

سؤال :ــ هل كان ذلك على الساحل ..؟

جواب :ــ لا ، كان ذلك في الداخل .

سؤال :ــ ماذا حدث فيما بعد ..؟

جواب :ــ كسرت ساقي .

سؤال :ــ أثناء هبوطك ..؟

جواب :ــ كلا ، كسرت ساقي عند وصولي إلى الأرض .

سؤال :ــ إذن فقد كنت مجمداً لا تستطيع الحراك ..؟

جواب :ــ أجل . كانت ساقي تتدلى . وكنت على هضبة تمتد على مسافة ٣٠ متراً . وجاء اثنان من الفيتناميين نحوي . كانا يحملان سكينتين كبيرتين وضعاهما على حنجرتي إلا أنهما عرفا بأني لا أستطيع الدفاع عن نفسي حينما شاهدا ساقي المدلاة ..

سؤال :ــ ما هو في رأيك السبب الذي دفعهما إلى إشهار سكينتيهما وتوجيههما نحو حلقك ..؟

جواب :ــ أعتقد أنهما فعلا ذلك ليفهماني بأني أصبحت أسيراً لهما .

سؤال :ــ أما زلت تحمل قبعة الطيران ..؟

جواب :ــ كلا .

سؤال :ــ ماذا حدث فيما بعد ..؟

جواب :ــ أتى كثير من الناس . ونقلوني إلى أسفل الهضبة . واستخدموا العصي في حملي ، إذ أنهم وضعوا عصاً تحت ظهري ، وأخرى تحت ساقي ، وثالثة هنا (وأشار إلى تحت مقعده ..) وقد كانوا حوالي عشرة أشخاص تقريباً .

سؤال :ــ وبعد ذلك ..؟

جواب :ــ أعتقد أني بقيت ممدداً أسفل الهضبة ساعة كاملة . ثم أتى أشخاص آخرون كانوا ينظرون إلي ، وعلى وجه البعض منهم سيماء الغضب . وقد بصق عدة أشخاص في وجهي . وبصق عجوز علي ... أما زلت تتمسك بأن أقص عليك كل هذا ..؟

سؤال :ــ أجل ، استمر . إلا إذا كان حديثك سيكون طويلاً أكثر من اللازم .

جواب :ــ بدا لي أن العجوز يحمل سلاحاً نارياً يصوبه نحوي . وقد تأكدت أن الجماعة كانت في حالة ثورة عصبية . ولكن جاء فيما بعد رجل شاب وسمعتهم يتجادلون معه . فأدركت أنه قد منعهم من قتلي . ثم نقلوني إلى كوخ صغير على مسافة ٣٠٠ متراً من ذلك المكان . وهناك وضعوا لي رباطاً على ساقي . وبقيت على هذه الحال ساعة ونصف الساعة .

ثم حملوني فيما بعد على نقالة إلى مكان أجهله . وهبط الليل . وكنت مربوطاًبالنقالة، والنقالة مثبتة بسيارة النقل . وقد سرنا حوالي ربع الساعة أو عشرين دقيقة. وأنزلوني من سيارة النقل . وكانت هناك مصابيح كهربائية تنبعث من كل أطراف الطريق . ثم تسلقوا بي تلاً من جديد . وبدا لي أنه كان هناك مئات الأشخاص ينبع الغضب من وجوههم .

ثم رفعوني إلى سيارة نقل وأوصلوني إلى بناء يشبه ثكنة من الثكنات . وبعد فترة من الوقت وصل فيتنامي . وقال لي إنه طبيب . وهذا هو كل ما فهمته ، وفهمت أيضاً كلمة أخرى معناها (عملية) . وبعد قليل جعلوني أستلقي على منضدة من المناضد . ومن ثم خدروني بالإيتير . وهذا هو آخر شيء تذكرته في ذلك اليوم .

ولقد استيقظت مرة واحدة ، وأعتقد أنهم حقنوني بالبانتوتال .

سؤال :ــ هل تعرضت لعلاج طبي منذ ذلك الوقت ؟

جواب :ــ أجل . لقد أجريت لي عملية جراحية ثانية في ١١ مايو (مايس) . وأخرجوا لي خلالها قطعة من العظم .

سؤال :ــ ما هو رأيك في الطعام الذي تتناوله ؟

جواب :ــ إنه كاف من الناحية الغذائية . ولدينا في كل وجبة كمية صغيرة من اللحم، والسبانخ ، والقرنبيط ، وقليل من الخبز والماء .

سؤال :ــ هل تمكنت من الاتصال بعائلتك ؟

جواب :ــ أجل . كتبت مرة إلى زوجتي .

سؤال :ــ هل تسلمت الجواب ؟

جواب :ــ أجل . استلمت منها رسالتين .

سؤال :ــ ما هو رأيك في اللحظة الراهنة بهذه الحرب ؟ إن ما يدفعني إلى طرح هــذا السؤال عليك واقع يقلق معظم الصحفيين الذين يأتون إلى فيتنام الشماليــة : وهو أن كثيراً من المستشفيات ، والمدارس ، والمصحات ، الخ ... دمرت. لقد كنت مراسلاً حربياً على كثير من حاملات الطائرات أثناء الحرب الأمريكية اليابانية . ففي تلك الفترة ، كانت الأهداف المهاجمة أهدافاً عسكرية بصورة خاصة ، على حين أقل ما يمكن أن يقال الآن ، إن الأهداف لا تنتقى بنفس العناية . فهل هذا صحيح ؟

جواب :ــ إني لا أعرف شيئاً عن هذا . لقد سقطت طائرتي في ٣ أبريل (نيسان) ، في بدء الغارات . وأجهل ما حدث منذ ذلك الحين ، ولست على علم بالأحداث إلا عن طريق الراديو . كل ما أستطيع قوله هو اعتقادي بأن قصف الأهداف المدنية التي تتحدث عنها لا يمكن أن يكون متعمداً . فكيف يمكن أن يحدث هذا عن عمد ؟ إني أجهل كيف يمكن أن يحدث .

سؤال :ــ لكن هذا يحدث فعلاً . صحيح أن هذا العمل كان نادراً ما يقع قبل أن تسقط طائرتك ، إلا أنه قد حدث كثيراً بعد ذلك . ونحن الصحفيين نجــد كثيراً من العناء في فهم هذا العمل .. ولا يمكن أن نعتبر ضرب الأهداف المدنية خطأ منكم ، لأنكم تقومون دائماً بطلعات استطلاعية قبل الغــارة تتعرفون خلالها على أهدافكم . ولهذا فلا يمكننا أن نغفر هذه « الأخطاء » .

لنترك هذا كله الآن ولأسألك عن وضعك هنا ؟ وأعني بوضعك هنا ، وضعك من الناحية القانونية ؟

جواب :ــ إني لا أعرف عنه شيئاً . إنهم يقولون لنا إننا مجرمو حرب .

وانتهى الحديث مع الطيار عند هذه الكلمات .

وكان الرائد غوارينو مختلفاً كل الاختلاف عن المقدم فوهون ، الذي كان يتسم بمزاج حزين وصامت . كان عمر الأسير الثاني ٤٤ عاماً . وكان ينتمي إلى السرب الرابع والأربعين من الأسطول الجوي الثامن عشر ، التابع للقوة الجوية الأمريكية ، التي تقيم في قاعدة كورات في تايلاند ، إلا أنه كان يرفض الاعتراف بذلك . ولكن الفيتناميين كانوا يعرفون ذلك من أوراقه . ومن هذه القاعدة انطلق لتنفيذ مهماته خلال الغارات

الجوية . كان رجلاً باسماً ، صغير القامة ، يبدو وكأنه كثير الارتياح . وقبل دون أية معارضة أن يقدم لي حديثاً مصوراً للتليفزيون . وكان يلبس بنطالاً من اللون الكاكي ، وكنزة صوفية زرقاء ، كفوهون .

سؤال :ـ متى أسقطت طائرتك ؟

جواب :ـ أسقطت في ١٤ يونيه (حزيران) ١٩٦٥ ، عندما كنت أهاجم هدفاً عسكرياً في مقاطعة سون لا . وكان هذا الهدف مؤلفاً من مجموعة منشآت تابعة للجيش .

سؤال :ـ كيف حدث ذلك ؟

جواب :ـ حدث ذلك خلال وضع سيء جداً ، فسقف الطيران كان منخفضاً جداً ، على حين كان الهدف محمياً بصورة جيدة . وفهمت حالاً أني سأصاب . وقد أصبت عدة مرات إصابات خطيرة .

سؤال :ـ هل اشتركت في حرب ٣٩ ـ ٤٥ أو في الحرب الكورية ؟

جواب :ـ في حرب ٣٩ ـ ٤٥ ذهبت إلى جنوب أوروبا وإيطاليا والصين .

سؤال :ـ هل يمكن أن تقارن بين المدفعية المضادة للطائرات في الحرب الأخيرة ومدفعية الفيتناميين الحالية ؟

جواب :ـ أعتقد أن مدفعية الفيتناميين خطرة كمدفعية الحرب العالمية الثانية .

سؤال :ـ كم عدد المهمات التي قمت بها في فيتنام الشمالية ؟

جواب :ـ لقد سقطت طائرتي خلال المهمة السابعة .

سؤال :ـ كم استغرق أسرك من الوقت ؟

جواب :ـ أسرت بسرعة كبيرة خلال ربع ساعة ، أو عشرين دقيقة بعد سقوط طائرتي.

سؤال :ـ هل أصبت أثناء قيامك بالانقضاض ؟

جواب :ـ أجل ، لقد أطلقوا النار علي طيلة مدة انقضاضي . وابتعدت عن الهدف بتحويل خط طيراني تحت ضغط النيران الموجهة إلى طائرتي . وخلال ابتعادي تلقيت قنبلة متفجرة ففقدت التحكم بطائرتي . ورغم ذلك تمكنت من الابتعاد بفضل سرعتي . وطرت عشرين أو ثلاثين كيلو متراً قبل أن أضطر إلى القفز .

سؤال :ـ في أي اتجاه كنت تطير ؟ هل كنت تطير باتجاه البحر ؟

جواب :ـ كلا . كنت في الداخل بعيداً عن البحر ، لأن هدفي كان فوق الجبال .

وكنت قلقاً جداً عندما قفزت لأنني لم أكن أعرف مكاني .

سؤال :ــ هل وقعت أسيراً بيد الميليشيا المحلية أم بيد السكان ؟

جواب :ــ بيد الاثنين .

سؤال :ــ كيف عوملت بعد أسرك ؟

جواب :ــ عوملت معاملة جيدة . والطعام الذي يقدم لي غذاء كاف .

سؤال :ــ يطرح الغربيون على أنفسهم السؤال التالي : ما هو رأيك بهذه الحرب ؟

جواب :ــ إن الإنسان يكوّن بالطبع رأياً مخالفاً عندما يرى الأشياء من هنا ، في الداخل وإني أصلي غالب الأحيان كي يتوصل الطرفان في هــذه الحرب إلى حل معقول .

سؤال :ــ إن السلطات الفيتنامية تمنحنا تسهيلات في التنقل كصحفيين . وخلال تنقلنا نلاحظ الدمار الوحشي الذي حل بالأهداف المدنية كالمستشفيات والمصحات والمدارس الخ ... ونتأثر جداً حينما نرى ذلك . فلقد كنت أنت مع القوة الجوية ــ البحرية الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية . وفي تلك الفترة لم يكن الطيارون يقصفون سوى أهداف تتسم بطابع عسكري صرف ، عــلى حين لا تجري الأمور بالشكل نفسه في الوقت الحالي . فما هو رأيك ؟ وكيف يمكن تفسير ذلك ؟

جواب :ــ افترض أن كلامك صحيح ، لأنك تقول لي إنك رأيته بأم عينيك . ورغم كل هذا فأنا مقتنع بأن الطيارين يعتقدون أنهم يهاجمون أهدافاً عسكريــة . وكل المعلومات المتوفرة لديهم بما فيها الصور الجوية عندما تتوفر ، تصــور هذه الأهداف كأهداف ذات طابع عسكري . وتبعاً لتصريحات الــرئيس جونسون التي قرأتها ، فان المدنيين لا يتعرضون للقصف أبداً . فإذا كان ما تقوله صحيحاً ، فأنا أعترف إذن بالأخطاء ، وأعلن بأني لا أستطيع الاعتقاد بأن طياراً أمريكياً يرضى أن يقصف قرية أو مستشفى .

سؤال :ــ هناك مشكلة أخرى تقلقنا : إن الولايات المتحدة الأمريكية وفيتنام الشمالية ليستا في حالة حرب من الناحية الرسمية ، فحالة الحرب هذه لم تعلن . إذن ما هو رأيك شخصياً بالدور الذي قمت به أنت في هذه الأحداث ..؟

جواب :ــ إني لا أقوم الآن بأي دور . ولكنك تعرف حكمتنا القديمة في الجيش «نحن لا نطرح أي سؤال . إننا نطيع ونموت إذا كان لا بد من الموت . » ونكتفي

بأن نأمل ونصلي لله كي لا ينخدع قادتنا العسكريون وحكامنا ، وكي يكون الرئيس والبلد الذي يسير وراءه على الطريق المستقيم . إن قادتنا يكلفوننا بمهمات : ونحن نقوم بواجبنا دون أن نطرح أسئلة . بهذا الشكل يؤمن ويفكر كل الطيارين .

سؤال :- كيف عوملت منذ أسرك .. ؟

جواب :- لقد تصرفوا معي بطريقة ملائمة جداً ، كما يتصرف معظم سكان البلدان الأخرى في حالات مماثلة .... ولقد دهشت عندما رأيتهم يعرفون ما ينبغي أن يفعلوه عند أسر أي طيار معاد . فلقد أوثقوني بصورة ماهرة ثم أعطوني الأرز والماء .

سؤال :- ليس هناك حرب رسمية بينكم وبينهم . فكيف تعتبر أنت وضعك الحالي ، وكيف تعتبر السلطات الفيتنامية ذلك .. ؟

جواب :- لقد قمنا بالغارات دون أن يكون هناك إعلان حرب . إذن فنحن نعتبر من قبل الفيتناميين وكأننا ارتكبنا أعمالاً نلام عليها . ونعتبر أيضاً مجرمي حرب. أما نحن الطيارين فمن جهتنا – وهذا شيء طبيعي – فإننا لا نعتبر أنفسنا مجرمي حرب ، بل نعتبر أنفسنا أسرى حرب . ولكن وضعنا بالطبع لا يسمح لنا بحسم هذه المسألة .

سؤال :- هل تلقيت أخباراً عن عائلتك ...؟

جواب :- أجل . استلمت رسالتين إحداهما بتاريخ ١ نوفمبر (تشرين الأول)، والثانية بتاريخ ٢ مارس (آذار) . وقد سمحوا لي بالرد على الرسالتين .

سؤال :- في ٢ مارس (آذار) من هذا العام .؟

جواب :- نعم ، فأنا أسير منذ أحد عشر شهراً .

سؤال :- لقد قصفت بلداً دون أن يكون بلدك في حالة حرب معه . فما هو رأيك ؟.

جواب :- إني أجهل لماذا يقال إن الحرب غير قائمة بيننا وبين فيتنام ، مع أن حالة الحرب موجودة فعلاً . فليست هذه النقطة بالنسبة لي سوى نقطة من نقاط التفاصيل الفنية . ولقد كان إيماني عندما كنت أقاتل بأني أخوض حرباً، وأني كجندي من جنود الولايات المتحدة الأمريكية أهاجم بلداً معادياً . ولم يتبادر إلى ذهني مطلقاً أني مجرم .كنت أعتبر أنني لا أفعل سوى إطاعة أوامر رؤسائي ، وسأستمر في التفكير والاعتقاد على هذه الصورة . ولا

أعتقد أن باستطاعتنا أن نقبل ، كما لا يستطيع مواطنونا في الولايات المتحدة أن يقبلوا بمعاملتنا كمجرمي حرب ، سواء أأعلنت الحرب أم لا . وهـذا الموضوع بالنسبة إلي ، وأكرر مرة أخرى ، مسألة فنية صرفة .

سؤال : ينبغي لكي تكون حالة الحرب قائمة أن يهاجم بلد بلداً آخر ، وأن يتم إعلان الحرب عليه . ومن المسلم به أن فيتنام الشمالية لم تهاجم الولايات المتحـدة الأمريكية .

وأشرت له عندئذ لقرارات محكمة نورمبورغ ولاعتبار العدوان على بلد أجنـبي جريمة من الجرائم ، وذكرته بأن الحجة التي تذرع بها « لقد أطعت أوامر رؤسائي » حجة لم تعترف محكمة نورمبورغ الدولية بصلاحيتها . ثم تذكرت ما كتبه جيغون الصحفي السويسري الذي أشرت إليه منذ قليل ، فطرحت عليه السؤال التالي :

سؤال :ـ بماذا يفكر الطيـارون الآخرون ، وما هو رأيهم بكل هذا ..؟ ألم يتساءلوا فيما إذا كان عملهم مبرراً أم لا .. ؟

جواب :ـ لا أعتقد ذلك . فهم مقتنعون بلا شك بأنهـم لا يقصفون سوى قواعـد عسكرية .

سؤال :ـ لقد جاء إلى هنا كثير من الصحفيين الغربيين . فأصيبوا كلهم بالدهشة من تدمير أهداف مدنية . فقد دمرت مستشفيات هامة مراراً متعددة حتى لم يبق سوى الخرائب . وبهذا الشكل هوجمت مصحة للجذام يومياً خلال أحد عشر أو اثني عشر يوماً .

جواب :ـ لقد جاء دوري كي أوجه إليك سؤالاً : هل تعتقد بأنه من الطبيعي أن يقدم طيار أمريكي على قصف مستشفى لو شك أنه مستشفى ..؟ إذن فأنا أعتقـد بأن ما حدث ناجم عن أخطاء خطيرة ارتكبتها أجهزة الاستخبارات . وأنا مقتنع كل الاقتناع بأنه لا يمكن الهجوم على هدف عدة مرات لو لم يقتنع الطيارون بأنه هدف عسكري . فما هو الربح الذي نجنيه من الإغارة عـلى المستشفيات ؟

سؤال :ـ إذن فأنا أسألك ، إلى أي مدى تستطيع أن تستقسر عن حقيقة الهدف الذي تذهب لقصفه ..؟ لنضرب على ذلك مثلاً : إنهم يعينون لك هدفاً من الأهداف ويعطونك صورة جوية له . ولنفترض أنك قلت لهم : « إني أشعر بأن هذا الهدف ليس بطارية مضادة للطائرات أو جسراً ، أو ثكنة . إنه يشبه بنـاء

مدنياً » فهل تملك الحق بطرح مثل هذه الأسئلة عن المهمات التي تكلف بها؟.

جواب :ـ نحن نملك حق السؤال عما يشتمل عليه هدفنا ... ومع ذلك فمن قراءة الصور الجوية التي تقدم لنا عن الأهداف التي سنغير عليها ، نكتشف دوماً إذا كان الهدف عبارة عن مدفعية مضادة للطائرات أو أنه شيء آخر مختلف تماماً ، كهدف مدني لا أثر فيه لأي سلاح . وعلى هذا الأساس فإني أكرر لك بأن الطيار لا يمكن أن يغير على مستشفى من المستشفيات . وإذا حدث مثل هذا فإنه يدل على وقوع غلطة خطيرة .

سؤال :ـ لقد حدث هذا بالتأكيد . وهناك صور للمستشفيات أخذت قبل الغارات وبعدها ومن خلال هذه الصور رأيت كثيراً من المستشفيات التي دمرت تماماً ، من بينها مصحة كبيرة ، ومختبر أبحاث عن السل ، ومستشفى الجذام الكبير في كينه لان . وهناك عشرات من الأهداف المدنية والمماثلة للمستشفيات قد قصفت حتى الدمار . وقد رأيت أيضاً مدارس تحولت إلى خرائب.وبوسعي أن أؤكد أنه لم يبق في المناطق الساحلية أثر لأبنية الآجر أو الحجر التي بنيت منذ نهاية حرب الهند الصينية . وهذا ما رآه كل الذين زاروا هذه القطاعات ، الأمر الذي أصبح يقلقنا كثيراً . فهل تعتقد أن كل هذا عبارة عن نتيجة لأخطاء وقعت ؟..

جواب :ـ بالتأكيد . إن الطيارين لا يلقون قنابلهم لو كانت لديهم فكرة بسيطة عن حقيقة الأهداف التي يقصفونها ... ونحن نقوم بمهماتنا مؤمنين كما قلت لك دائماً بكفاءة قادتنا ، وبأنه لا يوجد أي ضابط قائد يأمر بشن الغارات ضد أهداف غير الأهداف العسكرية . إذ ليس لديهم أي مبرر يدفعهم للعمل ضد الأهداف المدنية .

سؤال :ـ لنفترض أن خطيئة ارتكبت (وأقصد « خطيئة » بين قوسين صغيرين) فنتج عنها قصف مستشفى من المستشفيات مثلاً . فهل يتعرض أحد للوم ؟. ومن الذي سيعاقب في هذه الحالة ..؟ ... الطيار أم الضابط الذي يرتبط به الطيار مباشرة ، أو ضابط الاستخبارات ، أو القائد العام ..؟

جواب :ـ إن كل هذا لا علاقة له بما نسميه « مصلحة الإمداد بالذخائر » فالعسكريون التابعون للأنساق الدنيا ليسوا مسؤولين لأنهم ليسوا هم الذين يعينون الأهداف. إن تحديد الأهداف يتقرر في مستوى أعلى، ونحن لا قيمة لنا بالنسبة لهذا المستوى.

سوال :ـ كيف تعالج مستقبلك وتواجهه ..؟

جواب :ـ إني لأرجو أن يتوصلوا في المستقبل إلى حل سلمي ومعقول . وإنني كأسير لا أستطيع إلا أن أرجو التدخل السريع لإنهاء أسرنا .

سؤال :ـ هل بوسعك أن تعطيني تفاصيل أخرى عن الطريقة التي أسقطت فيها طائرتك .؟

جواب :ـ لقد أصيبت طائرتي بمختلف أنواع القذائف من عيار صغير وكبير وبعد الانقضاض تلقت الطائرة أسوأ ضربة . فقد أصيبت بثقب كبير في أسفل جسمها .

سؤال :ـ كيف كان تسليح أولئك الذين أسروك ..؟

جواب :ـ كان واحد منهم يحمل سيفاً طويلاً ذا رأس رفيع ، أما الآخرون فكانوا يحملون البنادق . وقد اختفيت بعيداً عنهم بضعة مئات من الأمتار ، متسلقاً هضبة من الهضاب ، ثم توقفت في سرير مجرى ماء .

سؤال :ـ ما هو الغذاء الذي يقدمونه لكم ...؟

جواب :ـ إنهم يقدمون لنا في معظم الأحيان حساء الخضار والبطاطا ، وقليلاً من اللحم والخبز .

سؤال :ـ هل عوملتم معاملة خاصة خلال عيد الميلاد ...؟

جواب :ـ إنني كاثوليكي . ولقد استطعت أن أرى راهباً فيتنامياً لم يكن يتكلم سوى الفرنسية واللاتينية . إلا أننا تحدثنا معه كثيراً بمعونة مترجم . وكان غذاء عيد الميلاد عظيماً جداً ، فلقد حصلنا على الديك الرومي . كما قدمت لنا أيضاً وجبة تخرج عن حدود المألوف بمناسبة عيد رأس السنة .

ثم انصرف الرائد غوارينو مبتسماً يرافقه حارسه المسلح .

الفصل الرابع

طيّاران يتكلّمان

لقد أشار الطياران اللذان حادثتهما إلى أن قسماً من أعدائهما الذين أسروهما كانوا مسلحين بالسكاكين والسيوف . وقد ذكرني هذا بمشهد من أغرب المشاهد وأكثرها تعبيراً ، والتي تسنى لي أن أراها في فيتنام الشمالية .

إنه مشهد عربات مزودة بعجلات سيارات ، تجرها أبقار ، كانت تمر على طريق من الطرق . حاملة بقايا قاذفة مقاتلة تفوق سرعتها سرعة الصوت من طراز فانتوم F 105 مموهة تحت الأعشاب ، وكانت بعض الفلاحات الشابات والقويات تشكلن قافلة تحرسها ، وبنادقهن معلقة على أكتافهن . وخلف هذه القافلة يسير شيخ عجوز ذو لحية بيضاء مسلح برمح مشابه للرماح التي استخدمها أجداده لصد الغزاة المغول . لقد كانت هذه القافلة تنقل ما تبقى من الطائرة إلى مقبرة الطائرات . وهذا المشهد بالنسبة لي لا يرمز إلى عدم التكافؤ المخيف في هذه الحرب فحسب ، بل يرمز أيضاً إلى التعارض التام بين التقنية والشجاعة ، وبين الآلة والإنسان . فكم من طيار أمريكي بارع ، تلقى أحسن التدريب ونبغ في مهنته ، ثم انتهى بعد عدة غارات إلى جسد ملقى على الأرض ، ورأس السكين أو السيف مسدد إلى عنقه ... إن نهاية الطيارين مخجلة كنهاية طائرات الفانتوم ، والثاندرشيف ، والاختراعات الأخرى الرائعة التي تمخضت عنها الصناعة الأمريكية ، والتي أصبحت في فيتنام شيئاً ملقى في القاذورات ، يمر الفلاحون الفيتناميون به فيبصقون عليه .

فيما سبق تحدثت عن المقدم جيرمياه دانتون من البحرية الأمريكية الذي أسقطت طائرته فوق جسر هام‌رونغ . إنه لا يشبه أبداً زميليه اللذين استجوبتهما . قامة مديدة ، ومشية تدل على التصميم، وغموض في الوقت نفسه . إنه يبدو مقتنعاً بعدالة « القضية » التي يدافع عنها بلده ، ويدافع هو عنها . وكان يوافق بصورة تامة كضابط قائد على السياسة التي يتبعها البنتاجون . وهو لا يبدو آسفاً إلا لشيء واحد : في الوقت الذي قام فيه بمهمته الأخيرة لم يكن الطيران الأمريكي مستخدماً على نطاق واسع . ولقد دار بيني وبين هذا الضابط الحوار التالي :

سؤال :ـ أين ومتى أُسقطت طائرتك ...؟

جواب :ـ أُسقطت في فانه هوا (يقصد أن يقول تانه هوا) **في١٨ يوليه (تموز)١٩٦٥**

سؤال :ـ هل أسقطتها المطاردات أم المدفعية ...؟

جواب :ـ المدفعية المضادة للطائرات .

سؤال :ـ كيف حدث ذلك ...؟

جواب :ـ لا أدري . كل الذي أعرفه أن مظلتي أصيبت لأنني هبطت بسرعة كبيرة ، وسقطت في نهر .

سؤال :ـ أين حدث هذا بصورة دقيقة ..؟ وأي هدف كنت تهاجم ..؟

جواب :ـ لا أملك حق الإفصاح عن ذلك (الحقيقة أن دانتون كان يهاجم جسر هام رونغ) .

سؤال :ـ كيف وقع الحادث ..؟ هل كنت قد أنهيت انقضاضك ..؟

جواب :ـ أجل . كنت أحاول التحليق من جديد ففقدت التحكم بطائرتي .

سؤال :ـ سقطت إذن في نهر ..؟

جواب :ـ أجل .

سؤال :ـ ما هي المدة التي قضيتها إلى أن وقعت أسيراً ..؟

جواب :ـ لم يمض وقت طويل ، فقد وصل بعض الفيتناميين في مراكب . وكان هناك آخرون على الضفة مسلحين بالبنادق .

سؤال :ـ هل تستطيع أن تقص عليّ القصة بالتفصيل ..؟

جواب :ـ حينما سقطت في النهر تخلصت من مظلتي ، فلاحظت أنني لا أستطيع تحريك الجزء الأسفل من جسمي . وبدأت أنفخ الطوق المطاطي ، إلا أن

المراكب كانت قد وصلت . وربطني رجالها بالطوق وسحبوني إلى الضفة . وبقيت هناك يومين ، ثم أتوا بي إلى هنا . وها أنذا أسير حرب منذ ذلك التاريخ.

سؤال :ــ ما هو وضعك الرسمي حالياً ...؟

جواب :ــ إني أسير جمهورية فيتنام الديموقراطية .

سؤال :ــ كيف عوملت ...؟

جواب :ــ إن الغذاء الذي يقدم إلي غذاء ملائم . وهم يعطوننا ألبسة (كان يلبس بزة كاكية من قماش خفيف ذات ياقة عالية ، وعلى السترة رقم مطبوع باللون الأسود) . وهم يهتمون بنا إذا حدث لنا شيء خطير .

سؤال :ــ ماذا تعني بذلك ...؟

جواب :ــ إنهم يعتنون بنا إذا مرضنا .

سؤال :ــ أنت أسير منذ عشرة أشهر . فما هو رأيك بالوضع في الوقت الحاضر ...؟

جواب :ــ أرجو أن تتحقق إرادة الله ، وإني أدعم عمل حكومتي بصورة كاملة .

سؤال :ــ ما هو عدد المهمات التي قمت بها فوق فيتنام الشمالية قبل أن يسقط الفيتناميون طائرتك ؟

جواب :ــ ليس لي الحق في أن أجيب على سؤالك .

(حسب معلومات الفيتناميين ، أثبتت الوثائق أنها كانت مهمته الأولى) .

سؤال :ــ هل قاتلت في كوريا قبل هذه الحرب ، وهل حاربت في حرب ٣٩ــ١٩٤٥ ؟

جواب :ــ لا أستطيع أن أجيبك .

سؤال :ــ ما هو الفرق بين المدفعية الفيتنامية المضادة للطائرات وبين المدفعية التي قد جابهتك في يوم من الأيام ...؟

جواب :ــ لا فرق أبداً . إني لا أدري من أين أتى الرمي .

سؤال :ــ وما هو وضعك الرسمي . ؟ هل فكرت بهذه المعضلة ..؟ أطرح عليك هذا السؤال لأن هذه الحرب لم تعلن بصورة رسمية ..؟

جواب :ــ إني تحت رحمة الفتيناميين . ويبدو لي أن حروباً قامت خلال العشرين عاماً الماضية في فيتنام وغيرها دون إعلان رسمي لهذه الحروب . فالإعلان الرسمي للحرب أو عدمه لا يمنع معاملة الأسرى كأسرى حرب ، ألا ينطبق هذا علينا ...؟

سؤال : – ما هو رأيك في هذا الموضوع ...؟

جواب : – إنه غير سيء من وجهة النظر الأمريكية . وأعود فأقول لو كان هناك إعلان للحرب لبدت الولايات المتحدة أكثر قسوة مما هي عليه حتى الآن .

سؤال : – لقد أتيح لي كصحفي فرصة رؤية المستشفيات والمدارس والمصحات وقد تحولت إلى ركام . فما هو رأيك بهذا العمل ..؟

جواب : – لست على علم بما تقول . كل ما أستطيع قوله هو أنني لم أكن أعرف حينما كنت حراً سوى أن طيارينا لم يكونوا يغيرون إلا على أهداف عسكرية .

سؤال : – كل من زار فيتنام الشمالية رأى بأم عينيه الأبنية مدمرة. إذن فهذا أمر ثابت لا يحتاج إلى نقاش .

جواب : – لا أعرف شيئاً عن هذا .

سؤال : – إنه لأمر خطير جداً أن يهاجم بلد من البلدان دون أن تعلن عليه الحرب . فهل فكرت ، وهل فكر رفاقك بهذا الوجه من وجوه المشكلة ..؟

جواب : – إن فيتنام تواجه الحروب منذ عشرين عاماً دون إعلان. وقد قلت ذلك فيما سبق . وكذلك فإن الحرب لم تعلن في كوريا أو في السويس . ورغم ذلك فإننا لم نهاجم فيتنام بصورة جبانة ومفاجئة ، بل وجهنا إليها الكثير من الإنذارات قبل بدء الهجوم .

سؤال : – إذا وضعنا جانباً العدوان ضد بلد مستقل ، هذا العدوان الذي أقلق بعض نوابكم في مجلس الشيوخ . تبقى أمامنا مشكلة الأهداف المدنية . وأستطيع أن أؤكد أن كل الأبنية الهامة من القرميد أو من الحجر في المناطق الساحلية هوجمت عملياً ، وأن معظمها الآن أنقاض ، مع أنها عبارة عن مدارس ومستشفيات بنيت منذ نهاية حرب الاستقلال ضد فرنسا . إن هذا الأمر يقلق الغربيين الذين يأتون إلى هنا .

جواب : – نحن لا نقصف – على حد معلوماتي – إلا جسوراً وطرقاً وأهدافاً أخرى من نفس النوع ، وقد صرح الرئيس جونسون أننا لا نستهدف تدمير الشعب الفيتنامي ، بل تدمير صُلبه وأسمنته فقط .

سؤال : – ما تقوله لا يصمد أمام الأدلة والبراهين العديدة ، والأفلام والصور.والمقابر . إن صحفياً سويسرياً يدعى جيغون يقول في كتابه إن بعض الطيارين الأمريكيين يرفضون القيام بالغارات ، لأنها تستهدف المنشآت المدنية. وعندما يرفضون

ذلك تحررهم السلطات من عقودهم ، شريطة أن يوقعوا تصريحاًيتعهدون بموجبه بأن لا يفضحوا أسباب صرفهم من الخدمة . وأن لا يتحدثوا عن الجو الذي كان يسود فوق حاملات الطائرات . هل سمعت بمثل هذا الكلام؟

جواب :ـ أبداً . ولا أستطيع الاعتقاد بأن ما تقوله قد حدث في وحدتي . إني أعتبر حتى الآن ، أننا مشتبكون في نزاع محدود . ونظراً لإيماني هـذا ، أرى أن من واجبي أن أستمر في دعم العمل الذي تقوم به بلادي .

سؤال :ـ هل لديك عائلة ..؟ فإذا كانت موجودة ، قل لي هل تصلك أخبارها ... ؟

جواب :ـ إني متزوج ولي سبعة أولاد . وقد كتبت رسالة إلى عائلتي . واستلمت منها رسالتين .

سؤال :ـ هل عوملت كما كنت تتوقع ..؟ أني أعتقد أنهم قد فسروا لكم في الواقع كيف ستكون معاملتكم على وجه التقريب . فهل اتفقت حقيقة معاملتكم مع ما قالوه لكم .؟

جواب :ـ لقد عوملت إلى وقت قريب كما كنت أتوقع . وأنا لا أتمتع بالمزايا التي يتمتع بها أسرى الحرب . وقد أنذرونا بذلك من قبل .

سؤال :ـ لا أعتقد أنهم قالوا لك ذلك في الفترة التي وقعت فيها أسيراً . فلم يتخذ هذا القرار إلا فيما بعد .

جواب :ـ أجل . قيل لنا : « ستعاملون معاملة حسنة لأننا نتسم بالعواطف الإنسانية » رغم أننا لا نعتبركم أسرى حرب .

سؤال :ـ والطعام ...؟

جواب :ـ إن الحساء الذي يُقدم لنا حساء مغذ . ولدينا في معظم الأحيان الخضـار وبعض اللحم ، والخبز ، من النوع الفرنسي الجيد . إذن فلتحيَ فرنسا .

(وعند هذا الحديث ، ظهر شيء أشبه بالابتسامة على وجه المقدم دانتون) .

وبهذا الشكل انتهى حديثنا . وكان قانعاً بأنه وبلاده يسيران على الطريق المستقيم ، وان الله معهما ، وأنه على حق ، وأن من واجب **الطيران الأمريكي** أن يعاقب فيتنام الشمالية بصورة أشد قسوة . وقد كان الطيارون الذين استجوبتهم حتى الآن ، يملكون هم الثلاثة ، هذا التأكيد المعنوي « للأمريكي الهادىء جداً » . فكل ما كانت تفعله بلادهم كان حسناً . وكما قال لي الرائد غوارينو « **لم يكن من واجبهم أن يطرحوا الأسئلة** » .

وقد أسقط وأُسر في فيتنام الشمالية على الأقل اثنان من أمهر الطيارين الأمريكيين ، هما العقيدان كيسلر وروبنسون ريسنر . ويعتبر الاثنان من أكبر الاختصاصيين في تدمير الجسور . وقد أكد الاثنان أنهما عوملا معاملة حسنة بعد أسرهما . وكان ريسنر محارباً قديماً من محاربي الحرب الكورية . وبعد سقوط طائرته بعدة أيام ، وصفته الصحافة الامريكية بأنه واحد من أفضل الطيارين العاملين الموجودين في الخدمة الفعلية . وقد أُسقط خلال غارة كان يقوم بها ضد جسر هام رونغ . وقال لي أحد الفيتناميين الذين شاركوا في أسره – وهو محارب قديم من المدافعين عن جسر هام رونغ – ما يلي :

« لقد أرسل الأمريكيون في البدء طيارين برتبة نقيب . إلا أننا أسقطنا منهم عدداً لا بأس به ، وفشلوا في غاراتهم ، فأرسلوا إلينا على عجل رواداً ومقدمين ، فأسقطناهم أيضاً ، حتى أننا أسقطنا من بينهم أفضل طيار . ولا يغير علينا اليوم سوى الملازمين الطيارين وهم يطيرون على ارتفاع عال ولا يضايقوننا كثيراً » .

لقد أُسقط ريسنر ، وأُسر في ١٦ سبتمبر (إيلول) ١٩٦٥ . وبعد عدة أشهر ، أدلى بالتصريح التالي الذي نقل إلى صحيفة « بريد فيتنام » عدد ٥٧ ، الصادر في ٥ مايو (مايس) ١٩٦٦ :

« ... عندما أسقطت طائرتي كنت أقود السرب التكتيكي السابع والستين ، الذي يشكل جزءاً من المجموعة التكتيكية السادسة عشر (مجموعة أسراب الدعم الجوي) . وفي صبيحة ١٦ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٥ تركت قاعدة كورات ، في تايلاند ، للقيام بمهمة استطلاع مسلح في جمهورية فيتنام الديموقراطية . وفي الساعة ٩,٣٠ ، وعلى بعد عشرة كيلومترات شمال شرقي مدينة تانه هوا (أي فوق جسر هام رونغ) ، أصيبت طائرتي بنار قوية منطلقة من الأرض ، وأخذت تحترق ، فاضطررت للقفز بالمظلة ، لأن طائرتي انتهى أمرها . وقد أسرت فوراً بعد هبوطي ...

....وتظهر وطنيتكم في التصميم العنيف الذي تجابهون به غارات القوة الجوية الأمريكية . لقد اكتسبتم إعجاب الطيارين الأمريكيين بعنادكم الذي لا يتزعزع والذي يظهر في الرد على نيران طائراتنا من مواقعكم القتالية ، متحدين مدافعنا وصواريخنا وقنابلنا .

،... وبالرغم من أن القوات الأمريكية قد أحدثت كثيراً من الأضرار لجمهورية فيتنام الديموقراطية ، وأثارت حقداً طبيعياً ، فإن هذا الشعور لم يدفع المواطنين الفيتناميين إلى إساءة معاملة الطيارين الأسرى . بل على العكس ، ظهر أولئك المواطنون على أنهم يتمتعون بجانب كبير من الكرم في كثير من الحالات .

ولقد عوملت معاملة إنسانية منذ إلقاء القبض عليّ. ولبيت كل احتياجاتي المادية. وأنتهز هذه الفرصة لأشكر حكومة وشعب جمهورية فيتنام الديموقراطية.

المقدم روبنسون ريسنر، من الجناح الجوي الثامن عشر المتمركز في تايلاند. وهو طيار يقود طائرة (F 105 D.)، وأسر في تانه هوا في ١٦ سبتمبر ١٩٦٥ »[1].

ويملك هذا الضابط المحترف الانضباطي كثيراً من الأوسمة. إن أقواله محسوبة، ومتزنة، ودقيقة، ومتفقة تمام الاتفاق مع تصريحات الطيارين الذين حادثتهم. ولكن هذا المحارب القديم، بتصريحه الطويل قد خرق قانون الطيارين الأمريكيين. وقد وضع هذا القانون بعد الحرب الكورية، وينص على ما يلي: « إذا أُسرتُ، وطرحت عليّ الأسئلة، فاني لست ملزماً بالكشف إلا عن اسمي، ورتبتي، ورقمي، وتاريخ ولادتي. وأقوم بكل ما في وسعي لكي أتجنب الإجابة على أسئلة أخرى ... »

لقد اعترف ريسنر بأنه اقلع من كورات في تايلاند. وأدلى بمثل هذا الاعتراف عدد آخر من الطيارين، من بينهم النقيب الطيار شارل بويد. وقد أُسقطت طائرته F 105 فوق فيتنام الشمالية. وأُسر في ٢٣ أبريل (نيسان) ١٩٦٦. وأثبت ريسنر إذن الدليل القاطع ان تايلاند مشتركة في العمليات العسكرية ضد فيتنام، لأن السماح لبلد أجنبي باستخدام الأرض الوطنية لتنظيم عدوان ضد بلد ثالث يعتبر في القانون الدولي « عملاً من أعمال الحرب » ولا يساورنا أدنى شك، في اننا سنسمع عن هذا الموضوع كثيراً من الأقوال في المستقبل. لأن من حق فيتنام الشمالية أن تغزو تايلاند، وأن تدمر القاعدة التي انطلقت منها هذه الهجمات، طبقاً للأنظمة الموضوعة وللتشريع الدولي، أو أن تطلب إلى أحد حلفائها القيام بهذا الغزو بدلاً عنها. وتملك فيتنام الشمالية الدليل على استخدام الأمريكيين لقواعد لاووس لنفس الهدف. ولم يعد سراً مغلقاً على أي إنسان قيـــام الطائرات الأمريكية المتمركزة في تايلاند بحوالي مائة طلعة يومياً ضد منطقة لاووس التي تشرف عليها جبهة لاووس الوطنية[2]. وإذا أضفنا إلى هذا أن تايلاند أرسلت وحدة جوية صغيرة لتساهم في الحرب الفيتنامية، فهمنا أن وضع هذا البلد

---

(١) يتألف الجناح الجوي عادة من ثلاثة أسراب، يردفها جناح فني، وجناح إداري. وتشكل بمجموعها القاعدة الجوية. — المعربان —

(٢) جبهة لاووس الوطنية « Le neo Lao Haksat » وهي القوى التقدمية المسيطرة على جزء من لاووس مجاور لفيتنام. وزعيمها سوفانوفون. وتتبع لها القوات العسكرية المسماة باثيت لاو أي «لاووس الحرة». (المعربان)

وضع غريب ويثير كثيراً من الفضول . وقد وجهت حكومة فيتنام الديمقراطية عدداً من الإنذارات إلى تايلاند ، موضحة فيها النتائج التي يمكن أن تسفر عنها هذه التدخلات .

ومهما يكن من أمر ، فإن سلطات فيتنام الشمالية لا تشارك المقدم دانتون أبداً رأيه في الوضع الشرعي للطيارين الأسرى . وقد توصلت إلى معرفة رأي السيد فام فان باش ، رئيس المحكمة العليا لفيتنام الديموقراطية ، ونائب رئيس جمعية القضاة الفيتناميين حول هذا الموضوع . وسألته عما إذا كان الطيارون يعتبرون كأسرى حرب أم لا ، فأجاب بما يلي :

« إنه لمن المعروف علناً وبصورة عامة أن حكومة الولايات المتحدة تشن حرباً وقحة ضد فيتنام الشمالية ، دون إعلان مسبق . وهناك عدوان على جنوب فيتنام ، على حين تخوض أمريكا عمليات تدميرية ضد جمهورية فيتنام الديموقراطية ، وهي دولة مستقلة ، وعضو يتمتع بالسيادة في المعسكر الاشتراكي . ويشكل هذا في حد ذاته إساءة للسلم، وخرقاً لحقوق الأفراد الأولية ، وجريمة ضد الإنسانية . إن حكومة الولايات المتحدة تنظم يومياً غارات جوية ضد المستشفيات والمدارس ، والمناطق المكتظة بالسكان . وقد استعانت لهذا الغرض بطائرات من نموذج ب ــ ٥٢، وبالنابالم ، وبالقنابل الفوسفورية وبالغازات ، وبالمواد الكيمائية السامة . وبهذا الشكل فهي تذبح الشعب الفيتنامي بطريقة شرسة . وتتخذ عملية الذبح والقتل طابع الإبادة . وقد نقضت أمريكا بهذا السلوك تعهداتها، وانتهكت اتفاقية جنيف الدولية لعام ١٩٤٩ حول حماية ضحايا الحرب والحق الدولي . وتشابه الجرائم التي ترتكبها الولايات المتحدة حالياً في فيتنام ، الجرائم التي ارتكبها النازيون الذين حكمت عليهم محكمة نورمبورغ الدولية .

واستطرد رئيس المحكمة العليا لفيتنام الديمقراطية قائلاً :

إننا نعتبر الطيارين الأمريكيين الذين أسروا على أرضنا معتدين ، لأنهم نفذوا أوامر حكامهم بالعدوان علينا ، فارتكبوا كثيراً من الجرائم . وعلى هذا الأساس فهم قراصنة . وسنعتبرهم مجرمين وسنحاكمهم طبقاً لقوانين جمهورية فيتنام الديموقراطية » .

لقد عرفت فيتنام في نهاية شهر أبريل (نيسان) ١٩٦٦ نشاطاً هائلاً : فقد علق الفيتناميون على جدران الأماكن العامة للمدن والقرى لائحة تضم عدد الطائرات الأمريكية التي أُسقطت فوق فيتنام والتي تقارب الألف . وكان التنافس على صيد الأمريكيين محتدماً بين مختلف المقاطعات الفيتنامية ، وبين البطاريات المتعددة ، وبين المدفعية المضادة

للطائرات ، وبين طياري الميغ ايضاً ، تلك القوى الفيتنامية المختلفة التي أسقطت بتضافرها ما يقارب من ألف طائرة أمريكية . وقد لاحظ الأمريكيون عودة الطائرات الفيتنامية القليلة ، للنشاط ، تلك الطائرات التي تشكل نواة الطيران الفيتنامي. وقد وضع الفيتناميون أهدافاً مزيفة ومصائد لجذب الطائرات إلى هذه المنطقة أو تلك ، وإلى هذه المدافع او تلك . وحاولت الميغ ١٧ أن تجعل طائرات الفانتوم تتبعها كي تقتنصها طائرات الميغ ٢١ ، وهي نموذج حديث وجديد من طائرات الميغ . وكانت المدفعية المضادة للطائرات التابعة لمقاطعة تاي‌نغيين نقطة انطلاق « المقاومة الأولى » التي ربحت مباراة التنافس هذه .

وقد لاحظت في هذا المجال أن جزء من الجالية الأجنبية في هانوي ، المؤلفة أساساً من دبلوماسيين وصحفيين يقرأ الأرقام التي قدمتها الحكومة . وكانوا كلهم متفقين على كل حال بالاعتراف بأن ارقام الحكومة الفيتنامية اقرب إلى الحقيقة من أرقام الأمريكيين . وألحَّ المسئولون الذين تكلمت معهم على أن أرقامهم تمثل الحد الأدنى . ولا بــد ان الخسائر الأمريكية الحقيقية قد تجاوزت رقم ١,٠٢٠ طائرة الذي نشر عندما غادرت المدينة[1] . وقد أبرزت التوجيهات الصادرة عن الرئيس هوشي مينه شخصياً ضرورة التقيد بصحة اللوائح المطبوعة ، كي تحافظ البلاد على ثقتها بالحكومة . كما ألح على أن لا توضع أية طائرة أمريكية في لائحة الطائرات التي أُسقطت إلا إذا تم الاستيلاء عليها أو على بقاياها . وقد حدثني الفيتناميون أنه في مطلع الهجمات الجوية ضد الجسور ، أعلنت التقارير الواردة من مختلف المقاطعات عن سقوط ١٤ طائرة في يوم واحد . وقد تأكدت القيادة الفيتنامية العليا من سقوط احدى عشرة طائرة منها . ولكن عندما غدا البلاغ جاهزاً للتسليم إلى صحافة الصباح ، لم يكن الفيتناميون قد « استولوا بعد » على هيكل واحد من هياكل تلك الطائرات . فاتصل الضابط المسؤول عن البلاغات اليومية بالرئيس هو ، وأعلمه بهذه الحقائق . فأمر الرئيس بعدم إذاعة أي شيء عن سقوط الطائرات . وقد رد الضابط بأن ثقة الشعب بالحكومة معرضة للاهتزاز إذا لم يتضمن البلاغ الإعلان عن خسارة العدو لطائرة واحدة على الأقل ، رغم ان سدنة عدة بطاريات يؤكدون بأنهم أصابوا الطائرات إصابات خطيرة . فأجابه الرئيس : « صرح بخسارة طائرة واحدة إذن » . وبينما كانوا يعدلون البلاغ حسب تعليمات الرئيس وصلت برقية

---

(١) تقول أحدث إحصائيات فيتنام الشمالية ، إن عدد الطائرات الأمريكية التي تم إسقاطها فوق أراضي فيتنام الشمالية منذ بدء الغارات الجوية في فبراير (شباط) ١٩٦٥ حتى إيقافها في نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٦٨ هو ٣٢٥٠ طائرة من مختلف الأنواع . (المعربان)

من وكالة الصحافة العالمية في سايغون ، تعلن عن اختفاء أربع طائرات أمريكية . فاتصل الضابط المسؤول مرة أخرى بالرئيس الذي وافق على إعلان الرقم الأخير . وعدل البلاغ من جديد . إلا أنه صدر فجأة تصريح عن واشنطن يعترف بسقوط ثماني طائرات . فأسرع الضابط إلى الاتصال بالرئيس مرة أخرى ليعلن له النبأ الجديد الصادر من واشنطن فقال له الرئيس : « **عليك في هذه الحالة إذن أن تعلن عن سقوط ست طائرات لا ثمان** » . وكان هذا الخبر هو الذي نشرته الصحف الفيتنامية . ومعنى ذلك أن الفيتناميين يقللون حتى من الأرقام التي يعلنها الأمريكيون عن خسائرهم .

من كل ما سبق يتبين لنا أن الفيتناميين لا يعتبرون إصابتهم للطائرات الامريكية إصابة فعلية إلا عندما تسقط الطائرة فوق الأرض الوطنية ، أو فوق المياه الإقليمية ، حيث يستطيع الصيادون جلب حطامها . وينبغي الحصول على هذا الحطام في خلال يومين اثنين . وقد قال لي ضابط مكلف بوضع البلاغات وصياغتها ما يلي : « **إننا نعرف أن هناك ما يقرب من ٨٨ حطاماً للطائرات في الجنوب على مقربة من دانانغ ، وهي الطائرات التي أصيبت بأعطاب ولم تستطع العودة إلى قواعدها . إلا أننا لم نقم بحصرها حصراً دقيقاً ، لأننا لا نملك أية وسيلة لمعرفة عدد الطائرات التي لا تعود أبداً إلى قواعدها فوق حاملات الطائرات** » .

وسألت الضابط نفسه عما إذا كان الفيتناميون يعرفون المبدأ الذي تقوم عليه التصريحات الأمريكية عن الخسائر ، فأجابني : إن الطائرة ، عندما تسقط ويستطيع الطيار القفز بالمظلة ، فان الأمريكيين لا يعلنون عن هذه الخسارة لأنهم يعتقدون أن الطيار سيتحرر في يوم من الأيام . غير أنهم يضطرون للإعلان عن ذلك فيما بعد إذا كان الطيار ذا رتبة عالية ، أي برتبة رائد على الأقل . أما إذا كانت رتبة الطيار أقل من ذلك ، فهم لا يصرحون بشيء . ومن جهة اخرى ، فهم يعترفون بالخسائر التي تقع في البحر إذا نجحوا في إنقاذ الطيار . ومن المدهش أن نلاحظ أنهم عندما يقبلون في الغالب الاعتراف بخسارة طائرة من الطائرات يعلنون عن طيارها بالجملة التالية : « يظن بأنه أسير » . والواقع ، وبما ان الطائرات تصاب في غالب الأحيان أثناء الانقضاض ، فإن الطيارين يتحطمون معها بصورة عامة ، فيصبحون أسرى للموت فقط ...

في ١٧ أبريل (نيسان) ، كنا نستعد لرؤية مشاهد من فيلم — **أحد جميل في هانوي** — عندما هزت انفجارات عنيفة مباغتة زجاج الفندق الذي كنا ننزل فيه . ثم ساد الجو أزيز لا يصدق ينبعث عن الطائرات النفاثة . وكنا معتادين على سماع مثل هذا الأزيز

في المقاطعات ، لا في العاصمة ذاتها . وخلال بضع ثوان ظهرت فتيات شابات تحملن شارات ساعد حمراً في غرفتنا لإغلاق مصاريع النوافذ ، ولمحاولة إقناعنا بالنزول إلى الملاجىء . وكانت هذه الغارة هي الغارة الأولى التي تمت على ضواحي المدينة ، دون ان يسبقها إنذار ، بل كانت الانفجارات ، وأصوات طلقات المدفعية المضادة للطائرات هي الإنذار .

وراقبت المارة . كانوا يركضون ويتعجلون أمرهم . وكانت الأمهات تحملن أولادهن على ايديهن . ولكن لم يكن هناك فزع أو فوضى ، حيث لم أسمع أية صرخة . واختفى الناس كلهم في لمحة عين . وهرع بعض المتخلفين من جماعات الدفاع الذاتي إلى بطارياتهم ورفع العلم الأحمر على مصرف مجاور كإشارة للخطر . ولاحظت على السقوف المحيطة بالفندق رصاداً يقفون إلى جانب المدافع المضادة للطائرات وهم يوجهون مناظيرهم نحو السماء .

وقد حدث كل هذا كالمعتاد في بضع ثوان . وسقطت القنابل في ضاحية هانوي على مقربة من معهد زراعي . وقتلت صواريخ الطائرات بنتين صغيرتين ، كانتا تلعبان فوق كومة من الرمال . ولم يتوصل الطيارون الذين ضايقتهم النيران الكثيفة التي نفثتها المدفعية المضادة للطائرات من بلوغ أهدافهم . بينما وقفت هانوي مستعدة لمواجهة هذه الغـارة .

ومن المعروف أن العاصمة كانت قد أُخليت من جزء كبير من سكانها خلال عام ١٩٦٥ . ولكن عدم وقوع أي قصف وعدم تعرضها لأية غارة جعل سكانها يعودون إليها تدريجياً في مطلع عام ١٩٦٦ ، لينزحوا عنها من جديد بعد هذه الغارة التي تمت يوم الأحد .

وقبل ثلاثة أيام ، كانت القاذفات قد استهدفت الطريق الرئيسي لنام دينه . وتعتبر نام دينه مركزاً هاماً من مراكز صناعة النسيج . وقد أوقعت هذه الغارة خسائر قدرت بأكثر من مائة قتيل ومئات من الجرحى . وهكذا انخفض عدد سكان نام دينه من ٩٥,٠٠٠ إلى ٣٥,٠٠٠ بعد الهجوم الأول . ولكن السكان يميلون إلى العودة ، حيث يدفعهم الحنين إلى دورهم . ولهذا السبب فإن غارة ١٤ ابريل (نيسان) أوقعت عدداً كبيراً من الضحايا .

وفي الوقت الذي كانت تتم فيه الغارة على ضواحي هانوي ، قصفت مدينة فولي الواقعة على ٧٥ كم الى الجنوب الغربي من العاصمة . وبعد عدة أيام جاء دور ضواحي هايفونغ التي قصفت بدورها أيضاً .

وقد اجتاز الأمريكيون خطوة جديدة في عملية التصعيد . ففي ٢٤ أبريل (نيسان) هوجمت فات ديبم بصورة مفاجئة . وهي مركز من المراكز الكاثوليكية في فيتنام الشمالية ، وكانت الساعة السادسة مساء ، وكان المصلون يخرجون من الكنائس. ووصلت القاذفات من البحر على ارتفاع منخفض ، وأحدثت أضراراً بالغة ، حيث دُمرت إحدى الكنائس تدميراً تاماً . وقُتل معظم الذين سارعوا للخروج منها . وكان جلهم من النساء والأطفال . وكانت فات ديبم معروفة لثلاثة أسباب : أولاً ، لأنها مرفأ كبير من مرافىء الصيد . وثانياً لأنها تضم أكبر كاتدرائية في فيتنام الشمالية ، وأخيراً لأن فيها كثيراً من الصناع المختصين بصناعة السلال وحصر الخيزران . وقد ذهبت إليها عدة مرات في عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٧ . وعدت إليها في نهاية فبراير (شباط) ١٩٦٦ ، إنها إحدى القرى الفيتنامية التي عرفت الكثير من التبدلات الجذرية . فقد بنيت فيها بيوت جديدة من القرميد ، وشيدت فوق نهرها الذي يجري موازياً للطريق الرئيسي جسور عديدة : وحينما وصلت الى هذه القرية ، وجدت الكثير من الأصدقاء القدامى يأتون لملاقاتي ويطلعونني على التحسن الكبير الذي طرأ على حياتهم ، حيث صار الصيد أفضل من ذي قبل ، كما أصبحت المواد الصناعية تباع بصورة افضل . وفي الوقت نفسه ، أضحى أولادهم يذهبون إلى المدارس . وأخيراً فإن المفاجأة التي أدهشتني هي ذلك التحسن الملموس في أسطول الصيد .

هذه المدينة الجميلة الرائعة قد تحولت هذه الأيام إلى خرائب . فهي لا تملك الآن إلا شارعاً هاماً وحيدا ، على حين كانت في آخر زيارة لي نظيفة إلى حد بعيد ، ترقص بهجة بحصرها وسلالها الحية الالوان . إلا أن هذا كله قد تبدل ، حينما عملت الطائرات بها قصفاً وتدميراً ، فأفرغت قنابلها وأشرطة رشاشاتها فوقها .

ولقد لاحظت أن الأمريكيين ركزوا خلال أيام القصف جهدهم التدميري على مراكب الصيد . وكانت البلاغات تعلن بانتظام عن تدمير المئات من مراكب الصيد المشهورة التي تشكل جزءاً من « قوافل التموين » . ويبدو أن الأمريكيين وجهوا طلقة الخلاص الأخيرة إلى رأس البلدة في يوم السبت الموافق ٧ مايو (مايس) حينما أعلنوا : إن « **ثلاث موجات من الطائرات هاجمت قلعة فات ديبم البحرية** » . يا للسخرية ... قاعدة بحرية ! لا بد أن هذا البيان المتعلق بالقاعدة البحرية قد أدهش أولئك السكان الذين ما زالوا على قيد الحياة . أية قاعدة بحرية تلك التي لا تعدو أن تكون مرفأ صغيراً يؤوي على شواطئه مراكب صيد صغيرة ... وصرح البيان الأمريكي فيما بعد قائلاً : « **تم**

تدمير سبعة عشر مركباً ، وأحرقت ثمانية مراكب . وسمع دوي انفجارين وشوهدت آثارهما » .

ولاحظت أثناء تجوالي شيئاً هاماً ، وهو أن موجة الهجمات التي شنت في منتصف أبريل (نيسان) ضد مراكز المدن الجنوبية قد حدثت في الوقت الذي استعمل فيه الأمريكيون قاذفات الـ ب ـ ٥٢ ضد الشمال . ويبدو أن موجة الهجوم هذه تشكل تطبيقاً عملياً لآخر نظرية صممها المقر العام للجنرال ويستمورلاند في سايغون ، تلك النظرية التي تقول : **لا يمكن ربح الحرب في الجنوب إلا « بتحطيم الشمال »** . وعلى هذا الأساس فقد استمرت أعمال القصف خلال شهر مايو (مايس) . وقد قصفت قرية كوينه لاك التي نقل إليها مرضى الجذام الذين دمر مستشفاهم في عام ١٩٦٥ . وضربت هذه القرية برصاص رشاشات الطائرات ، وقتل ثلاثون مريضاً من مرضى الجذام ، وجرح أربعة وثلاثون . ثم هوجمت مراكز الصناعة الخفيفة في ين باي وفييت تري في مايو (مايس) ويونيه (حزيران) . وحدثت في ٢٩ يونيه (حزيران) الغارات الجوية ضد مستودعات المحروقات في هانوي وهايفونج . وشكلت هذه الغارات حلقة جديدة من سلسلة التصعيد .

وقد تجاهل الأمريكيون الإنذارات الفيتنامية الموجهة إليهم ، والتي تهدد بمحاكمة الطيارين الامريكيين الموجودين في قبضة فيتنام كمجرمي حرب . وكان أول هذه الإنذارات موجهاً ضمن جواب بعثت به جمهورية فيتنام الديمقراطيةرداً على نداء من الصليب الأحمر الدولي ، يدعو فيه الطرفين إلى احترام اتفاقية جنيف . وقد نشر هذا الرد في ٢٧ سبتمبر (إيلول) ١٩٦٥ . ويذكر الرد بأن جمهورية فيتنام الديمقراطية ، مثلها مثل الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية الأخرى قد احتفظت لنفسها ، عندما وقعت الاتفاقية ، بحرية عدم تطبيقها على الأشخاص الذين يرتكبون جرائم حرب ، طبقاً للمبادىء التي قبلتها محكمة نورمبورغ الدولية . وقد صرح الفيتناميون بأن الطيارين الأمريكيين سيحاكمون كمجرمي حرب . وتعترف المادة ٩٩ من اتفاقية جنيف بهذا الحق بشكل واضح **« لا يمكن الحكم على أي أسير حرب بسبب عمل لا تمنعه قوانين البلد الذي قام بأسره ، أو لا يمنعه الحق الدولي المطبق في الوقت الذي ارتكب فيه هذا العمل »** .

وقد تكرر هذا الإنذار خلال الحديث الصحفي الذي أخذته من رئيس المحكمة العليا لفيتنام الشمالية . ذلك الحديث الذي أُعيد نقله ابتداء من مايو (مايس) ١٩٦٦ ، من قبل محطات التليفزيون في العالم كله ، بما فيها قناة (A. B. C) في الولايات المتحدة الأمريكية .

وقد تجاهلت الحكومة الامريكية هذه الانذارات . وأمعنت في هذا التجاهل ، حتى بعد صرخات الاحتجاج القليلة والضعيفة التي ارتفعت في كل مكان بعد قصف هانوي وهايفونج . وأدلت شخصيات البيت الابيض الكبرى ، بدءاً من الرئيس جونسون نفسه ، بتصريحات مرعبة عن نية الفيتناميين بمحاكمة الطيارين . وربما كان الغرض من هذه التصريحات هو تحويل الانتباه واعداد الرأي العام بصورة غير مباشرة كي يتقبل عملية تدمير هانوي وهايفونغ فيما لو حوكم الطيارون . وامعاناً في عملية التصعيد ، بدأ الامريكيون يتهمون جمهورية فيتنام الديمقراطية بخرق شروط اتفاقية جنيف حول معاملة الأسرى . ويبدو أن الامريكيين قد واجهوا هذه المشكلة المفتعلة تحت شعار المثل القائل : « **إن القوة تعلو على الحق** » . ويبدو أيضاً أنهم يستندون خلال مواجهتهم هذه المشكلة على شعارات تقول بأن هناك قانوناً للأغنياء وقانوناً آخر للفقراء ، وقانوناً للبيض ، وقانوناً آخر للملونين . انهم يطالبون بأن يتمتع مواطنوهم بمعاملة مختلفة عن المعاملة البربرية المتوحشة التي يطبقونها على أعضاء جيش التحرير ، الأسرى في فيتنام الجنوبية .

ان بعض الطيارين الذين شاركوا بالغارات ضد المستشفيات والمدارس والمصحات والاهداف الاخرى ذات الطابع المدني البحت ، موجودون الآن بين يدي الفيتناميين الشماليين . وهناك اتهامات معدة بصورة قانونية ودقيقة ضدهم . وتتضمن مصنفاتهم التاريخ الذي أُسقطوا فيه ، ونموذج ورقم كلٍ من طائراتهم ، مقرونة باسم الطيار الأسير الذي عيان كان يقودها ، ويفرغ قنابلها ، ويضغط على زناد رشاشاتها . وهناك شهود من الجرحى أو من عائلات القتلى مستعدون لتزويد المحاكم بالأدلة الضرورية .

ان حكومة فيتنام الشمالية تعتبر أن الطيارين الامريكيين لا يمكن أن يستفيدوا من اتفاقية جنيف الصادرة في ١٢ أغسطس (آب) ١٩٤٩ ، والتي تشترط في مادتها الثانية ما يلي : « تطبق الاتفاقية الحالية في حالة حرب معلنة ، أو أي نزاع مسلح بين طرفين أو أكثر من الاطراف العليا الموقعة على هذه الاتفاقية ، حتى عندما لا يعترف أحد الاطراف **بحالة الحرب** » .

ان الحرب الفيتنامية التي تهمنا لا يعترف بها أحد في العالم ، حتى ولا الطرفان المتحاربان نفساهما . وتعتبر فيتنام الشمالية نفسها ضحية هجمات جوية يقوم بها قراصنة ، شبيهة بالهجمات التي كانت تقع في عصر القرصنة المنظمة . وفي عام ١٩٦٥ ، وبعد وقت طويل من بدء ارسال المقاتلين الامريكيين الى جنوب فيتنام أعطت القيادة العسكرية الامريكية العليا أوامر تمنع تسمية أي مقاتل أمريكي اختفى خلال المعارك باسم (اسير

حرب) . وقد فسر نيل سيحان مراسل النيويورك تايمز في سايغون في عدد ٣٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٦٥ من هذه الصحيفة (الطبعة الدولية) ، أوامر القيادة العسكرية الامريكية بما يلي : « **بما أنه لم يكن هناك إعلان بالحرب ، فإن هؤلاء الجنود الذين نعرف عن يقين بأنهم أسرى لا يمكن أن يسموا إلا باسم مفقودين** » .

ويرثي جيمس رستون في النيويورك تايمز ، يوم ١٤ يوليه (تموز) ١٩٦٦ لحال أولئك الطيارين الامريكيين « **الذين يقادون وأقدامهم وأيديهم مغلولة ، عبر جماعات معادية ، وهم عاجزون تحت تهديد البنادق** » . ويهنىء الشعب الامريكي **لأنه بقي هادئاً بالرغم من قلقه على أبنائه** » ثم يصرح « **إن قوانين الحرب تمنع العقوبات التي يطبقها العالم الشيوعي** ... » . ويبدو أن هذا التصريح يؤكد كغيره من التصريحات الغاضبة ، بأن العنصرية ليست غريبة عن هذه المشكلة . وقد نشرت الصحافة الامريكية في شهر يناير (كانون ثاني) (le National Gu Aroian عدد ٢٢ مثلاً) صوراً تظهر رجالاً « يشتبه بأنهم من رجال العصابات » يتقدمون في صف تحت تهديد البنادق الامريكية . وقد ربطوا الواحد الى الآخر بحبال ذات عقد واسعة ، وضعت حول اعناقهم ، بشكل يقضي عليهم بالاختناق لو تعثروا في مسيرهم .

ويبدو أن رستون نسي حينما كتب رثاءه هذا المقال الذي كتبه نيل سيحان في سايغون تحت عنوان : « **فيتنام : الشراسة باقية** » . (النيويورك تايمز في ٣٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٦٥) .... **وتجد الولايات المتحدة نفسها في موقف دقيق . فمن جهة ، يطالب الأمريكيون أن يعامل أسراهم معاملة إنسانية ، ومن جهة أخرى يرفضون أن يؤمنوا معاملة مماثلة لأسرى الفييت كونغ ، فبعد أن يخضع أسرى الفييتكونغ إلى استجواب أمريكي أولي ، يسلمون إلى السلطات الفيتنامية الجنوبية ، التي تخضعهم لكثير من أعمال التعذيب الشرسة ، تلك السلطات التي تعتبر رجال العصابات كمتمردين وخونة وقعوا تحت رحمة حراسهم . ويقوم الجيش ، والبوليس ، والمنظمات شبه العسكرية ، والميليشيا ، والحرس الوطني ، بتنويع أسباب التعذيب الوحشي ، والامتهان الإنساني لأولئك الأسرى الذين اعتبروا متمردين . وفي وسط هذا التنكيل الوحشي يقتل فريق منهم رمياً بالرصاص ، بينما يواجه فريق آخر أنواع الضرب والتعذيب .**

وتشتمل طريقة التعذيب المفضلة لدى القطعات الحكومية على ضرب الأسير ضرباً مبرحاً ، وجره وراء سيارة ، وإخضاعه لتيارات كهربائية تسري في الأجزاء الحساسة من جسمه أو إغلاق فمه لإجباره على التنفس من أنفه بعد أن يصبوا له في فتحتي أنفه ماء

يحتوي على الفلفل الأحمر ...... »

ولو أردت الافاضة بهذا الحديث لامكنني أن اضيف الى لائحة التعذيب هذه لائحة أخرى ، كاملة جداً ، تشتمل على اعمال التعذيب البربرية التي تعرض لها مواطنون تحدثت معهم ، وحملوا على اجسامهم أدلة دامغة تؤيد هذه الاقوال .

وتنطبق اتفاقية جنيف تماماً على حرب فيتنام . اذ تمنع المادة ٣ (آ) **« من ممارسة العنف ضد الأسرى ، وبخاصة ارتكاب أعمال القتل ، أو القيام بعمليــات التشويه ، أو اللجوء إلى معاملة قاسية ، أو اللجوء إلى التعذيب »** وتتحدث المادة ٤ (آ) عن الذين يعتبرون كاسرى حرب فتصفهم بأنهم : **« أعضاء القوات المسلحة لكل من الطرفين المشتبكين في النزاع ، وأعضاء الميليشيا ، أو قطعات المتطوعين الداخلة في هذه القوات »** . ومن الواضح ، طبقاً للمواد السابقة أن هذه التدابير تنطبق ايضاً على الحرب الاهلية ، كما تنطبق على النزاعات الدولية . وقد نشرت الصحافة الامريكية عدداً من الصور التي التقطها مراسلوها ، حيث نرى جنود الولايات المتحدة الامريكية وجنود حلفائها يعرضون كتل الاسرى الى تعذيب ممعن في البربرية والوحشية ، ويواجه الاسرى هذا التعذيب وايديهم موثقة خلف ظهورهم .

ومن ناحية أخرى ، نشرت الناسيونال غوارديان رسالتين كتبهما أفصح جنديين امريكيين . أما الرسالة الاولى فهي موجهة من الجندي صنف أول شارل س . هوبس من نيوآرك الى صديق له . وقد نشرت هذه الرسائل في ٩ يناير (كانون ثاني) ١٩٦٦ :

« ليس من التسلية في شيء أن تقتل رجلاً ، ومع ذلك فإني تسليت بقتل رجل. ومن المحتمل أن أتسلى بقتل رجل آخر !.... كنت من بين أولئك الذين القوا بأربعــة من رجال الفييت كونغ من طائرة هيلكوبتر تحلق على ارتفاع ٢٥٠ متراً ، لأنهــم رفضوا إعطائنا المعلومات التي كنا نحتاج اليها . وقد وجدت هذا العمل مسلياً في تلك اللحظة . ولكن عندما أعدت التفكير فيما قمت به ، بدا لي أنه كان عملاً لا إنسانياً ، بل هو عمل وحشي ممعن في الوحشية ... »

وقد نشرت رسالة أخرى في ٢٨ مايو (مايس) ١٩٦٦ . وكان كاتبها مظلياً من الكتيبة الثانية التابعة للواء ٥٠٢ المنقول جواً . وقد جاء في الرسالة ما يلي :

« بعد أن قطع أحد الجنود الأمريكيين رأس ثائر فيتنامي جريح ، هتفت من أعماقي قائلاً ! ..... وحق السماء ، لم يعد أمامي سوى تسعة وأربعين يوماً أقضيها في هذا

الجحيم . وقد أهدى المقدم هنري ايمرسون الذي كان يقودنا صندوقاً من الويسكي إلى أول جندي من رجاله يقتل واحداً من الفييت كونغ بساطور ، وتعرف الكتيبة الثانيــة الآن باسم « كتيبة الساطور ...... »

وقد ذكرت منذ قليل ان الامريكيين يلجأون الى اسلوبين عند تطبيق القوانين والاحكام الدولية . الاول منهما للاغنياء والبيض في العالم ، أما الثاني فيخصص للفقراء والملونين . ولن يحمل هذان الاسلوبان السلطات الفيتنامية في الشمال على الامتناع عن محاكمة « قراصنة الجو » الذين اعتدوا على حرمة السماء الفيتنامية . كما لن تجدي التهديدات الضمنية بتدمير هانوي وهايفونغ والمراكز الصناعية الفيتنامية كرد انتقامي . لن تجدي هذه التهديدات في تغيير موقف السلطات الفيتنامية تجاه الطيارين الامريكيين . ان زعماء فيتنام مقتنعون منذ وقت طويل بأن اي اعتبار شرعي ، اخلاقي أو انساني ، لن يمنع البنتاجون من الاستمرار في طريق تصعيد الحرب . وقد انشئت في فيتنام لجنة خاصة في منتصف عام ١٩٦٦ برئاسة وزير الصحة العامة الدكتور فان نغوك تاش . وهي مكلفة بجمع الشهادات التي تثبت جرائم الطيارين والمسؤولين في واشنطون ، وذلك لوضع هذه الشهادات في مصنفات خصصت لاثبات جرائم الحرب الامريكية التي ارتكبت ضد القرى والمدارس والمستشفيات . ومن المعروف أن هانوي ايدت فكرة برتراند راسل بانشاء محكمة لجرائم الحرب في أوروبا الغربية[1] يحاكم فيها الرئيس جونسون وشخصيات هامة أخرى في الولايات المتحدة الامريكية .

وسيكون للتهديد الفيتنامي بمحاكمة الطيارين الامريكيين نتيجة هامة ، فيكفي ان تسفر هذه المحاكمات عن اطلاع الرأي العام العالمي على الانتهاك اللاانساني الذي حققه العدوان الامريكي على فيتنام ، وعلى عدم شرعية هذا العدوان . وكانت أولى نتائج هذا التهديد اعتراف ضمني من قبل القيادة الامريكية في سايغون بأنها خرقت بصورة آثمة اتفاقية جنيف وكل قواعد السلوك المقبولة في بلاد متمدنة . وقد ظهر هذا الاعتراف حينما اعلنت هذه القيادة في ٢١ يوليه (تموز) ١٩٦٦ ان الاسرى المنتمين الى القطعات النظامية

---

(١) عقدت محكمة راسل أولى جلساتها في مدينة استكهولم خلال شهر مايو (مايس) ١٩٦٧ – راجع هكذا انتصر الفييت كونغ ص ٩٢ ، ٩٣ . تأليف ريمون نشاطي – منشورات دار الآداب .
(المعربان)

لجبهة التحرير الوطنية لن يسلموا بعد الآن الى السلطات في فيتنام الجنوبية التي تعرضهم لمعاملة وصفها سيحان بالبربرية والوحشية . ونتج عن هذا الاعـلان وضع الاسرى الفيتناميين في معسكرات امريكية اعدت لاسرى الحرب ، الا اذا القي بهم من طائرة هليكوبتر اثناء استجوابهم . ورغم ذلك ، فان القرار الامريكي لم يشمل رجال العصابات والميليشيا ، وجماعات الدفاع الذاتي الذين يتعرضون لمعاملة مخالفة لبنود اتفاقية جنيف ، كما لاحظ ذلك الصليب الاحمر الدولي .

ومما لا ريب فيه أن عدداً كبيراً من الطيارين الامريكيين لن يفلتوا من عقوبة الموت ، فيما لو طبقت القوانين التي عمل بها في محكمة نورمبورغ ، والتي حكم بموجبها على عدد من المتهمين لانهم ذبحوا المواطنين بصورة عمياء . وقد وضع مجلس التحقيق الحليف قانوناً تسير عليه محكمة نورمبورغ خلال محاكماتها ، وتنص المادة العاشرة من هذا القانون على ان تدمير المدن والقرى ، من الجرائم التي يجب أن يحاسب عليها القادة العسكريون المتهمون . وبموجب هذه المادة نفذ حكم الاعدام شنقاً بسيس انكوارت جلاد هولندا ، لأنه دمر السدود كي يحدث فيضانات ومجاعات . هذا مع العلم بأن الولايات المتحدة ، التي كانت تقصف السدود المائية في فيتنام الشمالية قد زادت بشكل واضح من حدة هذه الهجمات التدميرية في منتصف عام ١٩٦٦ .

وكان لطياري سلاح الطيران الأمريكي ، قبل صدور توجيه ٢٤ سبتمبر (إيلول) ١٩٦٥ الحق بقصف ما يدعى « بمناطق الأهداف الحرة » . ورميها بالرشاشات على هواهم وطبقاً لرغباتهم . وتشتمل هذه المناطق على أجزاء من أرض فيتنام الجنوبية التي تشرف عليها حكومة سايغون . وكان بوسع الطيارين الذين يعودون بحمولتهم من القنابل والذخائر دون استعمالها ، أن يلقوا بها دون أن يتأكدوا من حقيقة أهدافهم . ونتيجة لهذه الحرية الممنوحة للطيارين فقد تساقطت القنابل على المدارس والمنازل والقرى ، وعلى الفلاحين في حقولهم ... ويعني كل هذا أن العشرة ملايين مدني التابعين للمناطق التي تشرف عليها جبهة التحرير الوطنية يشكلون في نظر الأمريكيين « أهدافاً يسمح بالرمي عليها » وأن بوسع الطيارين الأمريكيين أن يذبحوهم إذا رغبوا بذلك . وفضلاً عن ذلك ، وعندما كانت قوات سايغون تقرر الانسحاب من بعض المخافر ، كانت المنطقة المجاورة لتلك المخافر تنقلب بصورة آلية إلى « **منطقة أهداف حرة** » . وكانت هذه المناطق تتبدل يومياً طبقاً لأهواء الحرب ، الأمر الذي يجعل القرويين يجهلون أنهم تحولو إلى « أهداف يسمح الرمي عليها » وكانت القنابل هي التي تخلصهم من هذا الجهل ! ... وكان عدد هذه

المناطق ، حسب أقوال المراسلين الغربيين مائة منطقة . ورغم كل الاحتياطات الأمريكية . فقد حدث « نتيجة للأخطاء ! ! ... » التي لا يمكن التستر عليها أن ألقى الطيارون بالنابالم الذي يحملونه ، أو بالمتفجرات على قرى تقع بصورة واضحة داخل المناطق التي تشرف عليها سايغون .

وفيما بعد ، وضع توجيه ٢٤ سبتمبر (أيلول) ، الصادر عن القيادة الأمريكية العليا حداً لهذه الممارسات العملية . إلا أنه وضع هذا الحد بالنسبة لطيران الولايات المتحدة فقط . ومما لا شك فيه أن نشر هذا التوجيه وإذاعته قد تم بسبب تكاثر « الأخطاء » وتكرارها ، ولأن القيادة الأمريكية أضحت تتسم بسمعة سيئة ، الأمر الذي جعل المسؤولين الأمريكيين يخشون أن يؤدي ذلك إلى عواقب سياسية مؤلمة في سايغون . أما طيران فيتنام الجنوبية ، الذي يتألف معظم طياريه من الأمريكيين ، فإنه ما زال يتمتع بنفس الحقوق التي كان يتمتع بها في الماضي . إن توجيه ٢٤ سبتمبر (أيلول) يساهم في خلق سياسة النعامة الأمريكية التي كانت تسلم الأسرى إلى جيش سايغون فيعذبهم ويعدمهم ، بينما تحاول النعامة الأمريكية أن تدفن رأسها في الرمال لتتبرأ من هذه الجرائم .

وقد كتبت ر. ف آبل في النيويورك تايمز في ٣٠ أوكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٥ مفسراً هذا التوجيه ما يلي : « **إن عدداً كبيراً ممن ينتقدون سياسة الولايات المتحدة ، ومن بين هؤلاء ضباط يقيمون في الفيتنام ، قد صرحوا أن من المحتمل أن تكون نتائج العمليات الجوية الأمريكية دفع كل المدنيين الفيتناميين إلى الارتماء في أحضان حركة الفييت كونغ** »

ويقدر بعض المراسلين الصحفيين في سايغون ، أن هناك خمسة مدنيين قتلى أو جرحى بسبب الغارات الجوية مقابل قتيل واحد من قوات الفييت كونغ .

ولا يستند توجيه ٢٤ سبتمبر (أيلول) أبداً إلى اعتبارات إنسانية . وهذا الأمر واضح كل الوضوح . « فمناطق الأهداف الحرة » ألغيت بالنسبة **للقوة الجوية الأمريكية**، سوى أن القاذفات ذات الثمانية محركات (ب ــ ٥٢) قد بدأت تسحق المناطق التي تشرف عليها جبهة التحرير الوطنية بصورة منهجية . ويستخدم الأمريكيون جهازاً من الأشعة تحت الحمراء يسمح بتحديد الأمكنة التي يتجمع فيها السكان والمواطنون المختفون في ملاجىء تحت الأرض . ويحدد هذا الجهاز أماكن التجمعات بفضل الحرارة المنبعثة من الجسم البشري طبقاً لتفسير الصحافة الأمريكية . ولا توضح هذه الصحافة ما إذا كان هذا النوع من الأجهزة قادراً على التمييز بين الحرارة المنبعثة من أجساد المدنيين ، والحرارة المنبعثة من أجسام رجال جبهة التحرير الوطنية . ولكن هذا كله لم يمنع صدور تقارير

أمريكية تشير إلى أنه قد تم تدمير قطعان كاملة من الجواميس .

واعترف الأمريكيون بأن الهدف من وراء القصف الذي تقوم به طائرات ب ـ ٥٢ هو إجبار أعضاء جبهة التحرير الوطنية الذين ما زالوا على قيد الحياة على التخلي عن المناطق التي يشرفون عليها ، كي يستطيع الأمريكيون جمعها فيما يسمى الآن « بالقرى الاستراتيجية » حيث يجمعون فيها تحت إشرافهم أكبر تجمعات بشرية في ضواحي المدن ، تحف بها الأسلاك الشائكة من كل جانب . وكان الأمريكيون يأملون بذلك حجز ما يقرب من مليون شخص على اعتبار أنهم « لاجئون فارون من إرهاب الفييت كونغ » . وقد نشرت مجلة نيويورك في عددها الصادر في ٣١ أوكتوبر (تشرين أول) ١٩٦٥ بقلم رولاند إيفالز وروبرت نوفاك مقالاً بعنوان : « **الغارات في فيتنام** » ، وفي هذا المقال يفسر الكاتبان النظرية العسكرية التي توجه هذه الغارات بما يلي : « **تبعاً لتعريف ماوتسي تونغ الذي أضحى الآن تعريفاً كلاسيكياً . فإن رجل العصابات المقاتل يشبه السمكة ، والبحر الذي يسبح فيه هو الشعب . وبدون هذا البحر لا تستطيع السمكة أن تسبح ....** » ..... وعرفت القوات الأمريكية أنها عاجزة عن اكتشاف السمكة ، ولهذا قررت هذه القوات تدمير البحر ذاته بانفجارات قوية ، وبالنابالم ، وبالمواد الكيميائية ! ! ...

وعندما تصعدت الحرب بهذا الأسلوب ، بدأ المواطنون في الالتجاء تحت الأرض ، بدلاً من أن يضخموا صفوف اللاجئين . فاستخدم الأمريكيون عندئذ تكتيكات جديدة ، إذ راحوا يستخدمون طائرات الهيلكوبتر الضخمة من طراز شينوك التي تنشر الغازات والمواد الكيمائية لإجبار الفيتناميين المختبئين ، تحت تأثير هذه الغازات السامة ، على الخروج من ملاجئهم . وعندئذ تبادرهم طائرات ب ـ ٥٢ بغارات الإبادة التي تقتل أكبر عدد منهم . ووفقاً لهذه الخطة ، وكما روت برقية واردة من وكالة الصحافة العالمية في ٩ مايو (مايس) ١٩٦٦ ، أسقطت طائرات الهيلكوبتر اثنى عشر طناً من الغازات على جزء من مقاطعة تاي نينه خلال الأسبوع الذي انتهى يوم ٨ مايو (مايس) . وقامت طائرات ب ـ ٥٢ في الوقت نفسه تقريباً بإحدى عشرة غارة على المنطقة ذاتها . ولقد استطاع الكامبودجيون أن يطلعوا على ما حدث للفيتناميين ، لأن بعض القرى المهاجمة تقع على مقربة من حدود كامبودجيا .

واتخذ استخدام المواد الكيميائية في عام ١٩٦٦ دوراً جدياً إلى حد كبير . فقد استخدمت هذه المواد للقضاء على المحاصيل والمواشي . ووفقاً للتقارير التي وضعتها جبهة التحرير الوطنية لمقاطعة بن تري ، فقد قام الأمريكيون بغارات يومية على دلتا نهر الميكونغ .

بين ١ يونيه (حزيران) و ٢ يوليه (تموز) ١٩٦٦ ، وقالت تقارير جبهة التحرير الوطنية في وصف هذه الغارات ما يلي : « **نشرت الطائرات كميات هائلة من المواد الكيماوية التي لا تعدو أن تكون نوعاً من المساحيق، والمحاليل المختلفة الألوان بيضاً ، وسوداً ، وخضراً ، وصفراً ، ورمادية .... وطبقاً للتقارير الأولى فأن ٦,٥٠٠ مواطناً من مواطني نواحي باتري وتانه فو وغوانغ تروم أصيبوا إصابات بالغة بهذه السموم وهلكت عشرات الألوف من رؤوس الماشية، و ٢,٣٠٠ هكتاراً من أشجار جوز الهند ، كما اندثرت مزروعات أخرى .... ثم قام الأمريكيون فيما بعد بحرق المناطق التي أتلفتها المواد السامة ، بواسطة قنابل النابالم والقذائف الفوسفورية . وقد فعل المواطنون الفيتناميون كل ما بوسعهم لإعادة زرع الأشجار. إلا أن الأمريكيين رشوها مرة أخرى بالموادالكيمائية كي يدمروها ....** » وختم تقرير جبهة التحرير كلامه قائلاً :

« **لقد فقدت مقاطعتنا هذا العام أكثر من ثلثي محصولها من الفواكه . وتم إتلاف جزء من محاصيل الفاصولياء والبطاطا الحلوة والبندورة ...** »

ويشرح هذا التقرير العمليات التي تمت فيما بين ٧و٣١ ديسمبر (كانون أول) ، وهي الفترة التي أتلف فيها ٣٠,٠٠٠ هكتاراً من الأرز ، ونضج فيها ٣٠ ٪ من المحصول دون أن يحمل السنابل .

إن مقاطعة بن تري هي إحدى أخصب مقاطعات دلتا نهر الميكونغ الغني . وتشبه هذه الدلتا حديقة خضراء . وهي مملوءة ببساتين الفواكه وحقول الأرز . وتحاط القرى المنتشرة فيها بأشجار جوز الهند . وتفصل الحدائق ما بين القرى ، وتزرع فيها أيضاً أشجار الليمون والمانغو . وتتألف هذه المقاطعة من ثلاث جزر مفصولة عن بعضها بفروع النهر الذي تتجه تعرجاته باتجاه البحر . وهناك قسم كبير منها قد أفلت من إشراف سايغون . إلا أن كل ما يقع تحت إشراف حكومة الجنوب ينبغي أن يدمر . ذلك هو الهدف من استخدام الطيران ، الذي يشكل استخدامه جريمة حقيقية تبعاً للقوانين الدولية .

إن الزعماء الأمريكيين مسؤولون عن هذه الأعمال . فالرئيس الأمريكي جونسون يقول : « إن من الوحشية ومن البربرية إحالة قبضة من الطيارين الأمريكيين إلى المحاكمة ». ويقف الرئيس الأمريكي عاجزاً عن إيجاد نعوت يصف بها فتك الطيران الأمريكي بعشرات الألوف من الفيتناميين . ويفرض علينا الواجب في هذه المناسبة أن نهنىء الشعب الفيتنامي لحسه الانضباطي ، ولدرجة تمدنه العالية . فهؤلاء الفيتناميون يعاملون أسراهم

بصورة إنسانية برغم كل ما يفعله الأمريكيون في الجنوب والشمال . حقاً — إن المقاتلين الفيتناميين يشعرون بأن لهم ديوناً كثيرة لا بد من تصفيتها مع القراصنة الجويين ، ولكنهم ، رغم هذا الشعور لا يقومون بتصفية الديون بأيديهم ، بل يتركون ذلك لممثلي القانون ... ومن ناحية ثانية ، فإننا لا نستطيع أن نلوم الفيتناميين حينما نرى صدورهم قد أوغرت من تدخلات رؤساء بعض الدول ، الذين يطلبون منهم بكلمات كاذبة ومنافقة احترام الكرامة الإنسانية للأسرى من الأمريكيين . مع أن هؤلاء الرؤساء لم يوجهوا كلمة لوم واحدة للوحشية التي لا حدود لها ، والتي تتسم بها هذه الغارات الأمريكية على شعوب لا تملك أي دفاع عن نفسها . وكذلك فإن رؤساء هذه الدول لا يبدون أية شفقة على ضحايا هذه الغارات ، بل يلتزمون الصمت المطلق . وينبغي أن نستثني هنا الجنرال ديغول الذي وصف الهجمات الجوية ضد فيتنام الشمالية في مؤتمره الصحفي بتاريخ ٢٧ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٦ بأنها « قبيحة جداً » — . ولا يخفى على الشعب الفيتنامي ولا على شعوب آسيا بصورة عامة ما يحمله هذا الصمت من طابع عنصري قبيح . إن شعوب آسيا لن تنسى أبداً أن النابالم والقنبلة الذرية قد جربت لأول مرة على أرضها وضد أبنائها .

الفصل الخامس

مدارس تحت القنابل

من المألوف في المناطق الساحلية الفيتنامية أن يرى المرء ، من مسافة بعيدة مواكب تشبه الديدان المضيئة ، وهي تتلوى على طول الطرق والدروب . وعندما يقترب الإنسان منها ، يكتشف أنها مواكب أطفال يحملون مصابيح بترولية صغيرة ، ويتأبطون كتبهم المدرسية . ويسيرون ، وعلى ظهورهم أغصان النباتات ، وهم مستعدون للانبطاح في حقول الذرة والبطاطا ، أو للجثو في أقرب حفرة تحاشياً لقنابل الطائرات الأمريكية . ففي وسط هذا الجو العاصف بالغارات ، لابد من استمرار التعليم تحت وابل من القنابل . إن هذا القانون هو أحد قوانين فيتنام .

« – ولكن كيف يمكن تنفيذ هذا القانون ، إذا كانت أمريكا قد دمرت مائة وسبعين مدرسة ، ومؤسسة ابتدائية أو ثانوية بقنابل الطائرات ..؟ وكيف يمكن ضمان استمرار التعليم إذا كان مئات من الطلبة والأساتذة قد قتلوا .. ؟ وإذا كانت كل المدارس الزراعية قد أخليت تماماً ، وأجلي أبناء المدن عن مدنهم ..؟ »

بهذا الأسلوب شرح لي نغوين فان هوين وزير التربية الوطنية مشكلة التعليم في فيتنام . ونغوين فان هوين رجل وديع هادىء في الحالات الاعتيادية ، غير أن المشكلات المعقدة التي يواجهها والتي تحتاج إلى حل سريع جعلته يبدو كثير الحركة .

واستطرد الوزير يقول : **« – بالإضافة إلى ما قلته لك ، ينبغي أن تتذكر أن عدد**

تلاميذنا هو ٢,٩٠٠,٠٠٠ تلميذاً ، أي بزيادة ٣٠٠,٠٠٠ تلميذاً عن العام السابق . فهل تتصور مدى ما يحتاجه هذا العدد من تدابير لحماية الطلاب والمدرسين ... ؟ .

« – وكيف تدبرتم أمركم إذن ... ؟

« – لقد نقلنا كل مدارس المرحلة الأولى (الابتدائية) إلى مقر الجمعيات التعاونية الزراعية [1] . وكان لدينا قبل الغارات الجوية الأمريكية مدرسة حديثة في كل قرية[2] . إلا أننا اضطررنا بسبب أعمال القصف الجوي إلى نقل التلاميذ منها . أما الآن فلن ينتقلوا من الأمكنة الريفية التي يدرسون فيها . فقاعات الدراسة متباعدة فيها عن بعضها البعض بضع مئات من الأمتار . وكانت مدارس المرحلة الثانية (الإعدادية) موجودة في مراكز الأقسام ، إلا أنها نُقلت الآن إلى مختلف القرى . وقد اضطررنا إلى تجزئة هذه المدارس وقلبها إلى وحدات أصغر مما كانت عليه . وفي كثير من المقاطعات هناك الآن مدرسة في كل قرية . وقد اتخذت كل هذه التدابير لحماية تلاميذنا من آثار القصف الجوي .

أما أطفال المرحلة الثالثة ، الأكبر سناً ، فبوسعهم الآن أن يؤمنوا حماية أنفسهم بأنفسهم . ورغم كل ذلك ، فقد جزأنا مدارس المقاطعات أيضاً إلى مدارس أقسام .

وبذلنا أقصى جهدنا كي تكون مراكز التعليم قريبة من مساكن التلاميذ . وتخلينا تماماً عن المباني ذات الأدوار الثلاثة . ويوجد الآن في كل قاعة درس خنادق تبدأ عند أسفل المناضد . وتؤدي هذه الخنادق إلى ملاجىء واقعة تحت الأرض الخالية ، أو بعيداً عن المساكن على الأقل . ويثق أقرباء التلاميذ بهذه التدابير الوقائية ، ولهذا زاد عدد تلاميذ المدارس في هذا العام . »

وهكذا نرى أن من واجب الوزير نغوين فان هوين أن يواجه معضلات خطيرة جداً . وتشكل قراراته لوحدها في هذا المجال الرد على الشكوك التي يثيرها بعض أصحاب النوايا السيئة في حقيقة تدمير المدارس والأهداف اللاعسكرية الأخرى في فيتنام . إن تطور الوضع المدرسي ، بين عشية وضحاها ، وارتفاع عدد الطلاب إلى ما يقارب الثلاثة ملايين

---

(١) يقسم « التعليم العام » في فيتنام الشمالية إلى ثلاث مراحل : من العاشر حتى الثامن ومن السابع حتى الخامس ، ومن الرابع حتى الصف الأول المؤلف

(٢) تتألف القرى الفيتنامية من ثلاث إلى خمس مزارع . والتعاونيات الزراعية الآن منظمة على مستوى هذه المزارع ، إلا في بعض حالات نادرة جداً ، كما في كسوان تانه (أنظر الفصل الثاني) وتضم المزارع بصورة عامة من ٢٠٠ إلى ٤٠٠ عائلة . (المؤلف)

تلميذاً ، قد سبب دون أدنى شك صداعاً للعديد من الشخصيات الفيتنامية لا لوزير التربية والتعليم وحده .

« ـ ما هي الصعوبات الأساسية التي تواجهونها .. ؟

« ـ هناك ثلاث صعوبات . أولاً ، الأبنية . فقد تخلينا عن المباني القرميدية المؤلفة من ثلاثة أدوار ، والتي بنيناها بعد انتهاء الحرب . وليس بوسعنا الآن إقامة مبان جديدة حتى ولو كانت من البامبو ، إلا في بعض حالات معينة . وفي واقع الأمر ، تجذب الأبنية الجديدة قاذفات القنابل الأمريكية . إذن فلا مصلحة لنا الآن في تعديل المنظر العام لقرانا . ولذلك فنحن نبني ، تحت الأشجار ، قاعات للدراسة تشبه أكواخ الشجر التي يعيش فيها الفلاحون . ومن المستحيل إقامة أبنية معقدة واسعة ، لأن الأمريكيين سيدمرونها كما دمروا المباني الأخرى . »

« ـ وكيف توصلتم أيضاً لحل هذه المشكلة .. ؟ »

« ـ بالإضافة إلى بناء بعض قاعات للدراسة ، تحت الأشجار ، مشابهة لأكواخ الفلاحين ، فإننا نعتمد على أقرباء التلاميذ ليضعوا بيوتهم تحت تصرفنا . فتعيش العائلة في المطبخ طيلة جزء من النهار أو الليل ، أو تجتمع عائلتان في كوخ واحد ، أو تجتمع ثلاث عائلات في بيتين .. ليخلوا لنا في دورهم مكاناً نستطيع بواسطته تأمين التعليم لأولادهم . وبالنسبة للآباء والأقرباء تعتبر هذه المسألة مسألة شرف قومي ، ومسألة وطنية . فهم يريدون أن يتابع أولادهم تعليمهم ، رغم الغارات الجوية . ونحن لا نبني في الوقت الحاضر إلا قاعات منعزلة للصفوف المدرسية . وتملك المزارع الأصغر قاعة أو قاعتين للدراسة .

وهكذا ترى أن أبنية المدارس في فيتنام تعتبر مشكلة أساسية ومهمة . ولا تقل عنها أهمية مشكلة المعلمين . والواقع ، كلما كانت الصفوف صغيرة ومتعددة ، كلما ازداد احتياجنا إلى المعلمين . وفي بعض المجموعات ، تضاعف عدد المعلمين بسرعة كبيرة . فصفوف المرحلة الأولى والثانية التي كانت تستوعب في الماضي من أربعين الى خمسين تلميذاً ، وصلت الآن إلى عشرين أو خمسة وعشرين صفاً تضم أعداداً من الطلاب أكبر من الماضي بكثير .

وقد انتهت حملة مكافحة الأمية في عام ١٩٥٨ . ففتحنا دورات تكميلية للذين تجاوزوا السن المدرسي . وكانت مهمة هذه الدورات تعليم البالغين وتوجيههم . ويـــتم

تنفيذ هذه المهمة في المساء ، أو أثناء النهار خلال أوقات الراحة . وهناك الآن شباب في كل القرى أتموا سنوات تعليمهم العام ، وأخذوا يعملون في التعاونيات : فها أنت ترى أننا وجدنا لهم عملاً أيضاً .

إن هؤلاء الشباب الذين أتموا تعليمهم العام هم الذين يشكلون أساس جهاز التدريس في مدارس المرحلة الأولى والثانية . وقد أعددنا في ستة أشهر آلافاً من المدرسين الآخرين ورغم ذلك قد نحتاج إلى ١٣,٠٠٠ مدرساً أيضاً . فكل مدرس يعلم صفين يومياً باستثناء المناطق التي تكثر فيها الغارات الجوية . ففي هذه المناطق يتم التدريس ليلاً . ولقد بلغ عدد المدارس التي يدرس المعلمون فيها صفاً في الصباح ، وصفاً آخر بعد الظهر ١٠,٠٠٠ مدرسة تقريباً .

ومشكلتنا الثالثة الكبرى هي إخلاء المدارس . إن قصف هيونغ فوك في مقاطعة هاتينه يوم ٩ فبراير (شباط) من هذا العام شكل إنذاراً جدياً . فقد قتل ٣٣ تلميذاً ، وسقط ٢٤ جريحاً ، الأمر الذي دفعنا فوراً إلى الإسراع في إخلاء المؤسسات المدرسية في المدن. ورغم هذه المتاعب الكثيرة ، فإننا حققنا جهداً ضخماً في البناء أثناء السنوات العشر الأخيرة . سوى أننا لم نستطع بناء الكثير من المساكن وتحسين الرفاه العام . حقاً ، لقد ارتفع مستوى الحياة . إلا أننا لا نملك حتى الآن إلا عدداً قليلاً من المنازل الحديثة في الريف . ومن ناحية أخرى ، فإننا بنينا مصانع ومدارس . إلا أن هذا لا يمنع من وجود أكواخ للفلاحين على أبواب هانوي . ولا تزال هذه الأكواخ حتى الآن محرومة من الكهرباء والمياه الجارية . ونتيجة لهذا كله وجدنا أن نزوح الأطفال عن المدن إلى الضواحي لا يشكل أية فائدة . ولهذا طلبنا من آباء الأطفال أن يبعثوا بهم إلى موطنهم الأصلي في الريف ، حيث يوجد لكل سكان المدن ، أو لأكثرهم أقرباء فيه . وحينما نفذ الآباء هذا الطلب ، تم اختلاط أبناء المدن برفاقهم من أبناء الفلاحين . وتجنبنا بذلك فتح مدارس خاصة لأبناء المدن . وتسهر التنظيمات المحلية بعيون يقظى ، حتى لا يشكل هذا التزايد في عدد سكان مناطقهم عبئاً ثقيلاً جداً تنوء المنطقة بحمله .

وقد كانت عملية الإخلاء هذه عملية شاملة ، وبخاصة عملية إخلاء تلاميذ المرحلتين الأولين . وقد حدثت بعض الاستثناءات مولتها الإدارات التي يعمل فيها آباء بعض التلاميذ . وبوسع تلاميذ المرحلة الثالثة (الثانوية) الذين هم أكبر سناً من تلاميذ المرحلتين السابقتين أن يتدبروا أمورهم لوحدهم . فعندما ينتقلون إلى القرى ، فإنهم يعدون وجبات طعامهم بأنفسهم . ويتوصلون في النهاية إلى اكتساب نوع من الاستقلال الذاتي. ويقومون

ببعض الأعمال في التعاونيات أو مشاريع الدولة ، الأمر الذي يسمح لهم بربح بعض المال والمساهمة بتأمين مصروفاتهم . أما ما تبقى فيقع على عاتق الدولة » .

ثم أعطاني الوزير فيما بعد معلومات تكميلية عن الطريقة التي تمت بواسطتها عملية الإخلاء لأن تفريق أعضاء العائلة الواحدة عندما يتم إخلاء بعض أفرادها يطرح معضلات عاطفية ، ويثير مشاكل ذات صبغة مادية . إذ تزداد ميزانية العائلة الواحدة عندما تُفرق إلى عدة جماعات تعيش كل جماعة منها في جهة معينة . ويتقاسم أطفال العائلة الواحدة الأسرة ، والناموسيات ، والأغطية وزجاجات حفظ الماء المثلج (الترموس) ... وتنطبق نفس هذه الملاحظة على النفقات الغذائية. ومن واجب الوزارة « **أن تهتم بهذه التفاصيل وأن تسهر على تأمين حياة معقولة وإنسانية لكل تلميذ** » .

ولا بد لي من القول ، إن كل شيء يبدو أمام العيون الأجنبية ، وكأنه حدث بصورة جيدة . لقد كرست جزءاً كبيراً من وقتي لزيارة القرى والتعاونيات . وزرت عدداً من المدارس الجديدة التي أقيمت في مناطق الفلاحين ، تلك التي يرتادها اليوم الأطفال الصغار الوافدون من المدن . وتحدثت مع رجال من هانوي نقل أولادهم إلى المدارس المقامة في القرى ، فظهر لي أن العملية قد تمت بصورة جيدة كما قلت من قبل . وقد كشفت للوزير نغوين فان هوين عن انطباعات الإعجاب التي استقرت في نفسي نتيجة لتقبل الفيتناميين لعملية الترحيل هذه ، فأجابني الوزير قائلاً :

« لا تنتظر أن يعرض الناس هنا شكاويهم ومظالمهم للأجانب . إننا نعرف صعوباتهم ، إلا أننا نحاول أن نبقى أهلاً لثقتهم ، كي يستمر تأثيرنا عليهم . فالحكومة تفعل كل ما باستطاعتها أن تفعله » .

وقد التقيت في هانوي بالأمهات اللواتي تذهبن إلى الريف لرؤية أولادهن مرة أو مرتين في الشهر . إنهن راضيات عن حالة أولادهن الصحية ، وعن السرعة التي تأقلموا بها مع الحياة الريفية .

وقد قال لي نغوين فان هوين :

« إن هناك أولاداً ، في كل أنحاء العالم ، يتوقون إلى الحياة في الريف ، ويحلمون بالذهاب إلى القرى لحراسة البقر والأوز . والأمر عندنا كما هو في العالم كله » .

واستطرد الوزير يقول :

« إن من الواجب أن نتوصل إلى زيادة الإنتاج الزراعي بيد عاملة قليلة . وعلى

الأطفال أن يساعدونا في الوصول إلى ذلك . فإذا لم يتكفل ثلاثة ملايين تلميذاً من أبنائنا بجزء من مهامنا ، فإنهم يشكلون عندئذ عبئاً كبيراً علينا . وبالإضافة إلى ذلك ، سيكون ذلك مخالفاً لمبدأ من مبادىء التعليم الأساسية عندنا ، هذا المبدأ الذي يربط ربطاً وثيقاً بين المدرسة والحياة ، وبين التعليم والعمل . بيد أن ظروفنا الحالية ساعدتنا على تطبيق هذا المبدأ الأساسي من مبادىء التعليم عندنا . فإخلاء عدد كبير من التلاميذ ومعلميهم ، وإنشاء مدارس في مراكز التعاونيات الزراعية الخ ...... ساعدتنا على تطبيق المبدأ المذكور بصورة رائعة .

إن كل مدرسة من المدارس قد وضعت لنفسها خطة تقوم بتنفيذها لمساعدة إحدى التعاونيات . وتشتمل هذه الخطة على قيام المدرسة بدراسة كمية المواد الأولية التي تحتاجها التعاونيات ، وبالتالي تقرر المدرسة الكميات الواجب تسليمها . ثم تحدد أعمال الري التي ينبغي القيام بها لصالح الأراضي في هذه التعاونيات . أما الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين التاسعة والعاشرة ، فهم قادرون على الاعتناء بالجواميس والبط ، وهم يحبون هذا العمل حباً جماً . ويُدفع أجر التلاميذ طبقاً للعمل الذي أنجزوه ويكون هذا الأجر في العادة ، كأجر أعضاء التعاونيات تماماً . وعلى هذا الأساس يربح التلاميذ نقوداً تعادل ما يربحه التعاونيون . ويفكرون بفضل أصلهم المدني بابتكار فنون وأساليب جديدة تسمح بتنفيذ بعض الأشغال مع توفير الجهد والوقت . أمّا الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، فلا يتوصلون إلى كسب أسباب معيشتهم الخاصة فحسب ، بل يكسبون أيضاً ما يسمح لهم بتلبية حاجات عضو أو عضوين من أفراد عائلتهم . ويزدادون ثقة بأنفسهم وفخاراً حينما يحسون بأنهم يساهمون في الجهد الحربي . وفي وسط هذا الجو من العمل والدراسة يتلقى المعلمون من الجهات المختصة تعليمات دقيقة تدعوهم إلى السهر واليقظة ، حتى لا يتعارض عمل الطلاب مع دراستهم .

وطرحت السؤال التالي على الوزير .. :

« ـ إن ما رأيته يدفعني إلى القول بأن حياة التلاميذ وأساتذتهم قد انقلبت رأساً على عقب . فهناك آلاف المعلمين قد أعدوا في ستة أشهر . ويقع على عاتق هؤلاء المعلمين واجب القيام بجهد مضاعف . ألا يؤدي هذا الجهد إلى هبوط مستوى التعليم ؟ »

وأجاب الوزير :

« ـ نعم ولا . فمن الطبيعي بأن التعليم لا يحافظ على مستواه عندما تتعرض البلاد

للغارات الجوية . وينبغي أن نقوم بحساباتنا على أساس احتمال زيادة حدة هذه الغارات . فقدنضطر عندئذ إلى تخفيض عدد ساعات الدراسة . ويأخذ منهاجنا التعليمي هذا الموضوع بعين الاعتبار . وقد يحدث مع ذلك أن نضطر إلى إلغاء جزء من المنهاج . ونحن نطالب الجميع ، طلاباً وأساتذة ، بأن يعتنوا بصورة خاصة بعملهم الحالي احتياطاً لكل طارىء، وتوقعاً لما قد تفرضه الالتزامات الوطنية في المستقبل . فيركزون جهودهم مثلاً على دراسة اللغة الفيتنامية والرياضيات والعلوم الطبيعية . بينما يكرسون وقتاً أقل لدراسة التاريخ والجغرافيا ، إذ يستطيع التلاميذ تعويض تأخرهم في هذه المواد مستقبلاً بالمطالعة والقراءات الحرة. فنحن نحتاج قبل كل شيء إلى إطارات فنية قوية في الفيزياء والكيمياء والرياضيات وعلم الحياة .

ومن ناحية أخرى ، ينبغي أن نضع فروقاً مميزة بين مختلف المناطق الجغرافية ، وأن نصيغ المناهج تبعاً لهذه الفروق . لنأخذ مثلاً مقاطعتي فينه لينه وكوانغ بينه المجاورتين لخط العرض ١٧ . إن الغارات على هاتين المقاطعتين شديدة ومستمرة . إذن فمن واجبنا أن نضع لها مناهج مدروسة تتميز بمرونة تسمح بتعديلها وتغييرها ، كي تتمشى مع عملية تصعيد الحرب واتجاهها الجغرافي . وعلى كل حال ، ومهما كانت الظروف ، ومهما كثرت الإلغاءات والتعديلات ، فإن كل شيء يؤدي في نهاية المطاف إلى مساعدة الثورة. « علم جيداً ، وتعلم جيداً » ، هذا هو شعار المدارس عندنا . وسنسهر دائماً حتى نحافظ على نوعية التعليم وتحسينه . إن كل جهازنا يحتاج دائماً إلى خطوات تقدمية للأمام، وعلينا أن نبدأ هذه الخطوات منذ الآن » .

وسألت الوزير عن مضمون الخطوات التقدمية في هذا المجال . فأجابني بأنه ترك الآن مؤتمراً عن التعليم على المستوى الوطني ليرد على أسئلتي . ويضم هذا المؤتمر كل مدراء الإدارات في وزارته ، وبعض موظفي المحافظات . وفي هذا المؤتمر توضع اللمسات الأخيرة لمشروع تعليمي تقدمي جديد كل الجدة . وأضاف الوزير قائلاً :

«إن مهمتنا العاجلة ، على المستوى الوطني هي ربح الحرب . إلا أن حكامنا ينظرون إلى مستقبل بلادنا بعد الحرب . فنحن بحاجة كبرى وماسة للفنيين . إذن فنحن بحاجة إلى معلمين أخصائيين يعدون أولئك الفنيين . ومن أجل تحقيق هذا الهدف وضعنا مشروعاً طويل الأمد. وبموجب هذا المشروع ، فإننا بحاجة إلى سنوات ثلاث كي نعد الأساتذة الأخصائيين الذين يساهمون في خلق هذا الجيش من الفنيين الذين يتطلب إعدادهم زمناً يتراوح من خمس إلى ثماني سنوات . إن هذا العمل يتطلب جهداً كبيراً ــ ولكن لا بد

من أن نبدأ . ولهذا فقد قررنا أن نبدأ فوراً . ولدينا الآن من ٨٠٠ إلى ١,٠٠٠ تلميذاً في دور المعلمين . وسيكون لدينا ٢,٥٠٠ تلميذاً في دور المعلمين خلال العام الدراسي ١٩٦٦ - ١٩٦٧ . ولدينا الآن ١٥,٠٠٠ طالباً . إلا أننا نتطلع إلى احتمال زيادة هذا العدد إلى ٤٠,٠٠٠ طالباً في خمس أو ست سنوات ، وهو عدد ضروري إذا كنا نريد إعداد إطارات فنية للجنوب وللشمال . وفي نيتنا أن نحقق « خطوة عملاقة » بعد الحرب . ولتنفيذها نحتاج إلى شباب مختصين بالعلوم ، بلغوا المستوى الجامعي ، وأصبحوا قادرين على دفع البلاد بسرعة كونية » .

إن تطورنا سيستمر رغم الحرب ، ومهما كان الثمن : فبإعدادنا المعلمين نتلافى فيما بعد كل نقص في جهازنا التعليمي الحالي . وسيكون للإطارات الفنية دور هام جداً تقوم به إذا استمرت الحرب مدة طويلة : فمن الضروري أن نسيطر على الموقف ، وأن لا نتراجع أبداً أمام الهجمات الأمريكية .

لقد أكسبتنا الحروب الوطنية تجربة معينة . فقد رفعنا عدد أساتذتنا من ٥,٠٠٠ إلى ١٢,٠٠٠ أستاذاً أثناء حرب الاستقلال ضد فرنسا . ولدينا في هذا اليوم ٧٧,٠٠٠ أستاذاً للتعليم العام . ويرتفع عددهم إلى ٩٠,٠٠٠ إذا أدخلنا في الحساب أولئك المعلمين الذين يدرسون الشباب البالغين ، والذين حدثتك عنهم قبل قليل . وإنني لأكرر القول بأننا في الحقيقة لم نعرف أبداً حرباً تدميرية مشابهة لهذه الحرب . إلا أننا نثق بأنفسنا . ولكي تتأكد من هذه الثقة فإني أقول لك ، من الأفضل أن تذهب إلى المعهد التربوي لكي تستعلم عن المظاهر الأخرى لإصلاح التعليم » .

وسألته فيما إذا كانت المناهج قد تعرضت لتبدلات هامة بسبب الحرب . فضحك الوزير وهو يقول :

« من الأفضل أن تقول بالرغم من الحرب . أجل - لقد جرت بعض التعديلات. فعدد سني الدراسة ستصبح أحد عشر عاماً ، وستتألف المرحلة الثانية من أربع سنوات بدلاً من ثلاث . وسيغدو التعليم إلزامياً حتى نهاية المرحلة الأولى . ونأمل أن يدخل ٨٠٪ من التلاميذ الذين يجتازون هذه المرحلة ، المرحلة الثانية فيما بعد ، وتهتم المناهج الجديدة بأحدث المواد الدراسية . وترتبط مباشرة بالحقائق الوطنية . وينبغي توجيه الأطفال نحو العلوم العصرية ، كما يحدث في فرنسا . وفي الولايات المتحدة الأمريكية ، وفي أماكن أخرى . ونحن نطلع بصورة دقيقة على كل ما يحدث في هذه البلدان من تطورات في التعليم . وإن اهتمامنا بالاطلاع على تطور الثقافة العالمية يصبح ضرورياً إذا أردنا أن تقوم

بلادنا ، رغم تأخرها ، « بوثبة إلى أمام » نحن في أمس الحاجة اليها . وينبغي أن تأخذ المناهج بعين الاعتبار طبيعة فيتنام ، ومناخها ، وأرضها، ومواردها الطبيعية ، وتقاليدها إن هذا كله يشكل الوسيلة الوحيدة التي تمكننا من التقدم نحو الأهداف التي حددتها ثورتنا الوطنية .

وقد وضعت هذه المناهج الجديدة بخطوطها الكبرى . وفي هذا العام وضعناها تحت الدراسة التجريبية في بعض المدارس . وستطبق عملياً على مستوى أكبر أثناء العام الدراسي ١٩٦٦–١٩٦٧ . وطبقاً للنتائج التي حصلنا عليها . سنطبع الكتب المدرسية الجديدة . وسنعد الأساتذة الذين يستطيعون تطبيق هذه المناهج. ولقد كان هدف المؤتمر الذي حدثتك عنه هو إعلام المسؤولين المكلفين بالسهر على تنفيذ المناهج الجديدة بتفاصيلها الدقيقة ».

« – وهل يمكنك أن تعطيني بعض الأمثلة عن التعديلات التي تجري الآن ؟ .. »

« – سيتم تدريس الرياضيات خلال المرحلة الأولى، بواسطة طرق جديدة.وتتضمن المرحلة الثالثة عدداً كبيراً من الدراسات النظرية عن الاكتشافات العلمية الأخيرة . وسيكون هناك مثلاً مكان واسع للعلوم الرياضية . وستعتمد دراسات علم الحياة أساساً على علم الجزيئات » .

« – ومع ذلك ، فإنكم تتعرضون للمخاطرة إذا استمر الأمريكيون في تصعيدهم للحرب . فمطالبكم واحتياجاتكم قد تؤدي بكم إلى استخدام عدد كبير من أساتذة وطلبة التعليم العالي ، الذين تحتاج اليهم ميادين القتال . »

« – أبداً ! فليس هناك أي خطر... إننا نحتاج حقاً إلى رجال لمتابعة الحرب ، إلا أننا نحتاج بصورة أكثر لإطارات المستقبل الفنية . وبإمكاننا أن نحصل على المطلبين معاً . وسوف نرسل من أجل هذا مزيداً من الطلبة إلى الخارج . وهذه العملية هي الوسيلة الوحيدة ليكتسب طلابنا المعارف الضرورية في ميدان العلوم الحديثة .

واستطرد الوزير يقول :

« ولن نكتفي بزيادة عدد الأساتذة والطلبة ، ولكننا سنضيف إلى الطلبة عناصر آتية من آفاق أخرى ولهذا سنعزز عمل دورات البالغين بشكل تتوصل فيه هذه الدورات إلى تزويدنا بـ ٣٠٪ من طلبة التعليم العالي . وتبعاً للتوقعات ، فسوف يلتحق مليون شخص بهذه الدورات التعليمية في العام المقبل، وسيدرسون أيضاً مناهج جديدة . إن علينا أن نصل إلى الشباب حيثما يكونون ، سواء أكانوا في الجيش أم في الورش ....

لنمكنهم من الاستمرار في التعليم الذي هو حق لكل مواطن .ففي السلم ، توجد فصول دراسية دائمة في الجيش . وخلال الحرب ، ينبغي أن تعزز جهودنا في هذا المجال بصورة أكبر . وقد كان المستوى المتوسط لتعليم العسكريين هو مستوى السنة الأولى ، أو السنة الثانية من التعليم العام . وقد وصل الآن إلى مستوى السنة السادسة أو السابعة . إنها نتيجة هامة جداً توصلنا إليها بسبب إيماننا بأن على جنودنا أن يكونوا قادرين على استخدام أسلحة معقدة ، وأن يتحكموا بتقنيات صعبة » .

وقد أعطوني تفاصيل أخرى، في المعهد التربوي عن التدابير التي نفذت في مجال إصلاح التعليم . إن مدير المعهد السيد فام هيو تونغ هو مؤرخ ذو قامة قصيرة ، يلبس نظارات سميكة مميزة لكثير من مفكري الجيل الذي ينتمي إليه . وكان قد وصل منذ فترة وجيزة من مؤتمر خاص للتعليم . وقد أعلمني ببعض القرارات التي لم تذع إلا بعد عدة أشهر . وكانت هذه القرارات قد وضعت موضع التطبيق قبل أن يجري التصديق عليها من قبل الأجهزة الرسمية الخاصة ، على مختلف درجات سلم التسلسل الإداري . (ومن الرائع أن نلاحظ في هذا المجال أن الحرب تسمح في فيتنام الشمالية على الأقل بهجر عدد كبير من الشكليات الرسمية) .

وقال لي مدير المعهد :

« لقد اتخذت هذه القرارات الهامة ، لأن حكامنا يعلقون منذ الآن أهمية كبيرة جداً على عملية إعداد الأساتذة والإطارات الفنية . فطلابنا الذين يزيد عددهم عن أربعة آلاف طالب ، ستأخذ الدولة على عاتقها مهمة إعداد معظمهم خلال وقت قصير . أما فيما يتعلق بالأساتذة ، فسيعاملون معاملة أحسن بكثير من ذي قبل .

وتدفع الدولة لأساتذة المرحلة التعليمية الثالثة (الثانوية) وحدهم حتى الآن جميع نفقاتهم . أما أساتذه المرحلة الثانية (الإعدادية) فكانت الدولة تدفع نصف نفقاتهم، بينما يدفع لهم المواطنون الذين يعلمون أبناءهم النصف الآخر من هذه النفقات . ويدفع المواطنون أيضاً ثلاثة أرباع مرتبات أساتذة المرحلة الأولى (الابتدائية) . والمواطنون يدفعون دائماً عن طيب خاطر، لأنهم راغبون بتعليم أبنائهم . ولكنهم لم يكونوا يدفعون بصورة منتظمة ، لأن ما يدفعونه كان مرتبطاً دائماً بما تعطيه المحاصيل لهم من موارد . فعندما تدفع الدولة أجور أساتذة المرحلة الثانية بكاملها ، يغدو من السهل على التعاونيات أن تدفع مرتبات أساتذة المرحلة التعليمية الأولى غير أن هذا كله لا يمنع الدولة من السهر على تأمين المميزات الاجتماعية لهؤلاء الأساتذة، كمرتبات التقاعد وغيرها من المميزات الخ ....

وتشكل كل هذه التدابير تشجيعاً كبيراً للأساتذة وتلاميذهم . إلا أننا نعاني أيضاً من معضلات أخرى . فبعض المدرسين ، وكل شبابنا التحقوا بحركة « الاستعدادات الثلاثة » وكل واحد منهم يريد الحصول على بندقية والذهاب لمقاتلة الأمريكيين . وكان علينا أن نشن حملة سياسية وإيديولوجية بمساعدة الحزب والحكومة ، كي نقنع أولئك المتحمسين بأنهم حينما يستمرون في دراستهم يساهمون في الحرب مساهمة تفوق حمل البندقية ، فالدراسة هي سلاح المعركة الأكبر ، سواء الآن أو في المستقبل »

ولقد نقل ثلاثة أرباع الطلبة والمعلمين تقريباً إلى الأرياف . كما أن هناك آخرين ذهبوا إلى قرى الريف في الوقت الذي كان يتم فيه هذا الحديث الصحفي . وكان عدد من تبقى منهم محدوداً جداً . ومن جملة الذين لم ينتقلوا من أماكنهم أولئك الطلاب الذين يعملون في معامل الطبيعة والكيمياء . فهذه المعامل تحتاج أجهزتها إلى حرارة ثابتة . ولتحقيق ذلك ينبغي أن يبقى الطلاب قرب تلك الأجهزة ، وداخل المعامل التي وضعت في أقبية عميقة . وتحدث السيد تونغ عن حياة أولئك الطلاب فقال :

« لقد ذهبوا إلى غابة من الغابات مفعمين بالحماسة . فقطعوا بعض الأشجار ، ومن بينها أشجار البامبو ، وبنوا لأنفسهم من غصونها وجذوعها مساكن وقاعات للدراسة . ونتيجة لذلك فقد عادت الدراسات إلى حالتها الطبيعية خلال بضعة أسابيع . أما فيما يتعلق بمعنويات الطلاب العامة واجتهادهم ، فكانوا من أفضل ما يمكن » .

وانتقل السيد تونغ إلى الحديث عن إخلاء المدارس من المدن فقال :

« لقد تم هذا الإخلاء خلال مرحلتين ، حيث توجهت المجموعة الأولى في بادىء الأمر إلى منطقة جبلية بعيدة . إلا أننا فهمنا بسرعة أن مدرسة كمدرستنا الواقعة في أرض جبلية تواجه معضلات دقيقة في التموين والمواصلات . وعندئذ أسرعنا إلى تغيير موقعنا ، وأعدنا بناء المدرسة في سهل يقع ضمن منطقة تسمح للتلاميذ بأن يؤمنوا طعامهم بأنفسهم بواسطة الزراعة ، وبواسطة تماسهم الوثيق مع المواطنين . وأصبح أولئك التلاميذ الآن يزرعون الخضار والأرز ، ويربون الدجاج الخ ... يساعدهم في ذلك أساتذتهم » .

ثم تناول فام هيو تونغ الشرح الذي قام به نغوين فان هوين في خطوطه الكبرى عن المناهج الجديدة فأعاد تفسيرها لي . وعندئذ سألته عن مدى التبدلات التي طرأت على مناهج معهده بسبب الحرب ، فأجاب بما يلي :

« لقد كانت التغيرات قليلة . فتلاميذنا يتبعون دورة إسعاف أولية ، كي يكون

بوسعهم أن يقدموا بعض المساعدات أثناء الغارات . وتدخل مادة الإسعافات الأولية الآن في المنهاج العادي للدراسة . ومن ناحية أخرى فإننا نضع الأساتذة الجدد المعينين للمرحلة الثالثة ، تحت التدريب لمدة ستة أسابيع إضافية ، حيث ندربهم تدريباً عسكرياً نظرياً وعملياً ، حتى يملكوا المعارف الأساسية عند تجنيدهم . ويتبع كل التلاميذ أيضاً في كل عام دورة تحضيرية عسكرية مدتها خمسة عشر يوماً . وقد جند بعض الأساتذة في مطلع الحرب . إلا أننا أوقفنا بسرعة عمليات تجنيدهم .

وبالاختصار أقول لك إنه من الممكن التأكيد بأن الحرب لم تعدل سير دراسات الطبيعة وعلم الحياة إلا تعديلاً بسيطاً » .

وكان السيد تونغ يعتبر أن الإخلاء قد سمح بإقامة علاقات جديدة بين الأساتذة وتلاميذهم ، وبين التلاميذ والمواطنين إذ أنه أضاف إلى قوله ما يلي :

« إن عملنا عمل مزدوج . فطلابنا يشاركون بحماس في المعركة الصحية . فهم يطالبون بجر مياه الشرب ، وإنشاء المراحيض النظيفة والحمامات . وهم لا يطالبون بكل هذا لأنهم متعودون على الرفاه فحسب ، بل يطالبون به لأنه جزء من الأهداف المحددة للحملة الوطنية من أجل تعميم النظافة في البلاد . ويبتكر هؤلاء الطلاب فنوناً جديدة لتحقيق هذه الأهداف ، ويعملون في الوقت نفسه كمدرسين في المدارس الابتدائية . ولا يمنعهم كل هذا من الاندماج بالشعب ، ودراسة مشاكله وقضاياه . وهذا هو بالضبط الهدف الذي تسعى مناهجنا التعليمية لتطبيقه . إننا نريد إعداد مناضلين قادرين على القيام « بالثورة التقنية » ، مناضلين ينبغي عليهم أن يتسموا بموقف واقعي أمام مشكلات الحياة . فالحرب التي سمحت لنا بهجر النظرية والتجريد ، ساعدتنا في الوقت نفسه إلى حد كبير على تحقيق أهدافنا .

وتشتمل مهمتنا الأساسية إعداد معلمين لمدارس المرحلة الثالثة (الثانوية) . ويملك كل قسم من أقسام البلاد اليوم مدرسة لهذا النوع من الإعداد . ونريد أن يكون أساتذة تلك المدارس متضامنين مع تلاميذهم . ونريد أن يحس كل من سيغدو أستاذاً من بين أولئك التلاميذ بالاهتمام العميق بحياة البلاد ، ويحسوا بالإضافة إلى ذلك بأن عليهم أن لا يكتفوا بأن يكونوا معلمين عينوا في هذه المنطقة أو تلك ، بل إن عليهم أن يطبقوا معارفهم على المشكلات العملية ، وأن يشاركوا في حملة إنتاج خمسة أطنان من الأرز في الهكتار الواحد مثلاً . وينبغي عليهم أيضاً ، وإلى حد ما ، أن يشاركوا الفلاحين في أعمال الحقول . وقد عملنا دوماً على إعداد رجال يتمتعون بمواهب متعددة : وكان الأمريكيون

هم الذين أتاحوا فرصة القيام بهذا العمل » .

ثم دعاني المدير لزيارة أبنية المعهد . فلاحظت هنا ، كما لاحظت في كل مكان آخر ، أن كل ما كان يشكل سيئة خطيرة في زمن السلم ، أصبح الآن متلائماً بصورة كاملة مع الوضع الحالي .

ولاحظت خلال جولتي في المدارس ، أن غرف الدراسة ومهاجع النوم فقيرة جداً ، لدرجة يندهش معها المرء إذا رأى ما يماثلها في عاصمة من العواصم . فلم تكن هذه القاعات في الغالب سوى أكواخ كبرى للفلاحين . وكانت الغرف الأرضية مبنية بجذوع البامبو ، والسقوف مصنوعة من القش . وهي تضم أسرة ومقاعد ، ومناضد للدراسة لا توفر شيئاً من الراحة . وكل هذا الأثاث مصنوع من البامبو أو من الخشب . وقد أشار فام هيو تونغ إلى عدة أبنية حديثة قائلاً وكأنه يعتذر عن شيء ما : « — **لقد شرعنا فيما مضى بإنشاء أبنية من القرميد** » وصمت هنيهة ، ثم استطرد يقول : « **ونحن ننوي متابعة البناء فعلاً ، إلا أننا أرجأنا ذلك إلى ما بعد ... بسبب الحرب** » .

ولقد صعب على التلاميذ أن يتخلوا عن المباني الحديثة المصنوعة من الزجاج والكروم ، وأن يهجروا الأسرة المفروشة بمراتب الريش ، والمراحيض المزدوجة المزودة بالمياه الجارية . وأن يهجروا كل هذا النعيم المريح للذهاب إلى الأرياف والإقامة فيها . إن الفيتناميين الشماليين يعانون من حياة قاسية مليئة بالعمل . فأبناء المدن والمزارعون ، والموظفون ، والمثقفون ، لم تتغير حياتهم أبداً . كما وإن الهجرة داخل فيتنام أسهل من الهجرة داخل بلد غربي ، أو بلد آسيوي حديث . وهذه المزية إحدى مزايا فيتنام الشمالية التي تعجز آلات البنتاجون الإليكترونية عن تسجيلها في داراتها .

وكان فام هيو تونغ قلقاً لأن الدورات الدراسية لا تستمر إلا سنتين أو ثلاث سنوات . فهو يعتبر أن من الواجب استمرار هذه الدورات أربع أو خمس سنوات حتى يكون وقت الدراسة كافياً لإعداد شباب قادرين على القيام بالمهمات على مختلف أنواعها ، وحتى تتوفر لهم ثقافة عامة واسعة ، ومعرفة جيدة جداً باختصاصاتهم .

وقال تونغ مستطرداً :

« إن منهج تعليمنا مختصر جداً ، إلا أنه ينفذ بشكل مكثف . ونتلقى طلبات كثيرة للانتساب إلى دور العلم ، لدرجة لا نستطيع معها تحديد مدة الدراسة . ثم إن من الصعب علينا الاحتفاظ بالطلاب مدة أطول من المدة الحالية . فالطلاب أنفسهم يرغبون بالانتقال

مباشرة إلى الحياة العملية . وهذه الرغبة التي يبديها الطلاب رغبة ممتازة ، إذا وضعنـا باعتبارنا حاجتنا إلى هؤلاء المتحمسين في ميادين العمل المباشر . ولكن حاجتنا هـذه لا تمنعنا من إتاحة الفرصة لهم كي يتقنوا مهنتهم جيداً ، ويكونوا قادرين على إعداد إطارات قادرة على استخدام آلات متلائمة مع مطالب بلادنا . ونتيجة لهذا ، فقد خططنا عملية استدعائهم ليتبعوا دورات تكميلية في كل عام ، تؤمن لهم مستوى أرفع . ثم يعودون بعد ذلك إلى العمل عاماً ليرجعوا بعد ذلك للدراسة عاماً آخر . ومن المحتمل أن نجعل مدة الدراسة لطلاب العلوم أربع أو ست سنوات ، نحتفظ في نهايتها بأفضلهم كي يبقوا معنا كأساتذة أو كباحثين . أما الذين لا يستطيعون اتباع دورات تحسين المعلومات لأسباب عائلية ، أو لأسباب أخرى ، فإنهم سيتابعون دراستهم بالمراسلة » .

وبعد أن انتهى الحديث الصحفي ، تسلق فام هيوتونغ سيارة نقل كبيرة ، بحركة يشع منها التصميم ، ومزودته وبندقيته معلقتان على كتفه . وكان في طريقه لحضور مؤتمر للتعليم في المنطقة المجاورة ، يرافقه بعض التلاميذ . وكان بالرغم من نظاراته الضخمة عضواً في جماعة الدفاع الذاتي للمعهد .

وقد زرت أيضاً معهد البوليتكنيك الجميل في هانوي ، الذي جهزه الاتحاد السوفييتي . إنه بناء من الزجاج والإسمنت ، وعلى سطحه مواقع للرشاشات مبعثرة كأعشاش اللقالق . وهو أجمل وأحدث أبنية المدينة ، ولكن جزءاً منه قد أخلي قبل افتتاحه بصورة رسمية . ولا أجد أية فائدة من إعادة الأحاديث التي جرت بيني وبين الفيتناميين المسؤولين عن هذا المعهد ، لأن الصعوبات التي يلاقونها والأهداف التي يسعون إلى تحقيقها هي نفس الصعوبات والأهداف التي يكافح من أجلها المعهد التربوي الذي تحدثت عنه فيما سبق ، والتي حدثني عنها وزير التربية الوطنية .

وزرت فيما مضى فرع التعدين ، الذي نقل إلى الأحراج . وأكد لي أساتذة هذا الفرع أن نتائج الامتحانات تشير إلى تحسن في المستوى العام منذ جرت عملية النقل . وقال لي أحد المعلمين : « **يحس الجميع الآن أن المدرسة لهم . فهم في الحقيقة بناتها** » .

وفي المعهد ذاته ، أو في الصفوف التي تستمر في العمل على الأقل ، كنت أهتم بعمل تلاميذ فصل البناء في السنة الرابعة . وكان هؤلاء هم الذين يستخدمون الرشاشات بقيادة ضابط من الجيش العامل ، ساهم في إسقاط اثنتي عشرة طائرة أمريكية . وفي أحد معامل البحث ، كان التلاميذ غارقين في دراسة بنية معدنية مؤلفة من أنابيب تشبه أعمدة خيام التعسكر الألومنيوم ، إلا أنها كانت في الحقيقة أنابيب فولاذية من شكل مختلف بعض الاختلاف عن الأنابيب العادية . وكان الطلاب يعدون هذه الأنابيب الخفيفة ، والقابلة

للنقل بسهولة من عناصر مسبقة الصنع لإقامة أبنية سريعة للمصانع التي أخليت ، وعندما سيتمكنون من هذه الصناعة الجديدة ، يصبح بإمكانهم إقامة منشآت للصناعة ، وفكها عند اللزوم ، وتركيبها في مكان آخر لو اضطرتهم عملية التصعيد الأمريكية إلى تغيير مكانها .

وقال لي الأستاذ الذي كان يرافقني :

« **إن منجزاتنا العملية تتلاءم مع ضرورات الحرب** » وأراني مختلف الأدوات المخصصة لقياس القوى التي تخضع لها أنابيب الصلب ، ومقاومة مزيج اللحام الخ ... ثم استطرد قائلاً :

« **لقد عملنا دائماً تبعاً لمطالب الإنتاج العملية والحتمية . وقد عرضت علينا إدارات المصانع ، كما عرض علينا المهندسون المشاكل المختلفة التي تواجههم .**

ولكل ما يتعلق بالجهد الحربي الآن أولوية مطلقة . وسنستمر في تجربة بناء المصانع من عناصر البناء الخفيفة مسبقة الصنع . إن إقامة أبنية من البامبو تغطى بسقوف من القش ، تعتبر في الحالات العاجلة عملية مقبولة ومرضية . إلا أن علينا حينما تزول هذه الحالات العاجلة تبديل هذه الأبنية بغيرها من مواد أكثر ثباتاً ، كي نحمي الآلات ضد تأثيرات الطبيعة » .

وقد سألته عما **إذا** كانوا يستعينون بالطلاب لمختلف الأعمال ذات الصبغة الوطنية والصالح العام ، فأجاب :

« **إن لدينا حالياً ٨,٥٠٠ طالباً ، وستزيد ملاكاتنا بنسبة ٥٠٪ خلال هذا العام . وقد ابتدأنا بخمسين أستاذاً . ولدينا الآن أكثر من ١,٠٠٠ أستاذاً ، لم يجند أي واحد منهم . إلا أن الجميع سيذهبون في المستقبل إلى الجبهة وهم في منتهى السعادة** » .

وكان تحقيقي الصحفي عن الإصلاحات التي أدخلت على التعليم بسبب الحرب قد أوشك على الانتهاء . ورغم ذلك قمت بزيارة مدارس كل القرى التي مررت بجولتي فيها . ونتيجة لهذه الزيارات ، وجدت أن كل ما قاله لي وزير التربية الوطنية منطبق على الحقيقة الواقعية .

وعندما وصلت إلى الفندق الذي أنزل فيه بعد زيارتي لمعهد البوليتكنيك ، وجدت واحداً من زملائي يدفن رأسه بين يديه . وقد بدا كما لو كان منهاراً . وحين استفسرت منه عن سبب حالته عرفت القصة : إنه صحفي جاء إلى فيتنام لينقل إلى العالم آلامها . ولكنه أصيب بالذهول ... ولقد فسر لي سر ذهوله بقوله : « **لقد جئت إلى هنا لأصف آلامهم ، وأنقلها إلى الرأي العام العالمي ، إلا أنهم رغم كل هذه الآلام ، لا يتحدثون إلا عن النصر** » .

الفصل السادس

الطب التقليدي والطب الحديث

كيف توصل بلد متخلف كفيتنام ، معرض فوق تخلفه لأن يفاجأ دائماً بالأسوأ .... كيف توصل مثل هذا البلد إلى معالجة معضلاته الطبية والجراحية ، على حين يتلقى ما يقارب من نصف مليون طن من القنابل في العام الواحد ؟ كان الدكتور فام نغوك تاش بكل تأكيد أفضل شخصية قادرة على إجابتي على هذا السؤال . فهو ابن عم الامبراطور السابق باوداي ، وقريب من أقرباء العائلة المالكة في أنام ، ولكنه التحق بصورة مبكرة جداً بثوار الفييت مينه . وبعد ثورة آغسطس (آب) ١٩٤٥ ، قاد إدارة نام ـ بو أو الكوشنشين . ومنذ بدء الحرب الصينية التحق بالأدغال لينظم فيها الخدمة الطبية . ونجده مرة أخرى في نهاية العدوان ، مستمراً في إدارة الخدمات الطبية وتحسينها ، مع إشرافه على بناء مصانع الأدوية في الغابات . ويقوم أحد أبناء عمومته الدكتور هوتو في هذا الوقت بمهمة مشابهة في مناطق فيتنام الجنوبية التي تشرف عليها جبهة التحرير الوطنية .

إن الدكتور تاش بحاثة لامع ، ومعروف من زملائه الغربيين بأبحاثه ودراساته عن السل . وقد نظم إدارات الصحة في بلاده ، إدارة إثر إدارة ، معتمداً في البدء على المدارس الطبية التي أقامها في الأدغال . ثم ضم اليه بعض المتميزين والجراحين الفيتناميين الممتازين الذين درسوا في فرنسا ، ثم فتحوا عيادات فيها . وقد تخلى معظم هؤلاء عن عياداتهم الرابحة التي كانوا يملكونها في باريس ، ليأتوا إلى فيتنام ، وليقدموا العون لأبناء وطنهم .

وقد اضطر الدكتور تاش ، أثناء حرب الاستقلال ، إلى استخدام نباتات طبية في علاج المرضى تبعاً للطريقة التقليدية القديمة . كما أنه نصب من نفسه محامياً للدفاع عن التطور المزدوج للطب الغربي والآسيوي . ومن غير المجدي ، من الناحية العملية ، أن

نحاول مقابلته في مكتبه بالوزارة ، ولكن فرصتنا أكبر في العثور عليه في مصحة من المصحات أو في مركز من مراكز أبحاث السل في هانوي .

وإليكم جوابه على سؤالي الأول :

« – إننا لم نفاجأ بالهجوم الأمريكي . فقد كانت إدارات الصحة لدينا مستعدة وموجودة ، حتى على مستوى الجمعيات التعاونية : واستطعنا بهذا الشكل الاعتناء بالجرحى في الوقت الملائم ، حيث تمكنا من معالجتهم في الأماكن التي تعرضوا فيها للإصابات . لأن كل قرية من قرى السهول تملك عيادة للصحة العامة ومركزاً للأمومة . أما التعاونيات فتحت تصرفها دائماً عناصر من رجال الصحة العامة .

إن ٧٠٪ من القرى الجبلية [1] تملك المستشفيات . وتهتم هذه المستشفيات في زمن السلم بالحملات الصحية العامة ، وباللقاحات ضد الجدري والدفتيريا ، والسعال الديكي ، وشلل الأطفال . وتقدم الخدمات الأولية للمرضى ، وترسل حالات الولادة والجراحة العاجلة إلى مستشفيات الأقسام . إن ٩٠٪ تقريباً من الولادات تتم في عيادات القرى .

وانتقل الوزير إلى شق آخر من الحديث حينما قال :

« من الطبيعي أن تعتني العيادات في زمن الحرب بالجرحى المصابين بجروح خطيرة قبل توجيههم إلى المستشفيات في مراكز الأقسام . ومنذ عدة أشهر ، لجأ الجراحون في مراكز الأقسام إلى طريقة جديدة ، إذ راحوا ينتقلون بأنفسهم إلى القرى لإجراء العمليات الجراحية فيها ، كي يجنبوا الجرحى عملية نقلهم إلى المستشفيات ، بعد أن غدت هذه العملية متعبة ومنهكة بسبب الغارات الجوية » .

« – هل مخزونكم من البلازما والدم كاف وموزع بصورة واسعة كي يسمح لكم بمعالجة كل الحالات العاجلة ؟ »

وللإجابة على السؤال دعاني الدكتور تاش إلى اصطحابه لزيارة « مركز جراحي » وهو مركز مرتجل أقيم في أقبية المستشفى . وكان هناك كلبان متمددان على الجانب وجهاً لوجه . وكان جسماهما مرتبطين بأنبوب يمر عبره الدم من كلب إلى آخر . وكانت المؤشرات تتحرك ببطء على عدادات وهي تشير إلى درجة ضربات قلبيهما ، وضغطهما وإيقاع تنفسهما .

---

(١) تعيش الأقليات الوطنية في الجبال . (المؤلف)

وقال الوزير :

« إننـــا نحاول أن نحدد انعكاسات الجهاز العصبي بدقة عندما يتعرض الجسم لصدمة من الصدمات . ويتلقى أحد هذين الكلبين دم الآخر الذي ننقله إلى دماغ الكلب الثـــاني فقط بفضل حقن بطيء مستمر لا يوصل الدم إلى بقية أعضاء جسم الكلب . وتعتبر هذه التجربة تجربة نظرية » .

وانتقلنا إلى معمل آخر . وكان هناك كلب مربوط إلى منضدة العمليات . وأمـــام أعيننا قام موظفو المعمل بسحب نصف دمه من جسمه . وكانت مؤشرات الآلات تتذبذب وتشير إلى أن حالة الكلب أقرب إلى الموت ، لأنه يواجه صدمة عنيفة ناجمة عن فقدان الدم . لذلك ، فقد بقي بلا حراك ، وعيناه مغمضتان . وعندئذ قامت إحدى الممرضات بحقنه برزقة في الوريد ، على حين كانت ممرضة أخرى تصب له محلولاً في فمه بواسطة أنبوب كي يشربه . وخلال بضع ثوانٍ عادت مؤشرات الآلات إلى الاهتزاز ، حيث تحركت بنظام موزون حينما عاد القلب والجهاز التنفسي إلى الحركة من جديد . وبعـــد بضع لحظات استعاد القلب تقريباً إيقاعه الطبيعي . وفتح الحيوان عينيه المغمضتين .

وقال الوزير :

« هـــذا هو التطبيق العملي لما تعلمناه في دراستنا النظرية . فمن الصعب بالطبـــع بالنسبة الينا أن نخزن كميات كبيرة من البلازما . كما أنه ليس بالإمكان دائماً إجراء عمليات نقل للدم في القرى . ولهذا فكرنا بالقيام بحقنات وريدية لمادة تسمى N. T. G. **ونحن نمزج هذه المادة بمحلول اصطناعي مستخرج من مصل سكري التركيب ، يعطى عن طريق الفم . واستطعنا بواسطة هذه الطريقة حماية الجرحى الذين تعرضوا لصدمـــة عنيفة دون الاستعانة بنقل الدم أو استخدام المصل الدموي . ونقوم أيضاً بأبحاث عن الصدمات الناجمة عن الانفجارات . ولدينا الآن حالات متعددة في الوقت الحاضر ، وبخاصة لدى الأطفال . وتحدث هذه الصدمات نتيجة لقوة انفجار القنابل التي يستخدمها الأمريكيون »** .

وقد سألتهم فيما إذا كانوا يتابعون أبحاثاً أخرى تتعلق مباشرة بالحرب . وقـــادني الدكتور تاش إلى معمل ثالث ، حيث تجري التجربة الموصوفة في مقدمة هذا الكتاب على الخنازير الهندية المخصصة للتجارب . وهي تجربة تهدف إلى دراسة فاعلية ماء الكلس كعلاج لحروق القنابل الفوسفورية .

« وقد انتهت هذه التجربة ، ووصفت كوسيلة من وسائل العلاج بصورة نهائية ، إنها طريقة بسيطة ، وتعطي نتائج جيدة . ومن الممكن تطبيقها في أي مكان ومن قبل أي شخص . وقد درسنا أيضاً إمكانية استعمال قناع بسيط و عملي لاستخدامه حينما يغير علينا الأمريكيون بالغازات أو بأية مواد سامة أخرى » .

وبما أنني كنت أطالب بالحصول على مزيد من التفاصيل ، فإن الوزير قال لي وهو يبتسم :

« ينبغي أن يبقى هذا الموضوع سراً من الأسرار . لأن معرفة الأمريكيين لمبادىء عملنا ستدفعهم إلى معرفة الوسيلة التي تبطل مفعول الأقنعة التي سنستخدمها »

وكان علي فيما بعد أزور معامل مركز الأبحاث البيولوجية ، بناء على نصيحة الدكتور تاش ، هذه المعامل التي جهزت بآلات بديعة ورائعة . وشاهدت رجالها وهم يحقنون الفأر الأبيض بمختلف نماذج المواد الكيمائية السامة التي يستخدمها الأمريكيون في فيتنام الجنوبية ، والتي وصلت نماذج منها إلى الشمال .

فبعد أن تعرض الفأر لكمية قليلة من هذه المواد ، بدأت قوائمه تتصلب ، ثم تمايل وسقط ميتاً بلا حراك . وفسر لي أحد الباحثين ذلك قائلاً : « — **إن الأثر الناتج عن هذه التجربة ضد الفئران هو نفس الأثر الذي ينتج عندما تستخدم هذه المواد ضد الجواميس ، والأطفال ، والشيوخ والأفراد الذين لا يتمتعون بصحة جيدة .** » ويُشَرِّحُ الفأر الميت فيما بعد . فتنزع كليتاه وكبده ، ويرفع الطحال الصغير . وتتم هذه العمليات باعتناء . وبعد انتهائها تؤخذ بعض النماذج الدموية من الأعضاء المنزوعة للقيام بتحاليل عليها . ويتدخل رئيس المعمل قائلاً : « **ليس لنا الحق في أن نعرض شعبنا للمخاطر فاليوم يستخدم الأمريكيون المواد السامة في الجنوب ، وليس بمستبعد أن يستخدموها غداً ضدنا هنا في الشمال ، حيث نفاجأ بها ونحن في عقر دورنا .** » ومن الطبيعي ، أن كل اكتشاف يتم التوصل اليه عن مضادات ممكنة لهذا السم ، ينتقل فوراً إلى ثوار الجنوب ، على شكل نشرة عملية تذاع من راديو هانوي .

وقال لي الدكتور تاش فيما بعد : إن المواد التي ترشها الطائرات على الجنوب مواد مخرشة ، يسبب بعضها حكاكاً والتهاباً يمكن معالجته بواسطة النباتات الطبيعية . وقد ظهر لنا نتيجة للتجارب التي أجريناها أن خلاصة بعض هذه النباتات أكثر فاعلية من المضادات الحيوية الأخرى .

« ونحن لا نعرف دوماً سبب هذه الأعراض ، إلا أننا نحاول اكتشافها . ولا يسمح لنا وضعنا بتصميم علاجات معقدة . فعلينا أن نتوصل إلى اكتشاف طرق سهلة تكون في متناول رجال مصالح الصحة الريفية . إن الحرب هي التي تضطر رجال الأبحاث لدينا إلى التوجه في هذا الطريق . ولكن هذا العمل يفترض معرفة جيدة بالاكتشافات العلمية الحديثة ، قبل إقدامنا عل نشر مكتشفاتنا العلمية وتوزيعها ، كما يتطلب جهداً مخبرياً كبيراً ، وتجارب سريرية متكررة » .

ويرى الدكتور تاش أن بعض خلاصات النباتات بدت أكثر فاعليـــة ضد جرثوم الستافيلوكوك (العنقودي) ، هذا الجرثوم الذي يقاوم المضادات الحيوية .

وقد لاحظت خلال جولتي أن ٨٠٪ من مرضى معظم المصحات قد نقلوا ، كما نقل الموظفون الطبيون العاملون في المخابر والمعامل أيضاً . وهذا الوضع يشبه الوضع في كل المستشفيات التي زرتها . فقد رفع جزء كبير من التجهيزات ليوضع في مكان أمين حتى نهاية الحرب . وعندما طلبت من الوزير إطلاعي على الشكل الذي تؤثر فيه هذه التدابير . أجابني بقوله :

« - لقد تابعنا تجاربنا بأدوات أقل كمالاً . وكنا نقوم بهذه التجارب وكأننا في زمن السلم . واضطرتنا الحرب إلى حث خطانا للسير بسرعة أكبر . ولقد مرت علينا سنتان قمنا خلالهما بمختلف التجارب ، واستخدمنا لقاحاتنا الخاصة ضد الكوليرا ، والتيفوئيد، والدفتيريا ، والكزاز . ومنذ عام ١٩٥٧ اختفت الكوليرا والجدري من بلادنا بصورة تامة . وبفضل الجهود التي بذلناها لم ينتشر وباء الكوليرا الذي ظهر في الجنوب منـــذ سنتين . واختفت أيضاً إصابات التيفوئيد والدفتيريا عملياً من المناطق التي لقح أبناؤهـــا بنسبة ٩٠٪ . وقُضيَ على مرض شلل الأطفال الذي أعلنا عن انتشاره في بلادنا منذ خمس سنوات بفضل زرقات سابين التي يستمر معهدنا في إعدادها برغم الحرب . (وقد حضرت فيما بعد صنع هذا اللقاح ، كما شهدت بعض التجارب التي أجريت به على قرود) . واختفت الأمراض المعوية الخطيرة التي كانت تنجم عن شروط صحية سيئة ، بفضل المكافحة التي قمنا بها منذ بدء العدوان الأمريكي » .

وكان بوسع الدكتور تاش أن يضيف قائلاً : « لقد تم هذا كـــله بفضل جهودي المستمرة في بناء المراحيض الحديثة النظيفة الكتيمة ، والآبار الفردية الخ .... »
وتابع الوزير حديثه قائلاً :

« ونقوم أيضاً بأبحاث عن الملاريا . وسنتوصل إلى إيجاد دواء لهذا الداء العالمي[1] . وسنحاول أخيراً استخدام اللقاحات في معالجة الأمراض الناجمة عن الديدان الطفيلية » .

ثم راح محدثي يشرح باستفاضة موضوعاً كان عزيزاً عليه . وراح يستفيض بالحديث عن اكتشافاته الخاصة في معالجة السل بواسطة .B.C.G المقتول بالإضافة إلى العصية المسماة « باسيلوس سوبتيلوس » التي ساهم الوزير إلى حد كبير في اكتشافها . (يستخدم اللقاح الحي بصورة عادية . وقد دُعي الدكتور تاش إلى عدة مؤتمرات طبية دولية لتقديم أعماله .)

« إننا نجرب هذا اللقاح منذ ثمانية أعوام . واستخدامه سهل جداً ، كما أن خصائصه كثيرة . ولهذا فقد سمح لنا بتخفيض عدد حالات السل المميتة ، هذا المرض المرعب إلى حد كبير في بلادنا منذ زمن طويل . ومنذ عام ١٩٦٠ ونحن نراقب قسم هانوي الذي يعد ١٠٠,٠٠٠ مواطن : ففي هذا العام كان هناك ٢٠,٦ حالة مميتة بين كل ١,٠٠٠ مواطن . أما في عام ١٩٦٤ ، فلم يكن هناك سوى ٤,٣ حالة بين كل ١,٠٠٠ مواطن . ويمثل هذا انخفاضاً بمقدار ٨٠٪ في أربع سنوات . ويتم كل هذا العمل وسط جميع الشروط المادية الصعبة التي ما زلنا نعيش في ظلها .

إننا نعرف عصية باسيلوس سوبتيلوس منذ عام ١٩٥٢ بفضل أعمال هنري وآلبوت ونحن نستخدمها بكمية قوية في زرقات متعددة . وعندما يدخل هذا الجرثوم حياً في الرئتين ، أو بواسطة زرقات تحت الجلد أو في الوريد ، فإنه لا يعطي نتائج مدهشة فحسب ضد أشكال السل المختلفة ، بل إنه يعطي أيضاً نتائج ضد الجذام ، والسعال الديكي . وعندما يعطى عن طريق الأنف يسمح بالوقاية من السعال الديكي والحصبة . وقد استخدمه أطباؤنا في الأعوام الأخيرة ، وحصلوا على نتائج مشجعة للغاية عند استخدامه ضد الكزاز والتهاب السحايا الدماغية وفي معالجة الحروق والجروح النتنة » .

وانتقل الوزير إلى التحدث عن استخدام النباتات الطبية للتحكم بالحمل . وكانت فاعلية هذه النباتات معروفة جيداً لمعظم الناس الذين يجهلون أسباب هذه الفاعلية . ولذا نصحني الدكتور تاش بزيارة معمل آخر حيث تم فيه تجارب « تحديد النسل » على الأرانب.

---

(١) تزعج الملاريا الأمريكيين كثيراً في المناطق الجبلية لوسط فيتنام الجنوبية .

(المؤلف)

وفي هذا المعمل الذي تم فيه هذه التجارب استقبلتني مجموعة من النساء الشابات اللطيفات بثياب بيض . وكانت هناك أرنبة مربوطة إلى إحدى المناضد . وجهاز متصل برحمها يسجل التقلصات على أسطوانة دائرة . وفي الوقت نفسه ، كانت الأرنبة تمتص من الأنف بواسطة أنبوب من الأنابيب سائلاً ذا لون أزرق فاتح . وخلال بضعة دقائق قفزت مؤشرات آلة التسجيل قفزتين أو ثلاث قفزات ، الأمر الذي دل على تنفيذ عملية إجهاض اصطناعية اعتبرها الأطباء مرضية جداً .

وقد كررت العملية على عدة أرنبات أخرى . وأطلعوني فيما بعد على رسوم بيانية تشير إلى عمر الحيوانات ووزنها ، وعدد التجارب التي يتوجب القيام بها للحصول على التقلصات الضرورية تبعاً لكمية المادة المعطاة الخ .... وقد حصلوا على هذا السائل الذي استخدموه في هذه التجارب من نبات من فصيلة النيلة الذي تستعمله قبيلة ميو لصباغة الأقمشة ، وللقيام بعمليات الإجهاض . وقد أكدت لي الممرضات العاملات في هذا المعمل أن ما هو جيد بالنسبة للأرنبات ، جيد في هذا المجال أيضاً بالنسبة للنساء . وكان الهدف من استمرار أبحاثهم وتجاربهم هو معرفة ما إذا كانت المادة المستخدمة للإجهاض ذات آثار سامة أم لا . وقد أظهرت المشاهدات الدائمة أن الأرنبات لم تصب بأي اضطراب « كما لم يظهر أي اضطراب على نساء قبيلة ميو أيضاً » ومع هذا فإن من الضروري متابعة الأبحاث قبل أن يصبح النبات صالحاً للاستخدام بشكل يتحكم معه بالحمل بصورة مؤكدة .

وأعلمني الوزير أن بعض النساء المتقدمات في السن ، في الجبال ، تملكن سر التركيبات المانعة للحمل ، أو المجهضة على الأقل . ومن المعروف بصورة علنية أن أخلاق شبان وشابات هذه المناطق متحررة جداً قبل الزواج . ولكن هذا التحرر لا يمنع من فقدان الفتاة لكثير من قيمتها كزوجة في المستقبل إذا كانت حاملاً . ولهذا تبحث الفتاة عن وسيلة للإجهاض . ومن هنا ارتفعت قيمة النساء العجائز اللواتي تملكن سر الدواء المانع للحمل . وعندما كانت فرنسا تحتل الهند الصينية ، كان أعضاء البعثات الدينية الكاثوليكية الذين أقاموا آنئذ في البلاد يعتبرون أدوية منع الحمل تلك عملاً من أعمال الشيطان . وفرضوا عقوبات قاسية على الفتيات اللواتي تفقدن عفافهن . ولهذا السبب بقي سر الدواء المجهض ملكاً لبعض نساء فقط ، حيث ترثه البنت عن أمها ... ولكن عندما قررت الدولة أن تتولى تحديد النسل ، انكب الدكتور تاش مع موظفيه البحاثين ليفتشوا من جديد عن سر دواء الإجهاض، ودراسته دراسة علمية .

وقال لي الدكتور تاش :

« لقد كان علينا شن حملة دعائية سياسية وإيديولوجية مستمرة ، لكي نصل بنتيجتها إلى معرفة أسرار الدواء المجهض ، المعروف في الجبال . ولقد بذلنا جهداً كبيراً لتحقيق ذلك ، لأن رجال الجبال ، وبخاصة المسنين منهم ، لا يقبلون الكشف عن أسرارهم بسهولة . وقد احتجنا إلى وقت طويل كي نكسب ثقتهم . إلا أنهم بدأوا الآن يتجاوبون معنا ويتعاونون . ونتيجة لذلك فقد فتحت آفاق رائعة في مجال الطب القديم » .

وشرح لي الدكتور تاش عندئذ آثار نبات من نباتات الإجهاض . فكمية معينة منه تكفي لإحداث إجداب موقت ، لا يلبث أن يزول عند تناول دواء معين مضاد له يعيد الخصوبة . ويبقى الإجداب مستمراً عندما لا يؤخذ الدواء المضاد .

ثم قال الوزير :

« إن هذه النباتات معروفة الآن . ويستخرج موظفو المختبرات عصاراتها التي تخضع في الوقت الحالي لتجارب مخبرية . وقد اجتاز النبات الذي ينتمي إلى فصيلة النيلة الذي يحدث الإجهاض مرحلة التجارب المخبرية . وتبدو عصارته ذات أثر حقيقي في الإجداب والخصوبة ، ولها إمكانيات هائلة . » ويبدو على الدكتور تاش الحذر الشديد حينما يتحدث عن هذا الموضوع ، ولكنه يبدو أيضاً كثير الاهتمام بالقدرة التي ستملكها بلاده لبيع العالم كله ما يمكن أن يغدو في يوم من الأيام دواءاً حديثاً شعبياً بصورة استثنائية .

وأضاف الوزير قائلاً :

« ـ وقد قام رجال الأبحاث عندنا باكتشافات هامة . وتتضمن إحدى مهماتهم تقديم تفسير علمي للخصائص المعجزة لبعض النباتات الطبية التي يتوصل الفلاحون بواسطتها إلى شفاء الكسور بصورة أسرع من شفائها بالطرق الطبية الحديثة . ولهذا درسنا النباتات التي يكون بعضها فعالاً جداً ضد تصلب الشرايين ، والملاريا ، وعدد كبير متنوع من الأمراض الداخلية » .

وقد ازداد متوسط عمر الإنسان في فيتنام من ٣٠ إلى ٦٠ عاماً خلال السنين العشر الأخيرة ، وهبطت نسبة وفيات البالغين من عام ١٩٥٥ إلى ١٩٦٤ من ٢٠ إلى ٦ في الألف . أما نسبة وفيات الأطفال فقد هبطت خلال الفترة نفسها من ٣٠٠ إلى ٢٨ ، في الألف .

« يعيش مواطنونا اليوم حياة أطول . وهذا يعني أن علينا أن نقوم بأبحاث كثيرة

عن تصلب الشرايين ، والتهاب الرئتين المزمن ، والسرطان، هذه الأمراض التي لم نكن نهتم بها سابقاً . ولن تستطيع الحرب إعاقتنا في هذا المجال . وقد برزنا في عمليات الكبد الجراحية ، ونجحنا منذ عدة سنوات بعملية سرطان الحنجرة » .

ثم أشار الدكتور تاش من جديد إلى الأهمية التي يعلقها هو ومرؤوسوه على دراسة الطب التقليدي :

« إن النتائج السريرية التي يسمح الطب التقليدي بالحصول عليها تطرح مشكلات نظرية ينكب الأطباء ، والكيمائيون ، والبيولوجبيون على دراستها في معاملهم . فالبحث العلمي ، والملاحظة ، وتطبيق الطب التجريبي ، مرتبطة في هذا الميدان ببعضها ارتباطاً وثيقاً ، الأمر الذي يجعلنا نواجه صعوبات هامة ومتعددة . إلا أننا نأمل أن نتوصل إلى التغلب تدريجياً على تلك الصعوبات التي تقف في وجهنا بالتنسيق ما بين الطب التقليدي والطب الحديث . وينبغي لتحقيق ذلك أن نتوصل إلى مستوى عال في المعارف الطبية الحديثة كي نستطيع تصميم أدوية بسيطة ، وفعالة تكون في متناول الجميع » .

وقد تم إحصاء مائة وعشرة أنواع من النباتات الطبية في جوار المزرعة الرئيسية لكوانغ آن التي تحدثت عنها في فصل سابق . وقد أعيد زرع نماذج من معظم هذه الأنواع في الحديقة الصغيرة لعيادة القرية المحلية . ونجد في الصيدلية ، إلى جانب المضادات الحيوية والستربتومايسين ، برشامات صغيرة تحمل الأدوية المستخرجة من الجذور والأوراق . ولا يمكن تسليم الأدوية ، سواء أكانت حديثة أو تقليدية ، إلا بناء على وصفة من الطبيب . وقد قال لي المسؤول الصحي إن ٩٠٪ من المرضى يعالجون بالطرق القديمة، وأن التعاونية الزراعية هي التي تتكفل بتوزيع الأدوية . وإلى جانب العيادة يوجد مركز للولادة حيث يتوقع ٤٨ ولادة لعام ١٩٦٦ .

وأحضر لي الأستاذ تونغ مدير العيادة الجراحية في جامعة هانوي شاباً صغيراً عمره ١٧ عاماً لأراه . وكان هذا الشاب رائع الجمال بشكل مدهش . وقد جاء من فينه كي تجرى له عملية تطعيم عظمية . وقال لي الشاب إنه كان تلميذاً في المرحلة الثالثة (الثانوية) وعضواً في جماعة الدفاع الذاتي بمدرسته . وكانت الطائرات قد هاجمت بطارية مدفعية مضادة للطائرات تتمركز على مقربة من مدرسته : فهرع إلى الخارج ، وسدد رشيشه على إحدى الطائرات المنقضة ، وفتح عليها النار . واستمر الشاب في شرح قصته فقال :

« وحدث بالقرب مني انفجار كبير . فتدحرجت في مسيل ماء صغير ، وساقي مغطاة بالدماء » .

وقال لي الأستاذ تروونغ ، وهو من أفضل الجراحين في فيتنام الشمالية . وكان هو الذي يقوم بدور المترجم بيني وبين الشاب . : إن من النادر نقل مريض إلى هانوي واستطرد تروونغ يقول :

« لقد كان تلميذاً لامعاً جداً . وبرهن عن شجاعة كبيرة لدرجة جعلتنا نبذل جهداً استثنائياً للحفاظ على ساقه . وبقي شهرين في أحد مستشفيات المناطق . إلا أننا لاحظنا أن التطعيم العظمي الذي نمارسه هنا ، هو الدواء الوحيد القادر على إنقاذ عضوه المصاب . فنقلناه إلى هنا . ونجحنا بتطعيم ساقه بعظمة عجل صغير ، كانت ملائمة تماماً لحالته هذه . ومع ذلك فستبقى ساقه متصلبة بسبب جرح في الركبة .

وتتم كل العمليات في مستشفى الأقسام . ونادراً ما نستعين بمستشفيات المقاطعات . ومن النادر جداً أن نستعين أيضاً بمستشفيات هانوي . فمستشفانا هو أهم المستشفيات في العاصمة . ورغم ذلك لم ترسل الينا المستشفيات الأخرى سوى ٣١ جريحاً من آلاف الحالات التي تعرض لها المواطنون منذ بدء الغارات الجوية . وقد قامت الوزارة بجهد جبار لملاءمة مستشفيات الأقسام مع الاحتياجات الحالية ، ولتعليم الأطباء المعارف الجراحية الضرورية في زمن الحرب . وهناك في الوقت الحالي مئتا مستشفى من مستشفيات الأقسام قادرة على مجابهة كل الاحتمالات المتوقعة » .

والعمل متوقف الآن في مستشفى قسم جيا ـ لام الذي شيد له بناء جديد في ضاحية هانوي . فقد أخلي هذا المستشفى تماماً ، وانتقلت أجهزته وأطباؤه ومرضاه إلى معبد بوذي قديم يعود إنشاؤه إلى قرون خلت . وتشتمل الزمرة الطبية المشرفة على مستشفى المعبد عل تسعين شخصاً بين طبيب وممرض يشرفون على مائة سرير . وهناك سبعة أطباء وجراحان ، وعشرة أطباء مساعدين اتبعوا دراسات اختصاصية لمدة عامين . وترتبط ٣٣ قرية بهذا المستشفى . وتملك كل قرية منها عيادة طبية تتسع لأربعة أو خمسة أسرّة . وتدار هذه العيادات من قبل عاملة مختصة تشرف على ١٤٧ تعاونية . وقد أخلي المستشفى إلى المعبد منذ تسعة أشهر . ومنذ ذلك الوقت حتى الآن أجريت في مشتشفى المعبد ١٥٠ عملية جراحية ، تمت كلها على ضوء المولدات الكهربائية للدراجات العادية ، التي لا تتجاوز قوتها ستة ڤولتات. وكانت ثمان من هذه العمليات لاستئصال الزائدة الدودية ،

وثلاثون عملية قيصرية للولادة .

وطرحت السؤال التالي على رئيس الأطباء :

« هل يمكنكم مواجهة ازدياد شدة الغارات في منطقة هانوي ؟ »

« إن قسمنا يملك أيضاً مستشفيين ثانويين يشتمل كل واحد منهما على ٢٠٠ سريراً ولكي أرد على سؤالك أقول : إني أعتقد أن مواجهة غارات جديدة ممكن بفضل عيادات القرى أيضاً » .

وأراني حقائب الإسعاف الجراحية للحالات العاجلة التي تزود بها المفارز المتحركة . إنها حقائب صغيرة من الجلد . ولقد لاحظت أن مضخة الهواء المخصصة لإعطاء الإيتير أقرب ما تكون إلى فتحة في كرة القدم . إلا أن الأدوات الجراحية ذاتها ، وهي من صنع ألماني ، بدت لي من نوع جيد جداً . كما أن جهاز تعقيم المستشفى مصنوع من برميل محروقات مقصوص ومثبت في الأرض . ويحمى بالخشب أو بفحم الخشب . وقد رأيت جهاز تعقيم آخر ، حديث التصميم . إلا أنه ينتظر اليوم الذي تسطع فيه الكهرباء. وقد صنعوا من مضخة دراجة بسيطة مضخة تقوم بعمليات التفريغ . كما صنعوا دولاباً يحتوي على أدوية ينبغي المحافظة عليها بحرارة ثابتة . ولقد حصلوا على هذه الحرارة بواسطة مصباح بترولي .

« إن ارتجال الحلول الصحيحة وابتكارها جزء من السياسة التي تشجعها الوزارة . ونحن نريد أن يتعود موظفونا على هذه السياسة ، وأن يحصلوا على نتائج جيدة باستخدام الحد الأدنى من التجهيزات الحديثة » .

ولاحظت على جدران المعبد رسوماً رسمت بالطباشير . وتمثل هذه الرسوم في الحقيقة بعض مظاهر أساليب التحكم بالولادات . وفي الوقت نفسه كانت هذه الرسوم تمثل دروساً مجانية للمرضى الذين كانوا يرونها . ومع ذلك ، سيأتي اليوم الذي يصنع فيه الدكتور تاش أكسيره في الخصوبة والإجداب ، حيث تفقد هذه الصور فائدتها .

وسألته وأنا أستعد لإنهاء جولتي في آفاق الإدارات الطبية . عن معاملة الفيتناميين للطيارين الأمريكيين الأسرى .

فرد قائلاً :

« إن الأمريكيين يغزون بلادنا مرة أخرى أيضاً ، ليؤكدوا لنا رغباتهم في السلام .

فقد قصفوا نام دينه بصورة وحشية، واستخدموا طائراتهم ال(ب ـ ٥٢) ضد مقاطعة كوانغ بينه . ويتابعون تصعيد الحرب بمهاجمة ضواحي هانوي وهايفونغ ، الأمر الذي جعل إدارتنا الطبية مستعدة لكل الاحتمالات . ولقد صرح جونسون مراراً بأنهم لم يقصفوا المستشفيات والمدارس أبداً . وهذا شيء يؤمن به الشعب الأمريكي بدون شك . ولكن تنقلاتكم في داخل بلادنا سمحت لكم بأن تحكموا على هذه الأكاذيب بشكل مفصل . إذن فنحن نعتبر الطيارين الأمريكيين الذين يأتون لمهاجمتنا مجرمين . إن لائحة الأطفال ومرضى الجذام ، ومرضى السل ، والمرضى الآخرين الذين قتلهم أولئك الطيارون ، عبارة عن لائحة طويلة .... بطول اللائحة التي تضم المستشفيات والبيوت والطرق التي دمروها . إنهم مجرمون ويستحقون العقاب كمجرمين . ومع ذلك فإننا حين نأسر أحدهم ونراه جريحاً نعتني به كما نعتني بمواطنينا تماماً » .

الفصل السابع

نساء في الحرب

عندما يتطرق حكام فيتنام الشمالية إلى الدور الذي تقوم به النساء في الحرب تمتلىء أنظارهم بالإعجاب ، ويغدو انفعالهم واضحاً مرئياً . إني لا أبالغ بما أقول : فالإعجاب لا يقتصر أبداً على الزعماء وحدهم . فمعظم الناس ينفعلو ن بالشكل نفسه كلما بحثت هذه المسألة أمامهم .

فقد بلغ استقلال النساء الفيتناميات ، أثناء هذه الحرب ، بعداً جديداً . فقد نجحن في السابق خلال بضع سنوات من السلم والاستقلال في الخروج من الوضع المتخلف الذي فرضته عليهن قرون الإقطاع السابقة ، والذي دعمته وفرضت استمراره ظروف الاستعمار والاحتلال فيما بعد . وقد احتلت المرأة الفيتنامية أهمية رئيسية في حياة الأمة ، وكانت الهجمات الجوية هي التي أعطتها الدفع والزخم الضروريين . وفي الماضي كان لا بد من وجود النساء كزوجات وكأمهات فقط . أما الآن فلا بد من وجود النساء لكثير من الأسباب الأخرى . فهن يساهمن اليوم في الإنتاج كعاملات ، ومديرات للمصانع ، وفي الاستثمارات الزراعية او المستشفيات ، وينقلبن إلى مقاتلات إذا احتاج الأمر . وهن بعد ذلك كله يمثلن القوة الاقتصادية الكبرى التي سمحت بتحرير الرجال كي يكونوا مستعدين للعمل في الجبهة ، سواء أكانت هذه الجبهة جبهة الحرب الحقيقية ، أو أعمال البناء المنهكة الصعبة في الجبال ، أو الاعتناء بالطرقات وصيانتها وترميمها . إن المرأة الفيتنامية تستعذب اليوم مهماتها الجديدة ، وتفخر بها إلى حد كبير .

إنهن مأخوذات في دوامة الثورة الجديدة التي تجتاح الأرياف . وقد تغيرن بصورة

نهائية . واعتباراً من الآن تجاوزت النساء مرحلة المساواة ضمن إطار المجتمع الفيتنامي . فهن عناصر لا يمكن الاستغناء عنها . وقد حصلن على تقدير جديد من المجتمع الفيتنامي ، وتَعشن حياة مليئة بالكرامة ، والشجاعة ، والمرح بالقدر الذي يسمح به دورهن في المعركة . وقد عرفت المرأة الفيتنامية بصورة خاصة كيف تحافظ على كل أنوثتها ، رغم جميع المسؤوليات التي تحملتها . والتي كانت تقع عادة على عاتق الرجال . وهناك حكمة فيتنامية قديمة تقول : « إذا وصل القراصنة إلى البلاد ، ينبغي على النساء أن يحملن السلاح أيضاً » . وكثيراً ما قيلت لي هذه الحكمة عندما كان الفيتناميون يفسرون لي الدور البطولي الذي لعبته المرأة في تاريخ بلادهم . وقد ابتدأ كفاح المرأة في فيتنام بالأختين تروونغ تراك ، وتروونغ ني اللتين قادتا جيشاً انضم إليه الفلاحون في عام ٤٠ بعد الميلاد ، وطردتا من البلاد الغزاة الصينيين (هان) . ثم أسست هاتان الأختان مملكة لم تدم سوى ثلاث سنوات ، وعاد الهان إلى غزو فيتنام بعد فترة بسيطة .

وقد تحررت النساء الفيتناميات تحرراً نسبياً منذ عدة سنوات . حقاً إن العادات الإقطاعية ما زالت تفرض عليهن حياة قاسية في بعض القرى ، حيث لا تزال المرأة هناك تتزوج حسب رغبات أهلها . وكثير من أولئك الأهل ما زالوا يرغبون حتى الآن أن تصبغ بناتهن أسنانهن ، وأن ترتدين ألبسة مقفلة بالأزرار حتى العنق ، وأن يقمن بالواجبات المفروضة عليهن تقليدياً : كنقل غراس الأرز ، ومراقبة البط ، وبيع المواد الزراعية في السوق . غير أن المرأة الفيتنامية الشابة قد بدأت الآن تتحرر من هذه الالتزامات كما يؤكده لنا الجدول التالي :

النسبة المئوية لاستخدام النساء :

الصناعة الخفيفة	:	٤٨ ٪
الصناعات اليدوية	:	٤٥ ٪
الإدارة	:	٣٨ ٪
أجهزة الدولة الاقتصادية	:	٣٢ ٪
الصناعة الثقيلة	:	٢٣ ٪

ويعود تاريخ هذه الأرقام إلى ما قبل الهجوم الأمريكي . وفي الوقت الحاضر ، يقوم النساء بالجزء الأكبر من العمل الإنتاجي ، حيث تبلغ نسبة استخدامهن في الزراعة

من ٧٠٪ إلى ٨٠٪ . وفوق ذلك فالمرأة الفيتنامية لا تكتفي الآن بأن تكون عاملة غير مختصة . وقد حدثني نغوين فان هيوين وزير التربية الوطنية عن دورات تخصص زراعية مفتوحة في القرى للنساء ، منذ أن ذهب الرجال إلى الجبهة .

وقد قالت لي السيدة لي تو ، وهي سيدة تمتاز بوجه مشرق ، وتلبس نظارات ، وتعمل عضوة تقوم بالأعباء الكبرى في مصلحة الشؤون الدولية لمنظمة نساء هانوي . ما يلي :

« **إن مشاركة النساء في العمل الجماعي هو أساس تطورنا** » وأضافت تقول :

« **بعد اثني عشر عاماً من هذه المشاركة ، غالباً ما تبلغ النساء مستوى التعليم العالي . أما بالنسبة للأجور ، فهناك مساواة كاملة مع الرجال عندما يتساوى العمل بين الرجل والمرأة ، ونحن نستفيد من معونة الدولة للعائلة للولادات ، ولإجازات الأمومة ... الخ . إنه شيء جديد كل الجدة في تاريخ بلادنا . وهناك مصدر آخر لسعادتنا نحن النساء ، وهو أن أولادنا صبياناً وبنات يذهبون جميعاً إلى المدرسة . وفي الماضي ، كان من واجب الفتيات الاعتناء بإخوتهن الصغار من الصبيان والبنات ، إذ لم يكن هناك أمكنة كافية في المدارس . ولقد ساهم كل هذا إلى حد كبير في تحررنا ، وهذا ما يفسر الحماسة التي تحلينا بها ، والتي أقدمنا بها على تحمل الأعباء الجديدة التي فرضتها الحرب علينا . وفي ١٩ مارس (آذار) سنة ١٩٦٥ ، بعد الهجمات الجوية الأمريكية الأولى ، حدد حكام بلادنا للنساء ثلاثة أهداف رئيسية : ١) دفع الإنتاج والدفاع عن الوطن ٢) تأمين الحياة الطبيعية للشعب . ٣) المساهمة في القتال .**

وتتضمن مهمتنا الأساسية إذن العمل في الإنتاج وحمايته .. ويعرف مجتمعنا في مجموعه توزيعاً جديداً للعمل . فالنساء صالحات جداً للإنتاج ، وبخاصة في الزراعة والصناعات الخفيفة . وعلينا نحن النساء ، أن نحل محل الرجال الذين يذهبون إلى ساحات القتال ، في الحقول وفي المصانع ، ويحس المقاتلون في الجبهة بالراحة والاطمئنان عندما يعرفون أننا نصون مؤخرتهم . ولكن إذا وصل العدو إلى أمكنة عملنا ، فإننا سنساهم في القتال . ونحن مصممات على ذلك تصميماً كاملاً .

ونؤكد حقوقنا الأساسية في المساواة مع الرجال عندما نخوض معركة الإنتاج بكل طاقاتنا وإمكاناتنا ، هذه المعركة التي ترفع من مستوى كفاءتنا الفنية والإدارية والفكرية .

ثم فسرت لي وهي تتنهد ، بأن بعض شقيقاتها لم تتعودن على هذا الدور السلبي

كمنتجات بسيطات . وهن على العكس يعتبرن النقطة الثالثة من التوجيهات الرسمية وكأنها أهم نقطة . فهن راغبات بالذهاب إلى القتال ، أو الاعتناء بالجرحى وجلب الذخائر ونقل التموين على الأقل . ولكن اللجنة المركزية لحزب لاودونغ (حزب العمال) قد صدقت على التوجيه رقم ٩٩ الخاص بنشاط النساء ، والذي ينص على أن مهمتهن الرئيسية هي الإنتاج . وأن عليهن أن « **يفعلن كل شيء لتأمين رفاههن ، ورفاه المسنين والأطفال ، الذين تسبب لهم الحرب كل يوم صعوبات جديدة** » . وعلى هذه الأسس شكلت منظمة النساء حركة « المسؤوليات الثلاث » وهي من إيحاء موازٍ لإيحاء حركة « الاستعدادات الثلاثة » التي تجمع الشباب . وهذه المسؤوليات الثلاث هي :

١ ــ الحلول محل الرجال كي نجعلهم أحراراً في القتال .

٢ ــ تحمل مسؤوليات العائلة وتشجيع الزوج والأطفال للذهاب إلى الجبهة .

٣ ــ بذل العون للقتال أو المساهمة فيه عندما يغدو ذلك ضرورياً .

وتعتقد لي تو أن هذا المنهاج المؤلف من ثلاثة أجزاء هدّأ أكثر أعضاء الحركة حماساً وانفعالاً . ولا تخفي هذه الحركة مع ذلك الواقع التالي : بما أن الأمريكيين هاجمونا من جانبي خط العرض ١٧ ، فإن إعادة توحيد البلاد أضحى جزءاً من برنامجنا . وتحدد اولى مهامنا ذات الطابع الوطني بالكلمات التالية : « **حماية وسائل الإنتاج ومتابعة بناء الاشتراكية والدفاع عن الشمال ، وتحرير الجنوب بغية إعادة توحيد البلاد** ». فلا يمكن أن تقنع النساء بمجرد الكلام ، وأن تقبلن بأن تشن الحرب ضد قطرين معزولين عن بعضهما ، لأن القبول بمثل هذا عبارة عن سخف وبلادة . فلن يضعن السلاح ، ولن يعود الأزواج والأبناء إلى بيوتهم ، ما دام الأمريكيون لم يوقفوا هجماتهم ضد شطري البلاد . ولن يعود الأزواج إلى بيوتهم إذا لم يطرد الأمريكيون من الجنوب ، وإذا لم يُعَدْ توحيد البلاد . وقد ألحت لي تو على هذه النقطة قائلة :

« **إن أكثر ما يلفت النظر ، هو أن الروح الثورية والوطنية عند النساء تتقدم خطوات كبيرة . فإرادة المشاركة في تحرير الجنوب هي بالنسبة للنساء حافز قوي جداً . وبعد شهرين من إعلان حركتهن ، انضم اليها أكثر من مليوني امرأة ، سواء أكان ذلك في السهول أم في الجبال ، ومن خط العرض ١٧ حتى أكثر الجزر بعداً** » .

ولكي « تتضرس النساء وتحصلن على الفضائل الثورية » تذهب ساكنات المناطق التي بقيت بعيدة عن القتال إلى مقاطعات كوانغ بينه ، وليفه حيث تحتدم الحرب . وهناك

تتعلمن كيف تحرث شقيقاتهن وتحصدن برغم الغارات الجوية الأمريكية اليومية .

« إن الرفاق حكام تلك المناطق ، يأتون إلى هنا بين آن وآخر ليطلعوننا على كل ما يجري في مناطقهم . ونحن نرسل بعض العناصر القيادية من حركتنا إلى مناطقهم ، ونطبع النشرات لنطلع الجميع على تجارب النساء في الخط الأول . وحيثما يهاجم الأمريكيون ، فإنهم يجدون نساءاً يحاربن في ميادين المعارك ببطولة ، كما يعملن في ميادين الإنتاج ببطولة » .

وكنت ألتقي خلال جولاتي بنساء شابات تميزن ببطولاتهن في الجبهة ، وفي ظروف غير عادية في الغالب . وقد رأيت إحداهن تهرع تحت نار العدو إلى قضيب المعدية المائية في غيب ، لتوجهها بعد أن قتل قائدها وجُرح معاونه . ورأيت فتاة صبية رقيقة أخرى تزن ٤٤ كغ ، تحمل ضعف وزنها من الذخائر أثناء معركة من أجل جسر هام رونغ . ورأيت فتاة أخرى من الجماعة نفسها ، وهي تركض على حافة النهر تحت وابل من القنابل ، لتنقذ مركباً مملوءاً بالأرز . ثم رأيت بعض الفتيات الصغيرات تقمن بعدة رحلات (ذهاباً وإياباً) تحت القصف الجوي ، وتحت نار الرشاشات لنقل أطفال روضة من رياض الأطفال إلى الملجأ . ورأيت عشرات وعشرات من الفتيات تصطبغ وجوههن بحمرة الدم الذي يغلي عندما كانت زميلاتهن تقصصن عليهن حكايات بطولاتهن . وتملك كثير من قرى المناطق الساحلية الآن متاحف حربية صغيرة . ونجد فيها قطع الطائرات الأمريكية التي أسقطت فوق أرضها ، وتجهيزات الطيارين الأمريكيين الذين أسروا أو قتلوا ، وإلى جانبها صور الفيتناميين الذين ضحوا بحياتهم في المعركة ، ومن بينهم عدد كبير من النساء .

ورأيت العاملات الشابات لمصنع من مصانع المعلبات في نام دينه ، يتدربن تدريباً جدياً قاسياً على القتال بالسلاح الأبيض . ورأيت انقضاض بعضهن بكل شراسة ، والحراب مركبات على فوهات بنادقهن ، ضد زميلاتهن المصطفات على نسق . ولم تكن هذه الأخيرات مسلحات ، وإنما كن يتفادين الضربات بمهارة محاولات انتزاع سلاح خصمهن . ولقد كن جميعاً فتيات جميلات نحيلات ، وجسمهن يقاوم كالفولاذ . فلو حاول الأمريكيون القيام بإنزال برمائي مفاجىء ، فإنهم سيجدون أمامهم عشرات الألوف من هؤلاء النساء الخبيرات بقتال الالتحام . وفي المصنع المذكور تعد النساء ٨٠٪ من أصل تعداد العمال ، أما الـ ٢٠٪ فهم من الرجال المسنين . وتمثل النساء أيضاً

٩٠ ٪ من تعداد جماعات الدفاع الذاتي . وتحت تصرف هذه الجماعات مواقع رمي دائمة ، نظمت على طول النهر . ويشتمل التسليح على رشاشات ثقيلة من عيار ١٢,٧ مم ، ومدافع ٢٠ مم . وكان سدنة هذه الأسلحة كلها من النساء . وقد شاركت النساء قبل ذلك بست عشرة معركة لحماية المصنع . وكان الوضع مشابهاً للوضع في هايفونغ ، حيث كانت جماعات الدفاع الذاتي للمصانع مؤلفة من النساء المدربات تدريباً عالياً على استخدام الأسلحة . إن مساعد قائد جيش التحرير في الجنوب هو السيدة نغيين‌تي دينه ، الأمر الذي يضيف إلى نساء الشمال مزيداً من العزة والفخار .

ثم تابعت لي تو قائلة : « تشكل نساؤنا الآن ٧٠ – ٨٠٪ من اليد العاملة في الجمعيات التعاونية الزراعية . وكلما ازدادت حدة الصراع وقسوته تصاعد فخار النساء بمهمتهن ، فلقد قطعن على أنفسهن عهداً بأن لا يتراجعن أبداً ، ولا يتطلب الإنتاج العرق فقط كما كان الحال في الماضي ، بل يتطلب الكثير من الدماء . لذا تتطوع أشجع الفتيات للعمل في مواقع العمل الخطيرة ، وشعارهن : عدم التراجع أبداً .

وغالباً ما يقوم الرجال قبل الذهاب إلى القتال بحفر الملاجيء لنسائهم قرب الحقول التي يعملن فيها . ولكن نادراً ما تستخدم النساء هذه الملاجيء عندما تحلق قاذفات القنابل فوق رؤوسهن . وقد تبقى الطائرات مدة طويلة فوق منطقة من المناطق ، ولكن هذا لا يمنع النساء من البقاء في أماكنهن لمتابعة الحصاد مثلاً . وقد تلقي بهن الصدمة الانفجارية أحياناً على الأرض ، وهن حاملات حزم الأرز ، ولكنهن ينهضن فوراً ، ويحملن حزمهن ليتابعن المسير . وفي مثل هذه اللحظات تحس النساء بأنهن ملتحمات بشكل وثيق مع أزواجهن الموجودين في جبهة القتال . وبالإضافة إلى ذلك ، توجد مفارز من الدفاع الذاتي لتأمين الحراسة المستمرة لمكان عمل النساء ، كما أن عدداً من رجال الإسعاف يقفون دائماً على أهبة الاستعداد لمعالجة الجرحى . إن الصراع ضد الطبيعة لم يعد أمراً كافياً لجني المحاصيل ، ومن الضروري اليوم الدخول في صراع ضد عدو متوحش شديد الخطورة » .

ولقد ساعد قيام النساء بالزراعة على تحقيق الثورة التقنية في الريف ، كما ساعد على تحسين شروط العمل البدني . فلدى الفلاحين اليوم آلات درس تعمل بدواسات تحركها الأقدام ، على حين كان درس الحب في الماضي عملية يدوية . ولم تعد عملية التعشيب المضنية تتم يدوياً ، إذ أن هناك أدوات صغيرة مصنوعة خصيصاً لعملية التعشيب .

أما تذرية الحب بالهاون فقد استعيض عنها بمضارب آلية موجودة في جميع الجمعيات التعاونية تقريباً . ومن الأمور « الثورية » في حياة الفلاحين نقل حزم المحصول داخل عربات يدوية صغيرة ، بدلاً من نقلها في سلال معلقة على طرفي قضيب من البامبو ، كما كانت الحالة منذ قرون طويلة . ولمرور العربات اليدوية ، لجأ الفلاحون إلى تمهيد وتوسيع الممرات الترابية التي تفصل بين حقول الأرز . ولقد نفذ هذا التوسيع في الوقت الذي تم فيه تعديل نظام الري ، وتسوية المستوى العام للحقول . وبهذا اختفت قطع الأرض الصغيرة المتشابكة السابقة ، التي كانت موجودة في الماضي كنتيجة لاختلاف مستويات الأرض ، وحل محلها حقول أرز واسعة مربعة أو مستطيلة ، تقسمها مجاري ري ، وممرات مغطاة بالمعدن غالباً . وهذا مظهر من أهم مظاهر « الثورة ».

« إن نساءنا سعيدات جداً بتعلم طرق زراعية جديدة ، وستجدن الكثير مما تعلمنه لأزواجهن عندما سيعودون من مناطق القتال . إذ تتبع النساء اليوم دورات اختصاص فنية ، وتتعلمن أسلوب تضييق صفوف المزروعات عند غرس الشتلات ، والزراعة بخطوط مستقيمة بغية تسهيل عملية التعشيب الآلي، وتخطيط خطوط الشتلات من الشرق إلى الغرب لزيادة فاعلية أشعة الشمس ، واختيار البذار لزيادة الإنتاج . ولقد أدى تطور النساء واطلاعهن على التقنية الحديثة إلى رفع مستوى الإنتاج في كثير من الجمعيات التعاونية ، حتى بلغ هذا الإنتاج ٥ أطنان من الأرز في الهكتار الواحد في عام ١٩٦٥ كما أن ارتفاع مستوى الإنتاج ناجم ولا ريب عن دأبهن ونشاطهن ، فهناك مقاطعات وصلت فيها النساء إلى تحقيق ٤٠٠ يوم عمل في السنة » .

ويحسب يوم العمل في الحقيقة بناء على عشر نقاط تمثل حرث وزرع وتنظيف ... الخ مساحة من الأرض . ولقد توصلت بعض النسوة في عدد من المزارع التي زرعنها إلى تسجيل ٣٥ نقطة في اليوم . ولم يكن هذا الأمر ملحاً قبل العدوان الأمريكي ، إذ كان هناك فائض في اليد العاملة ، وكان من النادر أن يشتغل عامل المزرعة الجماعية أكثر من ١٧٠ يوماً في السنة ، وخاصة في السهول الساحلية أو دلتا النهر الأحمر .

وبغية تحقيق جزء من الخطة الاقتصادية التي وضعها المسؤولون لسنتين فقط ، بدأت عضوات حركة « المسؤوليات الثلاث » الموجودة في الريف بالسير خطوة إلى الأمام على طريق مكننة الزراعة ، وإنقاص المجهود البدني اللازم للعمل ، مع زيادة الإنتاج والوصول إلى مردود يعادل ٥ أطنان من الأرز في الهكتار بالنسبة لجميع أراضي البلاد . وسيجد الأزواج مفاجآت كبيرة عندما يعودون فيرون زوجاتهم وقد تعلمن

أسلوب الحرث الصحيح ، وتحضير الشتلات في المشاتل ، وتغطية السقوف بتبن الأرز بعد الحصاد ، والقيام بأعمال النجارة .

ولقد حدثتني السيدة اللطيفة لي تو بعد ذلك عن الصناعة فقالت :

« تتضمن مهمتنا إعداد عاملات جديدات متخصصات وماهرات بكل سرعة . وعلى كل عاملة من العاملات المتخصصات أن تأخذ على عاتقها مهمة تدريب عاملة مبتدئة . وهناك دروس مسائية لمختلف الاختصاصات . ولإعداد مجموعات نسائية قادرة على إدارة المشاريع ، تنفذ المؤسسات عملية «التسيير الذاتي» خلال عدة أسابيع أو شهور . وبهذا تترك الإدارة للنساء لتتدربن على تنفيذ مهمات المستقبل . ولقد حصلنا حتى الآن على نتائج هامة في مجال إعداد الكادرات بهذه الوسيلة . علماً بأن النقابات قدمت لنا في هذا الصدد مساعدات جليلة » .

ثم حدثتني عن مصنع من مصانع النسيج في هانوي والمسمى بمصنع « ٨ مارس » (آذار) حيث يضم هذا المصنع **١٩٠٦** عاملة منتمية إلى حركة « المسؤوليات الثلاث » تخصصت كل واحدة منهن في مجال أو مجالين مختلفين . وتم محاولة التطور التقني بناء على المبدأ التالي : لا يكفي ان تزيد العاملة خبرتها في اختصاصها الخاص ، ولكن عليها أن تتقن أيضاً اختصاصاً أو اثنين آخرين ، حتى تستطيع العاملات تبادل الأعمال عند اللزوم .

« وبهذا الشكل انتقلت ٢٠٠ عاملة إلى مستوى العاملات المتخصصات ، وتعلمن في الوقت نفسه مهنة الغزل ، كما تعلمت عاملات أخريات مهنة إصلاح الآلات ، وهي مهنة كانت في الماضي وقفاً على الرجال . ولقد تجاوزت النساء أهداف الخطة في عام ٦٥ بأكثر من مليوني متر من النسيج » .

وشرحت لي السيدة لي تو بعد ذلك ، كيف دخلت نساء الشمال بناء على توجيهات الرئيس هو في منافسة مع أخواتهن في الجنوب ، لتنفيذ « المهمات » التالية بأكبر سرعة ممكنة :

١ ــ الصراع ضد الأمريكيين وعملائهم .

٢ ــ تحقيق الإنتاج الجيد مع التوفير .

٣ ــ تغذية جرحى الحرب والعناية بهم .

٤ ــ القيام بالواجبات العائلية ، ورعاية الأطفال وتعليمهم .
٥ ــ الحفاظ على الفضائل والسلوك المستقيم .

« هــذه هي العهود التي قطعتها على نفسها نساء الشمال والجنوب ، نساء هانوي وسايجون ، ونساء منطقتنا تاي باك وأخواتهن في الهضاب الأخرى . وسيظهر تقرير النتائج التي يتم الوصول اليها في ٨ مارس (آذار) ١٩٦٧ » .

ثم كررت لي تو بأن هناك صراعاً عنيفاً لتوحيد البلاد :

« إننــا سنعمل كل ما بوسعنا لتوحيد البلاد بسرعة ، ولإنهاء أيام البؤس والتعاسة في الجنوب ، ولطرد الأمريكيين بأكبر سرعة ممكنة خارج فيتنام . إن رغبة الكفاح هذه صفة عامة تتسم بهــا جميع نساء فيتنام » .

ثم ذكرت لي بعد ذلك الدور الذي لعبته الأختان ترو ونغ في القرن الأول الميلادي ، كما ذكرت دور محاربة فيتنامية أخرى هي تريوترين نوونغ التي قاتلت مع أخيها على رأس جيش فيتنامي ، وأنزلت خسائر فادحة بالمحتلين الصينيين في عام ٢٤٨ ، خلال حكم أسرة فو . ثم حدثتني عن البطولة النسائية منذ ذلك العصر قائلة :

« لقــد تعرضت النساء إلى الكثير من الآلام خلال حرب المقاومة الأولى . وإن ذكريات الأحزان والآلام لم تمح بعد من قلوبهن . وليس هناك من قرية لا تذكر بأسى فظائع العمليات الوحشية ... لذا فإنني وأخواتي النساء نقف هذه المرة إلى جانب الرجال لنقاتل خمسة أو عشرة أو خمسة عشر عاماً أو أكثر ، إذا كان ذلك ضرورياً . ومن الواجب أن لا ننسى مشاعرنا نحو أخواتنا في الجنوب ، ونحن على استعداد للقيام بأي عمل لتقصير مدة آلامهن ، وللسير على غرار مثلهن البطولي . وكلنا على استعــداد للتضحية بأنفسنا من أجلهن » .

وقد تبدو هذه الكلمات للقارىء عادية بسيطة . ولكنها كانت شيئاً آخر عندما قالتها هذه المرأة اللطيفة بنبرتها الهادئة . فهناك نساء فيتناميات من الأرومة نفسها ، تتمتعــن بالظرف والأنوثة ، وتتحدين مع ذلك الموت ، أو أي مصير أشد قسوة ، دون أن تتخلين عن الابتسامة الوديعة المتواضعة نفسها .

لقد قبلن حمل عبء ثقيل على أكتافهن الضعيفة ، ومثلهن كمثل الفتاة التي حملت ضعف وزنها من الذخيرة إلى مقاتلي جسر هام رونغ . إن عليهن القيام مقام الرجال في الحقول ، والبقاء مع ذلك أمهات رؤومات ، ونساء قادرات على العناية بالآخرين ، فغالباً ما تضطرهن الظروف إلى العناية بالمسنين والأطفال بآن واحد . وتساعدهن مدارس

الأطفال ودور الحضانة أحياناً على القيام بمهمتهن ، ولكن هذه المؤسسات لم تنج من ويلات الحرب ، ويشرف عليها عادة الأشخاص المسنون . ولكن ما أن تأتي الطائرات ، حتى تظهر ضرورة وجود شبان أقوياء قادرين على نقل عدد كبير من الأطفال دفعة واحدة إلى الملاجىء . فإذا لم يتوفر هذا العدد من الشبان ، كان على الأمهات أن تتركن الحقول وتهرعن بسرعة لإنقاذ الأطفال ، منذ أن تعلن أجهزة الإنذار عن اقتراب طائرة معادية . ويتطلب كل هذا تنظيماً جيداً متقناً . ولقد رأيت في بعض دور الحضانة التي زرتها جهازاً من الحبال والبكرات والسلال المبطنة من الداخل بالأقمشة والقطن ، يسمح بإنزال أربعة أطفال رضع بـآن واحد إلى ملجأ محفور تحت مكـان استراحتهم الطبيعي مباشرة .

إن عدد الولادات سيتناقص بلا شك خارج الريف بغية تنظيم الأسرة . وسيتم ذلك قبل إعداد واستخدام دواء الدكتور تاش . ويعود ذلك إلى وجود عدد كبير من الشباب ممن هم في سن الزواج في أماكن نائية بعيداً عن بيوتهم . بالإضافة إلى أن الحكومـة نصحت الشباب بصورة رسمية بأن يفكروا جلياً قبل أن يقعوا في شراك الحب ... وأن يفكروا أكثر وأكثر قبل أن يتزوجوا وينجبوا أطفالاً خلال فترة الحرب على الأقل . وتنصح الحكومة الفتيات بأن لا تتزوجن قبل سن الثالثة والعشرين ، كما تنصح الشباب بعدم الإقدام على الزواج قبل سن الخامسة والعشرين . وتقوم الهيئات والمنظمات الاجتماعية بالتحقق من تنفيذ هذه التدابير ، في الحالات التي يضعف فيها الحس الانضباطي . وتعد فيتنام الشمالية اليوم ١٧ مليون نسمة . منهم أكثر من ٨ ملايين يقل سنهم عن ١٥ عاماً . وهذا يعني أن عدد الولادات سيتناقص بصورة ملحوظة خلال السنوات المقبلة .

ولقد تم تدشين مصنع النسيج المسمى «٨ مارس» في ضواحي هانوي بصورة رسمية في ٨ مارس (آذار) ١٩٦٥ . أي بعد بدء الأمريكيين بشن الهجمات الجوية المنهجية بشهر واحد . ويعتبر هذا المصنع من أهم مصانع النسيج الفيتنامية بعد مصنع نام دينه ، ويبلغ عدد عماله ٦,٥٠٠ عاملاً منهم ٧٧٪ من النساء . وجميع العمال أعضاء في حركة « الاستعدادات الثلاثة » . وتتألف كتيبة الدفاع الذاتي فيه من ٢,٠٠٠ مقاتلاً ، وتضم فصيلة تؤمن الحراسة الدائمة للمواقع الدفاعية .. ولقد تم إخلاء آلات بعض الورشات لتأسيس عدد من المصانع الصغيرة المبعثرة في الريف . أما الأبنية التي أقيمت إلى جواره لإيواء ٣,٤٠٠ عامـلاً فهي مهجورة باستثناء جناحين يقطن فيهما أفراد كتيبة الدفاع الذاتي وعائلاتهم .

ومن الملاحظ أن الغارات الجوية لا تكبد الفيتناميين إلا عدداً صغيراً من الضحايا البشرية . ويعود ذلك إلى تشجيع السكان على سكنى الطوابق الأرضية والدور المؤلفة من طابق واحد ، بحيث يستطيعون الوصول إلى الملاجىء خلال ثوان ، ويتحاشون الوقوع تحت أنقاض المنازل العالية ، وهذه أمور ضرورية عندما تأتي الطائرات المغيرة بسرعة تفوق سرعة الصوت ، وعندما تكون انفجارات قنابل الطائرات وقذائف المدفعية المضادة للطائرات هي إشارة الإنذار الوحيدة .

وتبدو ملاجىء مصنع «٨ مارس» ممتازة . فهنالك خنادق متعرجة ، ذات جدران مدعمة بالآجر ، تبدأ من مخارج الأبنية ، لتنتهي بالملاجىء المقواة الكائنة وسط الحقول وهكذا يستطيع العمال بلوغ الملاجىء بسرعة مع تأمين حماية رؤوسهم نظراً لأنها على مستوى سطح الأرض . وفي ساحة المصنع عدد من الملاجىء الفردية الأسطوانية كالملاجىء المألوفة في كل مكان داخل البلاد . وهي عبارة عن أنابيب إسمنتية مصنوعة على نطاق واسع في ورشات خاصة . والأنبوب الإسمنتي مغلق من الأسفل ومفتوح من الأعلى . ويتم وضعه داخل باطن الأرض لإيواء شخص واحد . ويسمح شكله بمقاومة الصدمة الانفجارية بشكل جيد . لذا فهو يحمي من يلتجىء إليه إذا لم يتلق اصابة مباشرة . ويفيد القاع الإسمنتي في منع تسرب الماء إلى داخل الأنبوب ، علماً بأن باطن الأرض مشبع بالماء في المناطق المستوية . وتكفي كمية الهواء الموجودة في الأنبوب للحفاظ على حياة الشخص الملتجىء بداخله فترة كافية ، تسمح لرجال الإنقاذ برفع التراب الذي قد ينهار على فتحة الأنبوب ويسدها عند انفجار قنابل الطائرات بالقرب منه وتوجد هذه الملاجىء الفردية أيضاً على جانبي الطرق الهامة ليستخدمها المارة عند وقوع غارات ، كما توجد على جانبي الشوارع الرئيسية في القرى . وتكمل هذه الملاجىء الفردية بالملاجىء المقواة العائلية أو الجماعية المقامة على مقربة من المناطق السكنية أو أماكن العمل .

وفي قسم النسيج رأيت صفوف الآلات تنتهي بمشبك يحمل البنادق . ولاحظت حقائب الإسعاف المزينة بالصليب الأحمر موضوعة بشكل مرئي . ويعمل المصنع **٢٤** ساعة في اليوم ، و ٧ أيام في الأسبوع ، لأن من الضروري إنتاج أكبر كمية قبل أن يقع « ما ليس في الحسبان » . ويتضمن جهاز الإنذار أنواراً حمراً أو زرقاً ، وهي أكثر فاعلية من صفارات الإنذار وسط ضجيج الآلات المعهود . ولقد قالت لي شابة تعمل في قسم الصباغة ، ووجهها مغطى بالشحم والعرق ، وهي تحاول فك صامولة ضخمة بمفتاح إنجليزي كبير : «**لقد قطعنا العهد بأن ننفذ مهمات أزواجنا وأخوتنا**

المقاتلين في الجبهة ، ولا بد من أن ننفذ وعدنا ».

ثم شرح لي الدليل الذي وضعته إدارة المصنع تحت تصرفي ما يلي :

« لقــد أراد جميع الشبان الذهاب إلى جبهة القتال . وكان لا بد لنا من الاحتفاظ بالفنيين والعمال المتخصصين ، لذا ألقينا عليهم عدداً من المحاضرات لإقناعهم بــأن الإنتاج يشكل جزءاً من المهمات الأساسية الداخلة في حقل الأفضلية الأولى ، ولولا ذلك لما بقي في المصنع أحد .... ثم علمنا آلاف الفتيات مهناً لم تكن المرأة تعرف عنها شيئاً ، كإصلاح الآلات ، وإصلاح الخطوط الكهربائية ... الخ ».

وفي اليوم التالي لأول قصف جوي على ضواحي العاصمة زرت إذاعة هــانوي وطلبت الحديث مع « هانوي هانا » وهذا هو الاسم الذي يطلقه الأمريكيون في فيتنام الجنوبية على المذيعة الفيتنامية الشابة . للبرنامج الإنجليزي الموجه ، لإقناعهم بأنهم يقومون بحرب غير عادلة ، وخاسرة سلفاً . و «هانا» في الحقيقة فتاتان شابتان جميلتان . ولقد كان العمل في يوم زيارتي من نصيب ثوهونغ (عطر الخريف) . أما زميلتهــا زهرة الأوركيديا العطرة التي أنهت دراستها في كامبردج فكانت تستريح من عمل اليوم السابق ولقد علمت بترحيل أطفال ثوهونغ إلى الريف أسوة بمعظم أطفال هانوي ... وعندما سألت المذيعة الشابة عن رأيها بالتهديد الجاثم فوق صدر العاصمة ، كان جوابها الواضح باللغة الإنجليزية يلخص بشكل جيد وجهة نظر مجموع أفراد الشعب :

« إننا سنتابع القتال حتى النصر النهائي ولو دمرت هانوي عن بكرة أبيها ... إن الأمريكيين عاجزون عن ربح الحرب ، لأن شعبنا سيبقى متحداً ومستعداً من الناحية المادية والمعنوية لمتابعة الكفاح المسلح مهما كانت الظروف » .

الفصل الثامن

النحل وسدود الماء الكتيمة

« **لقد قطعنا على أنفسنا عهداً بأن نحب النحل كما نحب أزواجنا** » بهذه الجملة بادرتني مربية النحل الجميلة . ذات الوجه المشرق ، ووجهها يحمر حياء وخجلاً ، وأخرجت قرص عسل من الخلية . وكانت هناك ١٢ خلية ملونة بألوان زاهية ومصفوفة تحت الأشجار المزهرة . وبدأ العسل الذهبي يسيل بهدوء على حين كان النحل يتلوى على يدي سيدتها الأنيقتين . وبدأت أسأل نفسي عن المعنى الحقيقي لكلمة «ملكة النحل»

ثم قالت لي وهي تخرج قرصين آخرين : « **إن علينا أن نعامل النحل بحنان وحب** » وتناولت مساعدتها القرصين ، وأبعدت النحلات بحركة رفيقة من يدها ، وحكت القشرة التي تخفي ثقوب العسل ، ووضعت الأقراص الثلاثة في وعاء معدني . ثم أدارت بعد ذلك ذراعاً يدوياً ، وبدأ الوعاء بالدوران ، وانبثق العسل من الأقراص ليصب في إناء سعته ليتر واحد . وهكذا شرحت لي كل ما أود معرفته عن النحل ، الفتاة الجميلة دوونغ تي في ، ذات الرداء الأزرق ، والبالغة من العمر ١٩ ربيعاً ، وصديقتها بوي تي توا التي تصغرها بسنة واحدة ، والتي أتمت مثلها دراستها في مدرسة فنية من مدارس الضواحي . وتهتم معها بتربية النحل في قرية لي شو ، من مقاطعة هونغ ين ، على بعد مائة كيلو متر تقريباً جنوبي هانوي .

وسألت المربية الشابة : « **كيف لا يقرصك النحل ؟** » (وكنت قد رأيت فيما مضى مربي النحل مزودين بأقنعة وقفازات أو يعملون وراء **ستارة دخانية**) .

فأجابتني دوونغ تي في : « **ذلك لأننا لا نؤذيها ، ونحن نربيها بكثير من العناية**

ونتجنب نقلها من أماكنها بعنف ، كما نتجنب فتح أبواب الخلايا عندما يكون الجو حاراً أو شديد البرودة . إننا نخرج الأقراص بهدوء حتى نتجنب سحق الحشرات الصغيرة، ونضع الخلايا في أفضل أرجاء الحديقة وأكثرها عطراً . أي إننا نحاول وضع النحل في أفضل الظروف الممكنة للعمل » .

وبعد إلحاح من صديقتها أخذت دوونغ تي في تغني بصوت رخيم خافت أغنية تدور حول «العلاقات بين الإنسان والنحل» وتتحدث عن أسلوب معاملة النحل كي يحب الإنسان .

ولقد توصلت النساء المقاتلات في الجنوب إلى نتائج مدهشة ومخالفة تماماً للنتائج السابقة : إذ قمن بتربية بعض أنواع النحل الضخم الذي لا ينتج العسل . ودربن هذا النوع على كراهية الإنسان ، أو على مهاجمة الغرباء الذين يقتربون من القرى . ووضعن في كل قرية حوالي ٢٠٠ عشاً . فغدت مناطق كاملة محمية بهذا الشكل بأسراب حقيقية من النحل .

ثم شرحت لي الفتاتان بعض أسرار مهنتهما ، وكيف توصلتا إلى زيادة الإنتاج بشكل ملحوظ ، سواء أكان ذلك بتقديم المساعدة للنحل أو بحثّه على العمل . ولقد قامتا أمامي بتشغيل آلة صغيرة تشبه القالب قادرة على صنع ١٥ قرصاً « مسبق الصنع » من شمع العسل والبارافين .

وقالت لي الفتاة الباسمة وهي تحمر خجلاً : « **إن هذا يوفر على النحل عمل ٤٠ يوماً ، ويعطيها وقتاً أكبر لتبحث عن الأزهار وتمتص رحيقها ، وهي أسعد بكثير من النحلات التي تضطر إلى صنع الأقراص بنفسها** » .

ولاحظت أن ثقوب الأقراص الصناعية سداسية الشكل وذات حجم نموذجي . ولقد قيل لي : « **لو كانت الثقوب أكبر حجماً، لدخلت الزنابير الكاذبة إلى الداخل ، وأكلت العسل كله ولا تزعج الأقراص الصناعية الحشرات التي تتابع إنتاج العسل كما لو أنها صنعت الأقراص بنفسها . وهذا ما يسمح لها بأن تعمل في جميع الأيام خلال فترات الأزهار الخمس ، علماً بأنه لم يكن يجني الفلاحون في الماضي عسلاً سوى فترة واحدة، لقد كانت الخلية المكونة من ٦ أقراص تنتج ٢٠–٢٥ كيلوغراماً كل عام . أما الآن فهي تنتج كمية تعادل خمسة أضعاف الإنتاج السابق . ويصل مردودها من ١٠٠ إلى ١٢٥ كيلوغراماً** ».

ولقد قدمت لي الفتاة كأساً من « حليب النحل » وأكدتا لي بأنه « مقو جداً بالنسبة للمسنين » وكان طعم الشراب مزيجاً من طعم العسل والقشدة . فأفرغت الكأس في جوفي دفعة واحدة .. وبعد بحث وتمحيص تبين لي بأنني شربت ١٢ يرقة غارقة في العسل : عندها أبديت تمنياتي بأن تكون هذه اليرقات من الذكور لا من الملكات ، فكان الرد بأن هذا لم يعد أمراً مهماً ، فبوسع المربين إيجاد عدد كبير من الملكات عند اللزوم .. ثم علمت أنهم يجمعون بصورة منتظمة كمية من « حليب النحل » بغية تقديمها للرئيس هو ولبعض المناضلين القدماء المسنين .

ولم تعد قرية لي شو تعرف الروائح الكريهة التي كانت سائدة فيما مضى ، فلقد تركت هذه الروائح مكانها لعطر الزهر والعسل القادم من بعيد . ويجري التحول نفسه في عشرات من قرى المقاطعة . وتعتبر تربية النحل فيها أمراً جديداً ، ولكنه يسير بخطى حثيثة . ولقد أنتجت أول ١٢ خلية في قرية لي شو ١,٢ طناً من العسل في عام ١٩٦٥ وهذا ما سمح بإنشاء ١٠٠ خلية أخرى في عام ١٩٦٦ . ولقد شرح لي مدير الجمعية التعاونية بأن بيع العسل يدر مالاً وفيراً ، ولكن الجمعية تستفيد من تربية النحل بشكل آخر ، إذ زاد محصول الفواكه والخضار بشكل واسع ، لأن النحل ينقل اللقـاح إلى جميع الأزهار .

ويشتهر هذا الجزء من مقاطعة هونغ ين بأشجار القشطة المزهرة المنتشرة على طول الأنهار والقنوات والطرق وحول المنازل . وتحمل هذه الأشجار ثمراً بحجم الخوخ ، ذا قشرة غير مستوية ، وبذور سود كبيرة ، وطبقة لحمية كثيرة العصير ، سكريـة الطعم ، يرغبها سكان جنوب شرقي آسيا كثيراً . ويفضل النحل زهور هذه الشجرة على ما عداها من الزهور المتنوعة . ولقد قال لي مدير الجمعية :

« كانت أشجار القشطة تعطي القرية حوالي ٢٠,٠٠٠ دونغ سنوياً . أما الآن فنحن نكسب بفضل النحل ١٠٠,٠٠٠ دونغ . ولقد تزايد الدخل بالنسبة للكوسا والخيار وجميع المحاصيل الزراعية الأخرى » .

إن الريف المحيط بالقرية جميل وخصب ، وتحف الخضرة بالقرى والمنازل المنعزلة وينتشر في كل مكان نبات البامبو وأشجار القشطة وخوخ الليتيش المثمرة التي يحب الأهالي طعمها . بالإضافة إلى أشجار البرتقال والجريب فروت والموز والباباز .

ولكل قرية بركة مزينة بأزهار اللوتس . وزاخرة بالسمك ، وعندما تقفز السمكات

لالتقاط الحشرات ، لا يرى الناظر إلى سطح البركة سوى رؤوس الأسماك التي تبرز وتختفي بين وريقات اللوتس . وتحمل العرائش قرب الماء الخيار والكوسا والخضار الأخرى المشابهةالكثيرة في هذه المنطقة . ولقد كانت جميع هذه النباتات خلال زيارتي مغطاة بزهور صُفر كبيرة . وأحسست عندئذ بجو من الهدوء والتناسق يشع من مختلف الأرجاء ، بفضل النحل الذي كنت أصادفه في كل مكان ، وعطر الأزهار ، وأريج العسل اللذين كانا يملآن الجو بعبقهما .

لقد كانت مقاطعة هونغ ين تشكل في الماضي جزءاً من « المناطق الصعبة » فهي مستطيلة الشكل ، يحدها النهر الأحمر من الغرب ، وهو أكبر أنهار فيتنام الشمالية . وتسير حدودها الجنوبية بصورة متوازية مع « قناة البامبو » التي تصل المجرى الأسفل للنهر الأحمر مع هايفونغ في الشمال الشرقي . وهي منطقة سهلية مستوية تماماً وليس فيها — كما قال لي لاودونغ الأمين العام للحزب في المقاطعة — جبال أو غابات أو شواطىء ، على حين تضم المقاطعات الأخرى أحد هذه العناصر على الأقل . ومثلها كمثل شبكة تقطير ضخمة مائلة من الشمال إلى الجنوب . ويشكل هذا الأمر سيئة كبيرة وتأتي جميع الأضرار من أن ارتفاع شمال المقاطعة قرب طريق هانوي — هايفونغ يبلغ ٧,٥٠ متراً فوق سطح البحر . على حين لا يزيد ارتفاع جنوبها عن ١,٢٠ متراً ولقد كان هذا الاختلاف البسيط في الارتفاع عبر عصور التاريخ السبب الرئيسي للجفاف والقحط في الشمال . والفيضانات في الجنوب . لأن الماء كان ينحدر حسب ميل الأرض فيحطم السدود ، ويغمر الحقول خلال أشهر عديدة بماء يزيد عمقه عن المتر .

وفي هذه المقاطعة مثل يقول : « تتعفن المحصولات في الجنوب وتحترق في الشمال » ولقد كان الأرز محصولاً من « محاصيل الأحلام » لأنه غالباً ما تلف بسبب المياه أو الحرارة ، حتى أصبح الحصول عليه أملاً بعيد المنال . ولكن الصراع ضد قوى الطبيعة خلق لدى الفلاحين في المنطقة روحاً صلبة فعالة ، الأمر الذي جعلهم قادرين على لعب دور هام في حرب الهند الصينية .

ولقد قال لي نغوين كينه أمين سر الحزب في المنطقة ما يلي :

« في خلال المجاعة الكبرى لعام ١٩٤٥ ، مات مليونا نسمة في مختلف أرجاء البلاد . ولم تفقد مقاطعتنا سوى ١٠,٠٠٠ ضحية فقط .

— لم ؟

ـ لأن سكان مقاطعتنا هاجموا المخافر اليابانية ، واستخدموا مخزونها من الحبوب »

ولقد كنت أعرف من مصادر أخرى بأن محدثي ذا القدرة الصامدة ، والقامة القصيرة ، والوجه البسّام ، كان من أوائل المنظمين للثورة ، وإني لأذكر كيف قادني إلى مكان تربية النحل ، وكم كان سعيداً لوجود هذا المصدر الجديد من مصادر الدخل في مقاطعته . كما أذكر سعادته المشابهة التي أحسست بها قبل ثلاث سنوات ، عندما عرض عليّ أول محطة ضخ في المقاطعة ، وأول بركة صناعية لتربية الأسماك .. وكان الخبراء الصينيون قد حضروا لتقديم المساعدة في عملية تربية الأسماك ، فلم يكن أمامهم سوى أن يبدوا إعجابهم بالعمل الذي تم إنجازه ، وانصرفوا وهم مزودون بأفكار جديدة وبتعديلات لأسلوبهم في هذا المجال . ولقد تلقّت مقاطعة هونغ ين ، من الرئيس هو بعد الحرب لقب « المقاطعة المثالية لحرب العصابات » مع أنها لا تضم بين أرجائها أدغالاً أو جبالاً أو شواطىء . ولكن العم هو صرح لأهل المقاطعة « ولكنكم أغنياء بالرجال » وكان هذا القول عبارة عن خط السير الذي اتبعه كينه و ١٧,٠٠٠ شيوعياً لم يبق منهم على قيد الحياة بعد الحرب سوى ٥,٠٠٠ مقاتل .

« عندما تحررت البلاد ، بعد حرب الهند الصينية ، طلبت السلطات منا إجراء جرد للمعدات المتوفرة في المقاطعة ، فلم نجد إلاّ حقنة قديمة معدة لحقن الخنازير ، وآلة بدائية لصنع الثلج ، ولم نجد شيئاً آخر غير ذلك . ولم نكن أميين فحسب ، بل إن قسوة ظروف الحياة الناجمة عن الحرب ، جعلتنا نعيش بدافع الضرورة داخل جحور صغيرة منعزلة . وكان المثقفون مبعثرين في أنحاء البلاد بعيداً عن بعضهم البعض ، وفقد الكثيرون منا القدرة على التحدث بلغتنا بصورة صحيحة ... »

وقد تجولت في المقاطعة مراراً من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب . وسرت على مختلف الطرقات ، ويبدو لي أن المقاطعة ستحصل على مكافأة أخرى ، إذ أنها تحولت إلى شكل هندسي منتظم مؤلف من مربعات ومستطيلات مقسمة بخطوط مستقيمة . ويختلف عرض هذه الخطوط حسبما تكون طرقاً أو قنوات هامة ، أو ممرات وسواقيَ للري . حتى يخيل للمرء بأن الأرض كلها قد « نظمت من جديد » ومما لا شك فيه أن فرق المستوى بين الشمال والجنوب والذي يعادل ٦,٣٠ متراً لم يختف من الوجود . ولكن تنظيم الأرض جعل هذا الفرق عديم الضرر . ولتحقيق ذلك تم إنشاء شبكة من محطات ضخ المياه . وتملك كل قرية من قرى المقاطعة (التي يبلغ عددها ١٥٥ قرية) ٣ مضخات كهربائية ، ويخضع الماء المنحدر من الشمال لمراقبة دائمة ، فإذا ما أتى بسرعة

كبيرة أعادت المضخات دفعه إلى مصدره الأصلي . وتقسم الأرض إلى أقسام متعددة بفضل « سدود كتيمة » أو حواجز ترابية توقف المياه وعندما سألت كينه :

« **لم أنشأتم السدود الكتيمة ؟** أجابني وقد اكفهر وجهه بشكل غير معهود :

« **إن علينا ، كما على كل المقاطعات المجاورة للنهر الأحمر ، أن نستعد للأسوأ** »

وفكرت بأن من غير المجدي أن أسأله عما يقصده بكلمة « الأسوأ » في هـذه الحالة المحددة . فمنذ فترة من الزمن ، يعرف الناس في هانوي ، بأن الأمريكيين يفكرون بتنفيذ بعض الخطط الفرنسية القديمة التي لم يجر تنفيذها في الماضي ، والتي تتضمن فتح ثغرات في السدود المجاورة للنهر الأحمر ، الأمر الذي يؤدي إلى فيضانات تغرق البلاد ، وتصيبها بكارثة رهيبة . وفي يوليه وأغسطس (تموز وآب) ١٩٦٥ قصفت بعض السدود والقنوات من الجو بصورة كثيفة . ولم تتناقص حدة هذا القصف ، إلا عندما قام عدد من حلفاء الولايات المتحدة بانتقادها وشجب عملها .

وقال لي كينه وكأنه يقرأ أفكاري :

« **أنتم تعرفون بأن المراكب الحربية الحديثة مبنية على مبدأ تقسيم الحجرات وهذا ما يحد من تأثيرات الطوربيد والقنابل ، ويجعلها مقتصرة على القسم المصاب مباشرة . ويمكن تطبيق هذا المبدأ نفسه على الأرض المعرضة للفيضانات . ويسير هذا الأمر بصورة متوازية مع خط الثورة الزراعية . لأن تسوية الأرض تساعد على إنشاء نظام ري أفضل ، والحصول على مردود أقصى . إن ١٠٠٪ من أراضي مقاطعتنا مروية الآن بصورة منتظمة ، وتشكل الممرات الكائنة فوق السدود الترابية المرتفعة شبكة مواصلات جديدة تصل بين المقاطعات . أما المسالك المرصوفة بالحجارة ، فهي عريضة بشكل يسمح بمرور العربات اليدوية الجديدة** » .

وعندما كانت سيارتنا الفولغا تسير بسرعة على الطريق الإسفلتي المتجه نحو الشمال ، لاحظت أن طرقاً عريضة ذات اتجاهين مرصوفـة بالحجارة ، وقنوات بعرض ٥ ــ ١٠ أمتار ، تتقاطع مع الطريق الرئيسي عـلى مسافات منتظمة . كمـا لاحظت أن المسافات التي تفصل بين الطرق والقنوات مقسمة بدورها بعشرات من قنوات المياه الصغيرة ، والمسالك بعرض متر واحد ، والكائنة فوق السدود الترابية ، التي يتم الحصول عـلى التراب اللازم لإنشائها عند شق القنوات .

ولقد عدنا إلى الجنوب عن طريق الضفة اليسرى للنهر الأحمر . وكان مما يبعث

على البهجة ، أن نرى الأهالي وقد بنوا سلسلة ثانية من السدود موازية للنهر ، مهمتها منع اندفاع المياه إذا ما وقع « الأسوأ » .

ولا يمكنني أن أصف العمل الذي تم إنجازه بين زيارتي الأولى والثانية إلا بأنه عمل « خيالي » . وخاصة عندما أتذكر بأن الفلاحين لم يستخدموا لتنفيذه إلا الزفوش والمعاول وسلال الخيزران . ولقد طلبت من المسؤولين إحصائيات الإنتاج فكان الرد كما يلي :

« إن لدينا زراعتين رئيسيتين هما الأرز والجوت . وها هي أرقام عام ١٩٥٩ الذي كان الإنتاج فيه جيداً ، وأرقام عام ١٩٦٥ :

	١٩٥٩	**١٩٦٥**
أرز	**١٩,٠٠٠ طن**	**٧٦,٠٠٠ طن**
جوت	**٧٥ طن**	**١١,٠٠٠ طن**

وفي عام ١٩٥٩ لم نكن ننتج الأرز الكافي لحاجاتنا . وكان علينا أن نطلب العون من الدولة . أما في عام ١٩٦٥ ، فلقد بعنا الدولة ٤٦,٠٠٠ طناً من الأرز ، بالإضافة إلى ٣,٥٠٠ طناً من الخنازير و ٢٥٠ طناً من الأسماك » .

ولقد كانت معظم القرى التي رأيناها أو تجولنا فيها توحي لكينه بذكريات «المقاومة الأولى» . فهنا نصب كميناً ، وهناك طوقه العدو فتنكر بثياب سيدة عجوز ، وأخفاه الفلاحون . وفي هذا المكان أنشأت عصابة خطرة من النساء المقاتلات قيادتها العامة . وفي مكان آخر عاش وسط القناة أسبوعاً كاملاً بمعونة الأطفال الذين كانوا يحملون إليه خلسة ما يسد به رمقه . وهناك ، واستدار نحو زوجته الجالسة إلى جواره ، قابل مناضلة شابة من مقاطعة تانه هوا وتزوجها . وكان عمر ضوء القمر آنذاك ١٧ عاماً . ولا شك أنها مولودة في قرية من القرى التي مررنا بها .

وكان في السيارة معنا أيضاً كوانغ هوي وهو أحد أبناء مقاطعة هونغ ين المشهورين . وكان يدير في السنوات الأخيرة استوديوهات الأفلام الإعلامية لفيتنام الشمالية . وهو رجل صامت عادة . ولكن بينما كانت السيارة تطوي الأرض بنا على طريق هـانوي — هايفونغ . قرب الحدود، ترك لنفسه العنان، وراح مسترسلاً مع ذكرياته ، وحدثنا كيف «مات» في هذا القطاع .

لقد طلب منه رؤساؤه تصوير فيلم يمثل إنفجار قطار من القطارات على خط هايفونغ — هانوي ، وكانت هذه المهمة شبه مستحيلة . فالطريق والسكة الحديدية المجاورة

له محميان بمخافر حراسة متباعدة عن بعضها بمقدار كيلو متر واحد فقط . بالإضافة إلى دوريات تتحرك بلا انقطاع بين المخافر . وكان العدو يرسل أمام قطاراته قاطرة قديمة ، مع عدد من الفيتناميين الذين يمكن التضحية بهم ، بغية تفجير الألغام التي يحتمل وجودها على الخط الحديدي . وقبل كوانغ هوي المهمة شريطة اختيار هدف يستحق التصوير . وأعلن بأنه لن يقوم بالعمل إلا إذا كان القطار المنسوف محملاً بالمحروقات . وقُبلت شروطه ، فبدأ مع الفلاحين بإجراء إعدادات دامت أكثر من أسبوع . ثم جاءت الأخبار من هايفونغ تحدد يوم وساعة مرور قطار هام للمحروقات . وكان من الواجب معرفة وزن القطار ، حتى يقوم الفنيون بصنع صمامة تعمل تحت تأثير الضغط الناجم عن سير العربات على القضبان ، بحيث لا تنفجر عند مرور أية قاطرة أخرى خفيفة تسير أمام قطار المحروقات .

واختار كوانغ هوي بنفسه مكان النسف ، والمكان الذي سيتم منه تصوير المشهد . وفي عشية يوم العمل ، تدبر أمره حتى يدفنه أصحابه في مقبرة مجاورة للسكة الحديدية . وسار رتل طويل من المواطنين خلف نعشه الذي يسير أمامه البواقون ، وتتبعه النادبات مولولات . وأنزل نعشه في الحفرة ، وردم بصورة طبيعية ، ولكنه كان متصلاً مع سطح الأرض بأنبوب مطاطي . واستطاع مخربو الفييت مينه أن يصلوا ليلاً إلى السكة الحديدية بمهارة عجيبة ورثها رجال الفيت كونغ عنهم فيما بعـــد ، ووضعوا لغمهم دون إثارة انتباه الدوريات .

ولم يمض الأمر بهذه البساطة ، بل وقع في التابوت حادث كاد يودي بحياة كوانغ ، ذلك أن شيئاً ما سد الأنبوب المطاطي أو لواه ، وضاع طرفه الحر من كوانغ هوي الذي اختنق وأغمي عليه . ولكنه استطاع تخليص الأنبوب بجهد انعكاسي ، ووضعه في فمه بصورة غريزية فعاد إليه تنفسه ، واسترد وعيه ، عندها فتح تابوته ، وأزاح التراب رويداً رويداً ، وحفر حفرة وراء شاهدة قبره . ومن هذه الحفرة كان بوسعه استخدام آلته السينمائية بكل سهولة . ولقد رأيت فيما بعد فيلمه العجيب خلال شرح مراحل المقاومة في دلتا النهر الأحمر . وشاهدت كيف كان القطار وعربات صهاريج المحروقات تسير ببطء . وفجأة رأيت الانفجار يلقي بالقاطرة خارج القضبان ، وأخذت العربات ترتسم ببطء وبشكل يستحق المشاهدة . ثم اندلعت النيران فيها واحدة بعد أخرى ، وارتفع إلى عنان السماء لهيب رهيب وغيوم دخانية كثيفة ..لقد كانت العملية مجهزة ومنفذة بكل دقة ، وبينما كانت درويات الفرنسيين تمشط المناطق المجاورة بحثاً عن

المناضلين ، هرب كوانغ هوي مع آلته عبر خندق محفور تحت الأرض ، حفره الفلاحون في المقبرة خلال الليل .

وقال لي كينه : « لقد عرفت منطقتنا دائماً كيف تقاوم الغزاة ، فهنا قُتل في القرن الثالث عشر توادو قائد المغول . ومنذ بداية الحرب في نهاية عام ١٩٤٦ ، أنشأ الفرنسيون ٤٨٠ مخفراً نشروها في قرانا التي تعد (٧٠٠) قرية . ولم يبق منها أي مخفر في أيام ديان بيان فو . وفي تلك الفترة دمر العدو ٢٠٠ قرية من قرانا تدميراً كاملاً . وأبيد كل ما فيها ، من الفراخ حتى الجواميس ، ومن أوعية الطبخ حتى المحاريث » .

وكانت هونغ ين في تلك الأثناء إحدى المقاطعات النادرة التي لم تكن قد تعرضت للقصف الجوي بعد . ذلك لأنها لا تضم جُسوراً أو صناعات . ولكن السكان قاموا بإخلاء المدارس والمستشفيات احتياطاً منهم لكل طارىء . وكانت هذه الأمور مصدراً من مصادر قلق الأمين العام للحزب .

« لم نكن نملك بعد الانتصار أي طبيب . وكان المسؤول عن مصلحة الصحة العامة لا يعدو أن يكون ممرضاً عادياً . ولم يكن لدينا إلا مدرسة ابتدائية واحدة . وكانت هناك مدرسة إعدادية في المقاطعة المجاورة في تاي بينه ، وكان على هذه المدرسة أن تضم أطفال ثلاث مقاطعات .. أما الآن فإن لدينا مدرسة ابتدائية لكل جمعية تعاونية ، ومدرسة إعدادية في كل قرية كبيرة من قرانا الـ (١٥٥) و ١٠ مدارس ثانوية . بالإضافة إلى مدرسة إعدادية للمعلمين ... ونملك الآن في كل قرية مركزاً صغيراً للأبحاث الزراعية ولدينا الآن ٢٤ مهندساً ، و ٤٤٦ أخصائياً يحملون مختلف الشهادات ، و ١٤٠٠ عاملاً زراعياً متخصصاً . وتضم كل جمعية تعاونية حوالي ٨٠ عاملاً يتقنون مختلف فنون الري ، واستخدام الأسمدة ، واختيار البذار ، وهم قادرون على القيام بإنشاء المسالك وشق القنوات .. الخ وهكذا ترى أن التطور التقني يسير بشكل حثيث . ولدينا ٣٠ طبيباً و ١٨٤ طبيباً مساعداً . ولقد تم توزيع هؤلاء الأطباء المساعدين بمعدل طبيب واحد في كل قرية . على حين يعمل الباقون في القرى الهامة أو في عاصمة المقاطعة » .

ولقد علمت أن هنالك ١,٢٠٠ قابلة قانونية ، أي بمعدل ٨ قابلات لكل قرية . وتذكرت بهذا الصدد ، أنني لاحظت في الماضي ارتفاع عدد الأطفال في هذه المقاطعة إلى ١١ طفلاً لكل عائلة . وكان كينه قد قال لي بأنه يعرف امرأة وضعت ٢٥ طفلاً

« **بالرغم من أنها لم تحمل مدة ثلاث سنوات بسبب الحرب** » . فطلبت منه أن يحدثني عن تنظيم الأسرة .

فابتسم وبادرني بالجواب قائلاً :

« **لقد رأيتم الكنائس في جميع القرى تقريباً ، فمقاطعتنا هي أول المقاطعات التي اعتنقت الكاثوليكية . ويميل الفلاحون إلى اعتبار الأطفال هبة من السماء . ولقد كانت وفيات الأطفال في الماضي تصل إلى ٥٠٪ فكانت النساء تحاولن ولادة أكبر عدد ممكن من الأولاد ، حتى تضمن بقاء خمسة أو ستة منهم على قيد الحياة . كل هذا دفعنا إلى تثقيف الشعب . وبدأنا فعلاً بتثقيف الإطارات . وشرحنا لها الفائدة الاقتصادية من تحديد النسل ، والأساليب التي تؤدي إلى ذلك . وتهتم القابلات اليوم بتعليم النساء أساليب تحديد النسل ، أكثر من اهتمامهن بمساعدة النساء في عمليات الولادة . ونحن نرى أن على الأسرة أن لا تضم أكثر من أربعة أطفال ، كما أننا نشجع الأسر التي يكثر فيها الأولاد على الهجرة إلى الأراضي البكر في المقاطعات الشمالية الشرقية . وتؤدي الهجرة إلى راحة هذه الأسر ، نظراً لأن الأراضي هناك أراضٍ صحية ، وفيها متسع للجميع .** »

وكان كينه فخوراً جداً بمحطات الضخ ، وهو على حق في ذلك . وكنا نتوقف بين حين وآخر كي يشرح لنا عملها وهدفها ، وكانت كلها تقريباً ذات استخدام مزدوج ، فهي تعمل لضخ الماء الزائد وصبه في قنوات الري، أو تعمل لجلب الماء إلى الأراضي الجافة .

ثم زرنا مدرسة المعلمين قرب عاصمة المقاطعة . وكانت هذه المدرسة تعلم الطلاب إلى عهد قريب في بناء مؤلف من دورين . أما الآن فإن الطلبة موزعون على خمسة أبنية مختلفة هي : هيكل ، ومزار بوذي[1] ، وكنيسة كاثوليكية ، وبناء من أبنية جمعية تعاونية مجاورة ، وبناء آخر شيده الطلبة بأنفسهم .

ولقد قمنا بزيارة الطلاب الذين يقطنون هذا البناء الأخير ، كما زرنا الطلاب القاطنين في الهيكل . وكان عددهم الإجمالي ٨٤٠ طالباً ، منهم ٧٠٠ فتاة . وكان عمر معلمي المستقبل يتراوح بين ١٧ و ٣٥ عاماً . ولكن معظمهم كانوا من اليافعين ولقد أتموا كلهم سبع سنوات من التعليم العام ، وحضروا دورة مكثفة مدتها ثلاث سنوات

---

(١) إن الهياكل les Pagodes في الهند الصينية هي أماكن العبادة التي تضم بين جنباتها تماثيل بوذا. أما المزارات les Temples فهي الأماكن المخصصة للشخصيات التاريخية المشهورة. (المؤلف)

تؤهلهم للعمل كمعلمين في المدارس الإعدادية .

وكان عدد من الراهبات البوذيات قد تجمعن قرب الهيكل بوجوههن المتغضنة ، وأرديتهن البنية ، وأعلمننا بأن بوذا سيكون مسروراً من استخدام الهيكل كمدرسة ، لأن الهياكل هي بصورة تقليدية أماكن للتعليم .

ووقف أحد الطلبة وألقى قصيدة ألفها شاعر محلي ، وهذه هي بعض أبياتها المترجمة على عجل :

قرون من الآلام ...
سدود منهارة وأراض فارغة ...
لقد كنا عصافير مقصوصة الأجنحة ...
ومراكب بلا دفة ...
والآن نرى في كل مكان ، الأرز والحوت ...
وخضرة على امتداد النظر ...
وموزاً ذهبياً وثمار القشطة العطرة ...
إن السعادة تبتسم لحياتنا .

ثم ذهبنا بعد ذلك إلى دسكرة فام ، التي تشكل جزءاً من قرية هوانغ غياو التي كان كينه يعتبرها من أكثر القرى تقدماً . واحتفت القرية بقدومنا بأن أقامت وليمة كبيرة من سمك الشبوط والدجاج والخنازير . وكان أفضل الأطباق المقدمة ، لحم كليب[1] صغير عمره ستة أشهر . كما كان على المائدة عدد لا يحصى من زجاجات شراب شوم – شوم ، المصنوع من كحول الأرز .

وكنت قد زرت هذا المكان في مرة سابقة ، ولهذا فقد استُقبلت كصديق قديم . وحدثنا المسؤولون عن التقدم الذي حققته مقاطعتهم في المرحلة الأخيرة ، وعن دمج الجمعية التعاونية للقرية مع ثلاث جمعيات أخرى ، ضمن إطار خطة عامة للتركيز ، تسمح كما يأمل كينه بتخفيض عدد جمعيات المقاطعة من ٨٠٠ جمعية صغيرة وضعيفة إلى ٣٠٠ جمعية كبيرة فقط ، بحيث لا يزيد عدد الجمعيات في القرى الواحدة عن جمعيتين . ويسير هذا الإصلاح بصورة متوازية مع تسوية الأرض المزروعة ، وإنشاء مزارع أرز مساحتها من عشرين إلى ثلاثين هكتاراً ، تحل كل واحدة منها محل خمسين

(١) الكليب : صغير الخنزير .

حقلاً لا تزيد مساحة كل حقل منها على نصف هكتار . وتضم الجمعية التعاونية الجديدة أكثر من ٤٠٠ عائلة (مقابل ٦٦ عائلة في الجمعية القديمة) . وهي تملك ٢٥٠ هكتاراً ، وثلاث مضخات كهربائية لري المزروعات بالمياه .

وقد تسنى لي أن ألتقي برئيس الجمعية . وهو رجل نحيل ، هادىء الطبع ، كثير الصمت ، يتحاشى التقدم أو الظهور إذا لم يوجه اليه السؤال . ولقد أعطانا هذا الرجل المتزن الإحصائيات التالية الخاصة بمحصول الأرز :

في عام ١٩٦٢ كان محصول الأرز ٤١٨٥ كغ بالهكتار (الجمعية التعاونية السابقة)
في عام ١٩٦٣ كان محصول الأرز ٤١٧٦ كغ بالهكتار (الجمعية التعاونية السابقة)
في عام ١٩٦٤ كان محصول الأرز ٤٢٣٩ كغ بالهكتار (الجمعية التعاونية السابقة)
وفي عام ١٩٦٥ كان محصول الأرز ٤٤٤٦ كغ بالهكتار (الجمعية التعاونية الجديدة)

ويزيد متوسط المحصول في عام ١٩٦٥ عن متوسط محصول الجمعيات الأربع الصغيرة في عام ١٩٦٤ بمقدار ٤٦ طناً ويعود ذلك إلى عدة أسباب هي :

١ ــ ازدياد المردود في الهكتار الواحد .

٢ ــ زيادة مساحة الأرض المزروعة بفضل تسوية الحقول وإزالة المناطق الجافة المرتفعة .

٣ ــ الحصول على محصولين في معظم حقول الأرز منذ الانتهاء من إنشاء نظام الري الجديد . على حين كان ٣٠٪ فقط من الحقول يقدم في الماضي محصولين .

وفي عام ١٩٦٢ باعت الجمعيات التعاونية الأربع ٢٤٣ طناً من الأرز للدولة . وفي عام ١٩٦٤ . بلغت المبيعات ٢٨٤ طناً . ثم بلغت في عام ١٩٦٥ مقدار ٣٤٧ طناً . أي بزيادة قدرها ٦٣ طناً عن مبيعات عام ١٩٦٤ .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الجمعية استطاعت تخزين ٤٨ طناً من البذار بعد القيام بتوزيع عادل للجرايات على أفرادها . ويزيد الأرز المباع للدولة عن زيادة المحصول بمقدار ١٥ طناً . ويرجع الفضل في ذلك كما قال لي كينه : « **إلى الشعور الوطني النامي والتدابير الحسنة التي تتخذها السلطات** » . ثم أضاف : « **ويعرف الأعضاء جيداً أن هذا العمل يفيد أزواجهم وأولادهم الموجودين في جبهة القتال والبناء** » .

وكان رئيس الجمعية يعتبر أن جميع عائلات دسكرة فام وصلت الآن إلى مستوى حياة الفلاح المتوسط في الماضي . وعندما سألته كيف يمكن أن تقدر ذلك أجاب :

« إن ٣٢ بيتاً من أصل ٦٦ بيتاً مسقوفة اليوم بالقرميد . أما البيوت الأخرى، فهي من الآجر مع سقف من القش ، نظراً لأنه لم يعد لدينا كمية كافية من القرميد . لقد كان الفلاحون الفقراء يعيشون فيما مضى داخل أكواخ قميئة أو في جحور .. أما الآن ، فالكل يحلمون بمنزل أمين متين السقف والبنيان » .

(وتعتبر هذه النقطة الأخيرة هامة جداً ، نظراً لأن سقوف القش معرضة للاقتلاع عندما تهب رياح التيفون الموسمية ، علماً بأن فصل هبوب هذه الرياح يأتي مع الفصل الذي ينقص فيه قش الأرز .

« وجميع باحات المنازل مرصوفة الآن بالآجر . أما الدخل الفردي المتوسط فهو يعادل ١٤ دونغ . وهو أعلى من الدخل السابق للفلاح المتوسط بقليل . وتملك جميع العائلات أسرة محترمة بالإضافة إلى سرير خاص للضيوف ، وناموسيات وأغطية وزجاجات لحفظ الماء المثلج (ترموس) . ويملك كل فرد ألبسة خاصة للأعياد ، على حين كان الزوج والزوجة في الماضي يملكان بنطالاً واحداً يلبسانه بالتبادل . أما الأولاد فكانوا عراة تماماً . ويملك كل من يحتاج إلى دراجة دراجته . كما أن هناك دراجات لمن لا يحتاجون إليها بشكل حيوي » .

وعندما طلبت منه أن يشرح لي هذه النقطة بدقة قال مبتسماً :

« يشتري الأهل أحياناً لأطفالهم الصغار دراجة ويخبئونها تحت السقف ، حتى يكبر أحد الأولاد ، ويصبح قادراً على استخدامها » .

ولقد استعلمت عن النسبة بين اليد العاملة والأفواه التي ينبغي تغذيتها ، فوجدت جواباً دا دلالة كبيرة . فهناك حوالي ٤٠٠٠ عائلة تضم ٢٣٥٠ شخصاً ، ويعمل منهم ٦٠٠ شخصاً فقط ،أما الباقون فهم ٢٥٠ عجوزاً طاعناً في السن و ١٥٠٠ طفلاً صغيراً لدرجة لا تسمح باستخدامه . وهكذا فإن على كل عامل تعاونيّ فعّال أن يقوم بأود ثلاثة أشخاص بالإضافة إلى إعالة نفسه . ويقسم عمال التعاونية إلى ١٦ « فرقة عمل » تضم كل فرقة عمل منها ٢٠-٢٥ عائلة تشرف على صحتها ممرضة وقابلة . وهكذا تصل خدمات الوزير فام نغوك تاش الطبية إلى كل مكان . أما بالنسبة للحملة الصحية الخاصة بإنشاء المراحيض ... فقد قال لنا رئيس الجمعية : بأن نقص الآجر والإسمنت يخفف من سرعة سير التنفيذ .

« إن كل عائلة من بين كل ثلاث عائلات تملك بئراً دعمت جوانبه بالإسمنت

أو الآجر . كما تملك كل أسرة من بين كل أربع أسر مرحاضاً مزدوجاً ، ويرغب الجميع بزيادة هذه النسبة ، ولكن نقص مواد البناء يقف حائلاً دون تحقيق هذه الأمنية »

ولقد لاحظت في القرى الريفية طرقاً من الآجر تسمح بإنقاص كمية الغبار والوحل. وفهمت بأن العادات في هذه المقاطعة تتطلب من كل زوجين جديدين أن يرصفا طولاً معيناً من طريق قرية الزوج . وأن كل واحد يحاول رصف أطول مسافة ممكنة ، حفاظاً على هيبته وسمعته . ومن الأمور الهامة التي لاحظتها أن نسبة التطعيم كانت ١٠٠٪ وأن شهادات التطعيم مطلوبة بصورة إجبارية من كل طلبة المدارس .

وينطبق موقف التعليم الذي رأيته على الطبيعة ، مع ما قيل لي في الوزارة . لقد أخليت المدارس الابتدائية في الجمعيات التعاونية ، وهي تعمل في فان على مستوى الجمعيات الأربع الأصلية . ولكنها أكبر حجماً من مدارس المناطق المعرضة للقصف الجوي . ففيها ٨ صفوف للمرحلة الابتدائية تضم ٣٤٤ طالباً ، و ٨ صفوف للمرحلة الإعدادية تضم ٣١٦ طالباً في قرية هوانغ غيا ، وفصل واحد ثانوي يضم ٢٦ طالباً في مي هاو ، وهي قرية كبيرة من قرى المقاطعة .

ومن الجمعية طالبان في جامعة هانوي ، و ٦ طلاب انتسبوا إليها في العام الدراسي ٦٦–٦٧ ، على حين يتابع ثلاثة آخرون دراستهم في الخارج . وهنالك ٤٥ طالباً من حملة الشهادة الإعدادية يتابعون دراستهم الثانوية الفنية . وهذه أعداد جيدة بالنسبة لقرية كان سكانها منذ ١٢ سنة أميين بنسبة ١٠٠٪ . وهذا ما يجعل المرء مؤمناً بأن « الثورة التقنية في الريف » لم تعد شعاراً يرفع فحسب ، بل غدت أمراً واقعاً . والحقيقة إن الفيتناميين يستعدون بجدية للقيام « بوثبة إلى أمام » .

« وما هي نسبة الجرائم لديكم ؟ »

« لم يعد هناك أية جريمة منذ انتهاء الحرب ... لقد كانت البيوت في الماضي محاطة بسياج له باب يغلق بالأقفال . ولكن هذه الاحتياطات لم تكن تمنع السرقة في فترة كان الشعب فيها مقسماً إلى طبقات ، وكان الفقر فيها قد بلغ حداً لا يمكن قبوله ، وكان ثلث المواطنين يشحذون خلال فترة من السنة على الأقل . أما الآن فليس هنالك أسوار أو أقفال أو لصوص ، فإذا ما وقع المرء في ضائقة مالية ولم يشأ سؤال الآخرين ، لاحظ المجتمع ذلك ، وهرع إلى مساعدته . ويعلم الجميع بأن الجمعية التعاونية موجودة لتمد إليهم يد المعونة » .

ولقد جرت كل هذه الأحاديث التي سردتها خلال مأدبة غداء كريمة أعدت لي في منزل فلاحة مسنة تبلغ من العمر ٦٧ عاماً ، وهي السيدة توات التي كان وجهها المتغضن وفمها الذي فقد جل أسنانه ، يوحيان بالطيبة واللطف والإيناس . وبما أنها أقدم الفلاحات في الجمعية فقد استضافتني خلال زيارتي السابقة ... وعندما سألتها عن رأيها في الموقف الحاضر أجابت :

« لقد تبدلت الحياة منذ أن أنشأنا الجمعية التعاونية ووسعنا نطاقها . فهناك بيوت جديدة في كل مكان . وعندما كانت الأمور تتعثر في الماضي كنا نشد عصا الترحال . ونجوب البلاد بلا انقطاع ، بحثاً عن العمل وسعياً وراء كسب بعض الدراهم المعدودات. وكنا نجوع يوماً ونشبع يوماً . ولقد كان عندي ستة أطفال ، ثلاثة من الذكور وثلاث من الإناث ، واضطرتني الأيام إلى أن أتخلى عن أحد الصبيان ، وكان أخواه أميين لايعرفان القراءة والكتابة ، أما البنات فحدث ولا حرج .... وأحد أولادي اليوم قائد فرقة إنتاج ، ويعمل الآخر كأخصائي في مصنع الفوسفات في هاباك ، وتعمل إحدى بناتي قابلة ، على حين تزوجت البنتان الأخريان من رجلين يقومان بأعمال حسنة . وتبدو لي الحياة الآن مستقرة ، ولدي اثنا عشر حفيداً وحفيدة ، يذهبون كلهم إلى المدرسة وقد يصبحون في المستقبل معلمين أو مهندسين » .

ثم حدثتني عن المنزل الريفي الخشبي ذي السقف المغطى بالقش ، والذي استقبلتني به في المرة السابقة . وأشارت بكل افتخار إلى جدران بيتها الجديد الآجرية المطلية بالكلس ، وإلى عوارض السقف وقرميده . والحقيقة إنها استلمت أول منزل آجري متين البنيان في القرية ، نظراً لأنها قدمت خدمات جليلة للمناضلين خلال المقاومة ومنهم كينه ، واعتبرت « أماً للجنود » .

والفيتناميون شعراء بالسليقة . ولقد أنشدت أمامي إحدى الشغالات قصيدة تمجد ناحية مي هاو الواقعة في شمال المقاطعة ، والتي كانت تتعرض في الماضي إلى كوارث الجفاف التي لا تنتهي . وأصبحت الجمعية التعاونية تابعة لها فيما بعد . وتقول القصيدة :

بالرغم من القمع والآلام ،
فإنا لم نحن رؤوسنا أبداً في مي هاو ،
وصددنا العدو في كل مرة .

إن الجيش والشعب المتحدين ضد الأعداء ،

لا يزالان متحدين حتى اليوم،
ويبنيان البلاد معاً .

إننا نحول الحقول إلى ثروات ،
فالأرض واسعة وخصبة ،
وهي اليوم غنية .

في الماضي عرفنا الجفاف ، ولم يكن هناك قطرة ماء ،
ولكن فلاحي مي هاو ،
لم يخشوا الصعوبات .

إننا نجبر النهر
على السير كما نريد ،
بستة عشر متراً مكعباً من الأرض ، يحفرها كل إنسان .

الجميع يعملون ،
في أعمال الحفر ،
ضد القنابل والفيضانات .

ها هو الأرز ، وها هي البطاطا الحلوة اللذيذة .
ها هو الماء يغني ،
والأسماك تتلألأ .

وها هي الدجاجات والخنازير ،
تزين كل الموائد .
لقد تجاوزنا بثروتنا مستوى الفلاحين المتوسطين .

ما أجمل هذا المنظر ،
ما أبدع الحقل الزاهر ،
إن منظر مي هاو معروف في كل مكان .

وفي قرية فان أوهو رأيت نغوتي تينه ، التي كانت خلال زيارتي السابقة رئيسة

جمعية القرية التعاونية ، فتذكرتها وتذكرت أسلوبها الواضح الدقيق الذي استخدمته عند الرد على أسئلتي . لقد تزوجت منذ ذلك الحين ، وغدت رئيسة مجموعة جمعيات تعاونية في تلك الناحية . لقد كانت فلاحة شابة هادئة ذات وجه جاد ، نضجت بسرعة واشتد عودها عندما وجدت نفسها مثقلة بالمسؤوليات .

ولقد كانت الجمعية التعاونية القديمة في القرية تضم ٣٤ عائلة ، على حين تضم الجمعية الجديدة ١٦٠ عائلة . يبلغ تعدادها ٦٤٤ شخصاً ، وعدد العاملين منهم ١٧١ ، ومعظم العاملين من النساء والفتيات . إذ يبلغ تعداد العاملات ١٢٥ من أصل ١٧١ ، أي إن نسبتهن تساوي ٧٥٪ . ولقد كان محصول الجمعية الجديدة في عام ١٩٦٥ أكثر من محصول الجمعيات في عام ١٩٦٤ بما يعادل ٤٠٪ . لذا أمكن بيع ١٦ طناً من الأرز للدولة ، بدلاً من ١٠ أطنان . ووزع ١٦,٧ كغ لكل مواطن بما فيهم الأطفال والرضع . وتعادل الجراية الشهرية لكل مواطن ٢٠ كيلوغراماً من الأرز بفضل الذرة والبطاطا الحلوة . وهي جراية أعلى بكثير من جراية سكان المدن . ولقد قام الفلاحون «بهجوم» كبير في عام ١٩٦٤ على «جبهة» الري والوقاية من الفيضانات . فنقلوا خلال ذلك العام ٣٦٠٠ متراً مكعباً من الأرض . ثم تابعوا «هجومهم» خلال عام ١٩٦٥ فنقلوا ٥٦٣٠ متراً مكعباً . وانتهت بذلك عمليات تسوية أراضي الجمعية ومساحتها ٤٥ هكتاراً . كما انتهت عمليات تقسيمها بفضل السدود والحواجز الكتيمة .

«لم يكن عندنا خلال زيارتك الأخيرة أية آلة من الآلات . ولكننا نملك الآن دراسات ومضارب للأرز » .

وسألتها عن الشكل الذي تعيق به الحرب عمل الجمعية التعاونية . فأجابت قائلة :

« إذا ما ظهر العدو فإننا سنقاتله مع الاستمرار في الإنتاج . وجميع الأفراد منتسبون « إلى الاستعدادات الثلاثة والمسؤوليات الثلاث » . ولدينا الآن ٣٦ رئيس فرقة أو مجموعة إنتاج ، ونصف هؤلاء الرؤساء من النساء ، وتنتمي جميع النساء إلى مجموعات الدفاع الذاتي . إن كثيراً من الشبان ذهبوا إلى الحرب أو للمشاركة في عمليات البناء الكبرى . ولكن هذا لم يمنع المحصول من التزايد . وستتابع النساء أعمالهن بالرغم من أن عدداً كبيراً من عضواتنا الفعالات تقمن بتأمين الحراسة الدائمة في المخافر الدفاعية » .

وهكذا أجريت في مقاطعة هونغ ين محادثات مع المسؤولين عن النواحي والقرى

والجمعيات التعاونية . ولقد أكدت لي هذه المحادثات ، وكل ما تمكنت من مشاهدته ، بأن الموقف الحقيقي على الأرض مماثل للموقف الذي أطلعني عليه أعضاء لجنة التخطيط . وموظفو وزارتي التعليم والصحة العامة .. كما أكدت لي بأن الخطط لم تتعفن في أدراج الموظفين ، بل طبقت بكثير من الانتباه والفاعلية .. إنها لم تنفذ كلها بصورة كاملة ، كما رأينا في موضوع الآبار والمراحيض . ويرجع ذلك إلى عوامل موقتة كنقص المواد الأولية مثلاً . ولكنني رأيت ورشات مقامة في الباحات لإنتاج المراحيض على نطاق واسع . ولا شك بأنهم سيصلون قريباً إلى حل هذه المعضلة الصعبة المطروحة أمام «الثورة» لقد استطاعت الثورة إقناع الفلاحين بضرورة اتخاذ التدابير الصحية ، وهذا بحد ذاته خطوة كبرى .

ولا يسعنا إلا أن نقف مدهوشين أمام التحولات التي أصابت الريف . إن حقول الأرز تشبه اليوم حقول القمح الواسعة في أوستراليا . وإننا نعتقد بأن تسوية الحقول ستؤدي قريباً إلى مكننة الزراعة . وتستخدم الجرارات حالياً في الجزء الشمالي من مقاطعة هونغ ين ، وهو أكثر الأجزاء جفافاً . الأمر الذي كان من المستحيل تنفيذه ، لو بقيت الأرض مقسمة إلى أجزاء صغيرة غير منتظمة .

والتقدم الدائم الصحي والتعليمي تقدم ظاهر وهام جداً في المجتمع الفيتنامي . ويستطيع الأمريكيون تدمير كل ما بناه الفيتناميون خلال الاثني عشر عاماً الأخيرة من جسور ومصانع وسدود وأبنية ومعدات ، ويمكنهم إيقاع الخسائر بين صفوف السكان . ولكن هناك أموراً تعجز القنابل عن تدميرها ، كمحو الأمية هذه النقيصة التي غدت اليوم جزءاً من الماضي المقيت ، وذهاب مئات الآلاف من أبناء الفلاحين إلى المدارس ، لتلقي التعليم العام خلال سبع سنوات ، وانتظام ملايين آخرين في صفوف التعليم خلال أربع سنوات ، وقيام فيتنامي واحد من بين كل ثلاثة من الفيتناميين بدراسة التقنية الحديثة ، والتدرب على استخدام الآلات الحديثة استعداداً ليوم تملك فيه فيتنام هذه الآلات ، وتغلغل مفهوم الصحة بقوة بين السكان القرويين ، ووجود موظفي الخدمات الصحية في كل مكان فوق الأرض الفيتنامية .

إن هذه النجاحات الرائعة لن تختفي بالغارات الجوية ، كما إنها لا تقارن مع ما يجري في فيتنام الجنوبية ، بالرغم من مليارات الدولارات التي يصرفها الأمريكيون هناك. ولقد كان من المستحيل أن يحصل الريف على جزء مما تم تحقيقه لولا الاستقرار السياسي وثقة الشعب بحكومته . وينطبق هذا القول على نظام الري أو إنشاء المراحيض المزدوجة.

والحقيقة إن «الثورة» تمت في عقول الفلاحين ، إذ لم يعد هؤلاء الناس البسطاء يكتفون بالإحساس بأنهم أعضاء في قرية أو مقاطعة ، ولكنهم يتطلعون الآن نحو العالم الخارجي ، والتقنية الحديثة ، وتحديد النسل ، وإخصاب الأرض بالمواد الكيماوية ، والحراثة بالجرارات. وقد يكون أولادهم الآن طيارين على متن طائرات مقاتلة تفوق سرعتها سرعة الصوت ، أو رماة يستخدمون المدفعية المصادة للطائرات والموجهة بالرادار ، أو سدنة للصواريخ الأرضية المضادة للطائرات (أرض—جو) .

وما دام الأمر كذلك ، فإن بوسع واشنطن أن تفخر بأنها دفعتهم في هذا السبيل ، لأن الغارات الجوية حافز من أكبر الحوافز التي دفعت الريف في فيتنام الشمالية إلى التقدم بهذه السرعة .

الفصل التاسع

وجهة نظر جندي

عندمـــا يتحدث الفيتناميون الشماليون عن استعدادهم لخوض حرب قـــد تستمر ١٠ــ١٥ــ٢٠ سنة ، فإن مواطنيهم يتقبلون هذا القول أكثر من تقبل الغربيين له، ذلك لأن الفيتناميين ، سواء أكانوا متعلمين أم أميين ، قد كونوا فكرة جيدة عن تاريخهـــم وتقاليدهم ، استقوها من القصائد والأساطير . ففي مختلف أرجاء البلاد صخور غريبة الشكل يعطي السكان لوجودها معنى خاصاً . وهناك دائماً صخرة **تمثل الزوجة المخلصة التي تنتظر عودة زوجها الغائب من ساحات القتال** .. ويمكن ملاحظة هذا الموضوع في أكبر ملحمتين وطنيتين حربيتـــين ... إن الثورات الدورية التي اندلعت ضد الصينيين خلال السنوات الألف الأولى بعد الميلاد ، بدأت بالثورة البطولية التي قادتها الأختان تروونغ في عام ٤٠ ، واستمرت حتى انتصار نغوكوين في معركة جرت على ضفاف باتش دانغ ضد الهان الجنوبية بعد تسعة قرون تماماً . ولقد خلد الأهالي هذه المعارك بقصائد وأغان ينشدها الشعراء . وهي تشكل مع المعارك التي جرت ضد المغول بعد قرنين من الزمن ، موضوع عدد لامتناه من المسرحيات وقطع الأوبرا التقليدية .

ولقد أعطى الصراع ضد الإقطاعيين الصينيين والمغول أفكاراً جديدة وحججاً قوية استخدمها أولئك الذين كان عليهم حث الشعب واستنهاض همته خلال قتاله ضد اليابانيين والفرنسيين . وتشكل « الحرب الطويلة الأمد » التي اتحدت البلاد خلالهـــا لدفع الغزاة الأجانب جزءاً من المفاهيم المنتشرة بين السكان .

وفي عام ١٩٤٧ نشر تروونغ شين سلسلة مقالات جمعت في كتيب اسمه « ستنتصر المقاومة »[١] نجد فيه شرح المبادىء الحديثة « للحرب الطويلة الأمد » التي لا تزال صالحة في أيامنا . ويعتبر تروونغ شين أحد المناضلين القدماء « الأربعة الكبار » الذين أسسوا الحزب الشيوعي في الهند الصينية ، والقوات المسلحة الثورية . أما الثلاثة الآخرون فهم : هوشي مينه ، وفونغوين جياب ، وفامفان دونغ . ولقد عمل تروونغ مدة طويلة كأمين عام للحزب الفيتنامي لاودونغ الذي شكل بعد حل الحزب الشيوعي في الهند الصينية رسمياً . وهو يعتبر واحداً من أهم المنظرين السياسيين في بلاده . ولقد كانت الغاية من مقالاته تقوية إيمان الشعب بحتمية الانتصار على الفرنسيين .

ففي عام ١٩٤٧ ، كان الموقف في الحقيقة « ساخناً » ولقد أعلن تروونغ شين قبل كل شيء أن الحرب ستكون « طويلة » ولكن النصر فيها محقق لا محالة .

« وللوصول إلى هذه النتيجة (النصر) ، يجب أن نخوض معركة طويلة وأن يتوفر لنا الوقت ، إن الوقت يعمل لمصلحتنا ، وسيكون هذا الوقت ألمع استراتيجيينا إذا ما صممنا على المقاومة حتى النهاية .

وفي ظل حكم التران [٢] اضطر شعبنا ثلاث مرات في إحدى وثلاثين سنة إلى الإقدام على مقاومة طويلة لأحر العصابات المغولية . وفي ظل سلالة لي[٣] لم نستطع صد جيوش المينغ المتعطشة للدم ، إلا بعد عشر سنوات من المقاومة . وقضى الشعب الصيني ثماني سنوات للتخلص من الوباء الياباني . وكل هذه أمثلة بليغة [٤] » .

ثم يطرح المؤلف بعد ذلك النظريات التي تقود الصراع ضد فرنسا .

ويمكن للأمريكيين الذين يشجبون تدخل بلادهم في قضايا فيتنام ، كما يمكن لمن يوافقونها على تصرفها أن يجدوا في كلمات تروونغ شين التالية بعض العزاء .

---

(١) « La resistance Vaincra » Truong chinh Ed. de Hanoï en langue française - 1966

ولقد ظهرت ترجمة عربية لهذا الكتيب ، أصدرتها إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي السورية في عام ٦٨ . (المعربان)

(٢) Tran التران أسرة حاكمة في القرن الثالث عشر ، ومنها ترانهونغداو الذي كان قائداً من مشاهير القادة في تاريخ فيتنام . (المؤلف)

(٣) في القرن الخامس عشر (المؤلف)

(٤) الصفحة ٢٤ من الترجمة العربية المذكورة آنفاً . (المعربان)

« فنحن لا نحارب فرنسا ، الأمة الديموقراطية التي أدرجت في دستورها الجديد التعهد التالي : وهي (الجمهورية الفرنسية) لن تشن أية حرب بقصد الفتح ، ولن تستخدم قواتها ضد حرية أي شعب .

فهل نخوض الحرب ضد الشعب الفرنسي ؟ لا ، لأنه شعب شغوف بـ « الحرية والمساواة والإخاء » وهو شعب لا يريد أن يخوض ضدنا حرب احتلال ثانية، تقود أبناءه إلى المجزرة ، لصالح حفنة من الذئاب الرأسماليين ... ونحن لا نستهدف في حربنا سوى المستعمرين الفرنسيين المتطرفين »[1] .

بهذه العقلية يحدد الفيتناميون اليوم عدوهم تحت اسم « الأمبرياليين الأمريكيين » وهم يودون من ذلك أن يظهروا بأنهم ليسوا في حرب ضد الولايات المتحدة الأمريكية كدولة ذات تقاليد ديمقراطية ... وعلينا أن لا ننسى بأن هوشي مينه استقى بعض فقرات الدستور الفيتنامي الذي صودق عليه في سبتمبر (أيلول) ١٩٤٥ من الدستورين الفرنسي والأمريكي .. ولقد لخص لي أحد المسؤولين الفيتناميين تاريخ بلاده بهذه الكلمات :

« يشاء القدر أن يضطرنا إلى الدفاع عن بلادنا دائماً ضد أعداء يتفوقون علينا بشكل واضح بالعدد والعدة والمستوى التقني . لذا فنحن مضطرون لاستخدام استراتيجية تتلاءم مع وضعنا . وهي تتطلب منا قبل كل شيء أن لا نتسرع . وهذا هو موقفنا في الوقت الحاضر تجاه الأمريكيين » .

وهناك عنصر آخر لهذا الصراع الذي يدهش عدداً من أصدقاء فيتنام الغربيين ويقلقهم بآن واحد . وهو الهدوء الذي ينظر به زعماء البلاد إلى تدمير هانوي وهايفونغ ومراكز هامة أخرى . وإصرارهم على الإعلان بأنه لن يكون لهذا التدمير أي تأثير على النتيجة النهائية للحرب . ولا تفاجىء هذه المواقف الفيتناميين . وإننا لنجد في كتاب تروونغ شين وتحت فقرة « حرب الأرض المحروقة » ما يلي :

« كل ما من شأنه أن يفيد العدو ، ولانستطيع الاحتفاظ به نحرقه ، أو نخربه أو نخفيه ، هذا هو مبدأ المقاومة باتباع تكتيك « الأرض المحروقة » . وليس هذا التكتيك ابتكاراً فيتنامياً ، بيد أن النطاق الذي طبقناه فيه قد أذهل الكثيرين : فكثير من أصدقائنا الأجانب يعتبرون أن من الجنون أن نمسح طوعاً من على وجه الأرض مدناً وقرى كبيرة

---

(١) الصفحتان ٧ و ٨ من الترجمة العربية المذكورة آنفاً . (المعربان)

وأن لا نحرق مباني العدو ومستودعاته فحسب ، بل بيوتنا نحن أيضاً .. كلا ليس الشعب الفيتنامي مجنوناً ، وإذا كان قد استخدم تكتيك الأرض المحروقة بتصميم لم يعرفه تاريخ الشعوب فما ذلك إلا لأن له أسبابه »[1] .

ثم يطرح الكاتب بالتفصيل سلسلة من الحجج المتعلقة بالحرب آنذاك ، والتي لا علاقة لها في اللحظة الراهنة على الأقل مع الحرب الجارية الآن . ولكن مع هذا ، فإن الجميع يرفضون الفكرة القائلة بأن تدمير المدن يشكل بحد ذاته كارثة لا يمكن إصلاحها . ويبدو أن واشنطن كانت تعتقد خلال فترة ما بأن التهديد بتدمير هانوي وهايفونغ قد يضطر هوشي مينه إلى الخضوع لشروطها . ويدل هذا الأمر على جهل الأمريكيين بعقلية وتقاليد الفيتناميين . فالشعب الذي كان أهلاً لأن يحرق بيوته ومدنه خلال حرب الهند الصينية ، لا يمكن أن يركع إذا ما هدده عدوه بالقيام بتدمير مدنه وقراه .

ويشكل التحول الكامل لاقتصاد البلاد وحياتها رداً بليغاً على الذين يتساءلون عن مدى جدية الفيتناميين عند الحديث عن « الحرب طويلة الأمد » فهل ستستمر المعارك أم أن هوشي مينه سيهرع إلى مائدة المفاوضات بخنوع ، لأن هانوي وهايفونغ معرضتان للقصف والدمار ؟ إن علينا أن نأمل بأن لا تحاول واشنطن وضع هذه الوسيلة الأخيرة موضع التجربة ومع هذا فمما لا شك فيه أن الفيتناميين سيدافعون عن هاتين المدينتين بكل فاعلية وتصميم . ولقد اتخذت تدابير جذرية لإقلال الخسائر بين صفوف المدنيين وإنقاص الدمار اللاحق بالقدرة الاقتصادية إلى أدنى حد ممكن ... ويتوقع تكتيك « الاستعداد للأسوأ » قصف المدينتين الكبيرتين ، وتدمير السدود المجاورة للنهر الأحمر . ويعتقد زعماء البلاد بأنه ليس هناك اعتبارات أخلاقية أو شرعية أو إنسانية قادرة على منع واشنطن من التدني إلى هذا الدرك . والاعتبار الوحيد الذي يمكن أن يغل أيدي الأمريكيين هو الثمن الذي سيدفعونه من الطائرات والطيارين ، وازدراء الرأي العام العالمي الذي ينظر باشمئزاز إلى القصف الجوي الهمجي الذي تمارسه دولة كبيرة ضد بلد صغير ، ويعتبره جريمة كبيرة ، وصفها الرئيس ديغول بأنها « قبيحة جداً » .

ولقد رأيت أن من المجدي أن أسأل الجندي الأول في فيتنام ، الجنرال فونغوين جياب ، عن رأيه « بالحرب طويلة الأمد » ومدى صلاحيتها أمام القوة المدمرة الهائلة

---

(١) الصفحتان ٤٣ و ٤٤ من الترجمة العربية المذكورة آنفاً . (المعربان)

التي يمثلها طيران الولايات المتحدة الأمريكية . والجنرال جياب هو أستاذ تاريخ سابق في سايغون ، استطاع بجهده الجبار أن يقلب فصيلة من المقاتلين ترتدي الأسمال البالية ، وتحمل أسوأ الأسلحة ، ويجعل منها الجيش الشعبي الفيتنامي ، آلة الحرب الرائعة التي انتزعت النصر في ديان بيان فو ، وألحقت عدداً من الهزائم المتلاحقة بألمع مارشالات فرنسا وجنرالاتها .

وكان الجنرال في وضع ممتاز بعد أن فقد بعض الكيلوغرامات من وزنه ، وزاد سنه عشر سنوات منذ لقائنا الأخير قبل سنتين . ورأيته كما عهدته ، فعالاً وواثقاً من نفسه ، وكان قد خلع اللباس العسكري الرسمي المزين بالأوسمة ، والذي يرتديه عادة في مثل هذه المناسبات ، وارتدى قميصاً خاكياً ذا ياقة مفتوحة ليتلاءم مع أعبائه ومهامه الجديدة بشكل أفضل .. لقد عاد الجنرال من جديد ليصبح رجل العمل المشغول دائماً بالعديد من المعضلات التي تشغل أي عسكري آخر في العالم .. وكان علينا تصوير الحديث تلفزيونياً ، لذا طلب منه المخرج الفرنسي روجر بيك ، الذي كان يقوم بدور المصور أيضاً ، أن يجلس في مكان ملائم بالنسبة لمكبر الصوت ، ثم بدأ يوجه إليه تعليماته بصوت عال من وراء عدسة التصوير التلفزيوني « ارفع الكتف إلى أعلى .. استدر قليلاً نحو العدسة ... ابتعد عن المكبر ... » الأمر الذي أدخل المرح إلى قلب الجنرال .

وكان التصوير يجري في حديقة وزارة الدفاع الوطني . ووجد الحاضرون أن تصرف المخرج يدعو إلى الإحراج . ولكن الجنرال جياب كان يتابع التعليمات مبتسماً ثم صرخ لبيك قائلاً :

« إنني أعطي الأوامر هنا عادة .. ولكن لا بأس الآن ! اعمل فأنت المدير في هذا اليوم ! »

وبدأ الحديث بعد ذلك

سؤال : كيف تحكمون من وجهة النظر العسكرية على نتائج ١٥ شهراً من القصف الجوي الأمريكي ضد جمهورية فيتنام الديموقراطية ؟

جواب : يشن الأمريكيون كما تعلمون غاراتهم ضد جمهورية فيتنام الديموقراطية في الوقت الذي يقومون فيه بتصعيد الحرب العدوانية في فيتنام الجنوبية ، بغية هز معنويات شعبنا وتدمير قوتنا العسكرية ، وقلب الموقف في فيتنام الجنوبية لمصلحتهم .

فمنذ هزيمتهم في كوريا ، وبعد الفشل المتلاحق الذي أصاب قواتهم في فيتنام الجنوبية يرى الأمريكيون ماذا يمكن أن تكون بالنسبة لهم حرب يقوم بها مشاة أمريكيون

على أرض القارة الآسيوية – وهم يرون الآن صورة هذه الحرب بعد أن انغمسوا بها – ويعرفون أنها ستكون ضد مصلحتهم حتماً . لذا بدت لهم الحرب الجوية ضد جمهورية فيتنام الديموقراطية كلقيا سارة . ولقد استنفروا للقيام بها طائرات الأسطول السابع وأسرابهم الرابضة في فيتنام الجنوبية وتايلاند . وهاجموا بدون تمييز طرق المواصلات والمراكز الصناعية ، والمناطق الآهلة بالسكان في فيتنام الشمالية ، دون أن يستثنوا الحضانات والمدارس والمستشفيات والهياكل والكنائس .

ولكن الأمريكيين لم يتوصلوا مع ذلك إلى أغراضهم المرجوة . وأدى عدوانهم السافر الوقح ضد جمهورية فيتنام الديموقراطية ، وهي دولة مستقلة ذات سيادة ، وتشكل جزءاً من المعسكر الاشتراكي ، إلى زيادة الحقد وتقوية إرادة الصراع في صفوف الشعب الفيتنامي حتى أن البنتا جون اعترف بأنه يعمل ضد عدو لا يبدو عليه مظهر من مظاهر الضعف.

لقد كبد جيشنا وشعبنا العدو خسائر فادحة . وأسقطنا حتى اليوم ٩٦٧ طائرة ولا يزال بناء الاشتراكية مستمراً ، ومحصولنا في السنة الماضية محصول جيد ، وما فتئت السكك الحديدية كما ترون تقوم بواجبها ، أما الأسعار فهي على حالها بلا ا، تفاع ولا تزال قدرتنا الاقتصادية والعسكرية في تزايد مستمر .

وكيف جرت الأمور في فيتنام الجنوبية ؟ لقد أباد مواطنونا أفضل القطعات الأمريكية في المنطقة (د) شمالي سايغون ، وفي بلي مي وفي الدرانغ وفي السهول الساحلية لوسط فيتنام . كما أنهم هاجموا بكل نجاح القواعد المحاطة بدفاع قوي : دانانغ وشولي وبيان هوا ، ثم هاجموا في الفترة الأخيرة تان سون نهات . وأصيب جيش المرتزقة التابع لحكومة فيتنام الجنوبية بسلسلة من الهزائم . أما حكومة سايغون العميلة ، والتي حاول الرئيس جونسون كل ما بوسعه لإنقاذها في هونولولو فماذا تحكم ؟ إن الأحداث السياسية والعسكرية التي تجري الآن في هوي ودانانج وسايغون ومدن أخرى من مدن فيتنام الجنوبية تدل على أن هذه الحكومة لا تسيطر على المراكز المدنية على حين أثبت جيش تحرير فيتنام الجنوبية وجوده في كل مكان ، فهو قادر على إلحاق الهزيمة بالقوات الأمريكية ، والجيوش المساعدة الأخرى ، مهما بلغت قوتها وجودة عتادها . كما أثبتت جبهة التحرير الوطنية لفيتنام الجنوبية أكثر من أي وقت مضى ، بأنها الممثل الوحيد الحقيقي للشعب .

إن الأمور واضحة جلية . لقد أدى قصف جمهورية فيتنام الديموقراطية من الجو

خلال ١٥ شهراً إلى تزايد هزائم المعتدين الأمريكيين في شمال البلاد وجنوبها ، وإلى وقوع الولايات المتحدة الأمريكية في عزلة سياسية شديدة الخطورة ، بشكل جعلها تسير أكثر من أي وقت آخر على طريق مسدود .

سؤال : استخدم الأمريكيون في الآونة الأخيرة طائرات ب ـ ٥٢ ضد فيتنام الشمالية ولقد قصفوا نام دينه وضواحي هانوي وهايفونغ أي إنهم قصفوا أكبر ثلاث مدن في فيتنام الشمالية فما هو رأيكم في ذلك ؟

جواب : لا يشكل هذا القصف الوحشي مفاجأة بالنسبة لنا . إنه يمثل رد فعل الأمريكيين الهيستيري أمام فشلهم الجديد العسكري والسياسي في فيتنام الجنوبية . وهم أبعد ما يكونون عن إيقاف تدهور وضعهم في فيتنام الجنوبية ، أو رفع معنويات حفنة من العملاء الذين أسقطهم الشعب . وليس عملهم إلا تعرية للخديعة المكشوفة المختفية وراء ما يسمونه باقتراحات حكومة جونسون للبدء بـ « مفاوضات غير مشروطة »

إن على الحكومة الأمريكية أن تتحمل جميع النتائج الخطيرة الناجمة عن كل مغامرة عسكرية جديدة ضد جمهورية فيتنام الديموقراطية .

سؤال : ما رأيكم « بالفرضيات » الأمريكية التي يمكن للولايات المتحدة بناء عليها أن تربح الحرب في فيتنام الجنوبية ، بعد شل ميناء هايفونغ ، وتدمير القدرة الاقتصادية لبلادكم .

جواب : إن الفرضيات متوفرة دائماً لدى الاستراتيجيين الأمريكيين . فهناك الفرضيات التي تتحدثون عنها ، ولكن هناك فرضيات أكثر اقتراباً من المنطق ، وهي تؤكد أن مصير الحرب سيتحدد في فيتنام الجنوبية . إذ لا يرتبط مصير الحرب بما يستطيع العدو القيام به ضد بعض موانئنا أو خطوط مواصلاتنا .

والفرضية الصحيحة الوحيدة هي : إن الحرب التي تشنها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية الآن في فيتنام الجنوبية ، عبارة عن حرب عدوانية أمبريالية جديدة . وسيتابع شعبنا في فيتنام الجنوبية قتاله الدفاعي الشرعي للحفاظ على حقوقه الوطنية ، والاشتراك في تحقيق السلام في آسيا والعالم أجمع . ولقد انتقل هذا الشعب من نصر إلى نصر ، منذ بدء الغارات الجوية على جمهورية فيتنام الديموقراطية ، نظراً لأنه قوي بحقه ، متحد كرجل واحد ، يعرف كيف يستخدم السلاح الذي لا يهزم ، والمتمثل في الحرب الشعبية. وهو مدعوم من الدول الاشتراكية ومن جميع الشعوب المحبة للسلام والعدل في العالم أجمع .

ومهما تكن الوسائل التي استخدمها الأمريكيون أو بوسعهم استخدامها ، فإنهم عاجزون عن تعديل هذه الحقيقة الباهرة التي لا يمكن نكرانها في عصرنا ، عصر انتصار الاشتراكية وحركات تحرر الشعوب .

إن حربنا التحررية حرب عادلة ، وسننتصر » .

وإننا لنلاحظ أن الجنرال أكد استخدام الجمع عندما قال « حربنا » و « سننتصر » ليدل بذلك على أن القتال في الجنوب هو إلى حد كبير قتال الشمال أيضاً . وهذا ما دفعني لأن أطرح عليه السؤال التالي :

سؤال : ما هي الانعكاسات التي قد تنجم عن قيام الأمريكيين بمهاجمة شمال فيتنام وجنوبها بآن واحد ؟

جواب : إن فيتنام بلد واحد لا يتجزأ . ولقد أكدت بنود اتفاقية جنيف لعام ١٩٥٤ توحيد شطري البلاد بالوسائل السلمية . ويشكل التدخل الذي تبعه عدوان الجيوش الأمبريالية في الجنوب عدواناً خطيراً على سيادة بلادنا . ولقد نقل الأمريكيون الحرب إلى جميع الأراضي الفيتنامية ، عندما بدأوا غاراتهم الجوية على جمهورية فيتنام الديموقراطية ولهذا فإن مقاومة العدوان الأمريكي بقوة السلاح ، بغية إنقاذ الوطن كله ، هي الواجب المقدس لكل فيتنامي وطني مخلص ، وللشعب الفيتنامي بأسره . إن شعبنا مصمم على القتال للدفاع عن الشمال ، وتحرير الجنوب ، وتحقيق وحدة الوطن الرامية إلى نشر السلام .

سؤال : كيف تتوقعون تطور الحرب في شمال البلاد وجنوبها ؟

جواب : ستتطور الحرب العدوانية الأمبريالية الأمريكية في فيتنام على نفس خطوات تطورها حتى يومنا هذا . إنها ستنتقل من فشل إلى آخر ، حتى تصل إلى الهزيمة النهائية ، على حين ستنتقل حرب التحرير الشعبية من نجاح إلى نجاح ، حتى تصل إلى النصر النهائي .

ويعرف كل امرىء أن الولايات المتحدة الأمريكية جربت سياستها الاستعمارية الجديدة عند إقامة النظام الديكتاتوري الإرهابي الدموي أيام حكم نغودينه ديم ، مستخدمة بذلك ١٥٠,٠٠٠ جندياً من المرتزقة الفيتناميين الجنوبيين ، بعد أن دعمتهم وجهزتهم بأحسن الأعتدة ... كما يعرف الجميع الفشل الذريع الذي لحق بهذه السياسة .

ثم بدأت « الحرب الخاصة » المشهورة ، التي بدأها كنيدي وتابعها جونسون من بعده بنصف مليون من الجنود المرتزقة الفيتناميين والذين يعملون تحت إشراف ٣٠,٠٠٠

« مستشاراً » أمريكياً . وأفلست هذه الحرب بدورها ، على حين حقق شعب فيتنام الجنوبية البطل نجاحات كبيرة متزايدة .

وها نحن الآن على عتبة مرحلة جديدة . إن واشنطن ترسل إلى فيتنام الجنوبية بشكل كثيف قوات غزو أمريكية مكونة من صفوة وحداتها . وتقوم بحرب « التصعيد » ضد فيتنام الشمالية . فهل تحسن وضع الولايات المتحدة الأمريكية العسكري والسياسي في فيتنام ؟ كلا ! إنه لم يتحسن أبداً ، بل إننا نرى أن وضعها يتفاقم بسرعة .. لقد فشل الأمريكيون في ما أطلقوا عليه اسم « هجوم فصل الجفاف » . وسيفشلون في المستقبل أيضاً . كما فشلوا بدعم حكومة الدمى في سايغون ، على حين يحقق الشعب وقوات التحرير المسلحة في فيتنام الجنوبية انتصارات تتزايد روعتها يوماً بعد يوم . كما أن جمهورية فيتنام الديموقراطية لا تزال صامدة أمام العدوان ، وأقوى من أي وقت مضى .

إن الأمبرياليين الأمريكيين قادرون على تعزيز قواتهم في فيتنام الجنوبية ، وزيادة حدة القصف الجوي في الشمال ، واتخاذ تدابير أخرى تتسم بالمغامرة ، ولكن كلما ازداد اندفاعهم في توسيع نطاق الحرب كلما ازداد تعرضهم لهزائم أكبر .

لقد عرفت بلادنا الحرب منذ أكثر من عشرين عاماً . ويأمل شعبنا بتحقيق السلام من كل قلبه . ولكنه مؤمن كما قال رئيسنا هوشي مينه بأنه : « ليس هنالك سلام حقيقي دون استقلال حقيقي » إننا سنقاتل حتى النصر ضد المعتدين الأمريكيين ، بغية حماية استقلال البلاد ، وتحقيق الآمال العميقة لشعبنا بالحرية والوحدة . والمشاركة في الحفاظ على السلام في آسيا والعالم أجمع ... وسننتصر .

ونحن فخورون بأن الشعب الفرنسي كان دائماً إلى جانبنا ، ويدعم صراعنا العادل بكل فاعلية ضد العدوان الأمريكي . فليسمح لنا بأن نوجه إليه ، نيابة عن الشعب الفيتنامي خالص شكرنا على هذا الدعم » .

ولم يشأ الجنرال جياب إعطاء تفصيلات عن الدعم الذي يقدمه الشمال للجنوب ، ولو رأى ذلك ملائماً لاغتنم الفرصة التي أتحتها له عندما طرحت عليه سؤالاً عن الانعكاسات التي قد تنجم عن الهجوم الأمريكي على شطري البلاد . ولكن إجابته الواضحة أفهمتني كل ما كان يدور في خلده .

ومن المفيد أن نتذكر بأن جبهة التحرير الوطنية في فيتنام الجنوبية عقدت مؤتمرها الأول بغية إعداد الدستور في الفترة الواقعة بين ١٦ فبراير (شباط) و ٣ مارس (آذار)

١٩٦٢ . ثم نشرت لهذه المناسبة تصريحاً أنذرت به الولايات المتحدة من النتائج المحتملة لتدخلها المباشر في الصراع .

« يؤكد المؤتمر أنه إذا ما تابع الأمبرياليون الأمريكيون وحلفاؤهم عدوانهم الدامي ، فإن شعب فيتنام الجنوبية ورجال جبهة التحرير الوطنية ، سيستخدمون كل الوسائل القتالية الموجودة لديهم ، وسيأخذون كل التدابير الناجعة ، كي يستطيعوا الوصول إلى أفضل النتائج في عملياتهم الرامية إلى إنقاذ البلاد والشعب ، وتحرير فيتنام الجنوبية ، والدفاع عن الحرية والديموقراطية ، والتخلص نهائياً من كل دكتاتور خائن . وسيستخدم شعب فيتنام الجنوبية ورجال جبهة التحرير الوطنية حقهم الشرعي عند الضرورة ، لمناشدة العون وطلب الدعم بالرجال والعتاد من شعب فيتنام الشمالية وحكومتها ، ومن الشعوب الصديقة والحكومات الديموقراطية المستقلة في العالم أجمع ، بغية الاستمرار في صراعه العادل . وسيتحمل الأمبرياليون الأمريكيون وعملاؤهم الكوارث الناجمة عن أعمالهم »

ثم قررت الحكومة الأمريكية في شهر مايو (مايس) ١٩٦٥ إرسال ٥٠,٠٠٠ جندياً إضافياً إلى فيتنام الجنوبية ، فأذاعت اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطنية في أغسطس (آب) نداءاً نقتبس منه السطور التاليه :

« إننا نوجه نداء أخوياً إلى جيش فيتنام الشمالية وشعبها ، طالبين تقديم المعونة في كل المجالات لشعب فيتنام الجنوبية ، كي ما نستطيع تدعيم قوتنا العسكرية ، وزيادة قدرتنا على المقاومة ، في سبيل تحرير واستقلال بلدنا الأم .

ونحن ندعو مواطنينا الجنوبيين ، والجنود الفيتناميين الجنوبيين الموجودين في الشمال ، إلى التجمع بوحدات مقاتلة والاستعداد للالتحاق بنا ومشاركتنا في الصراع ضد الأمبرياليين الأمريكيين في سبيل إنقاذ بلادهم وعائلاتهم .

إننا نناشد شعب الهند الصينية ، العمل من أجل الوحدة والتعاون المتبادل ، ليكون قادراً على مقاومة العدوان الوحشي الذي تشنه الولايات المتحدة الأمريكية وعملاؤها ، وكي ما يكون قادراً على الدفاع عن حريته وعن السلام في جنوب شرقي آسيا والعالم أجمع.

وتدفعنا الفقرة الثانية من النداء إلى أن نذكر بأن حوالي ١٤٠,٠٠٠ فيتنامياً جنوبياً معظمهم من جنود الفييتمينه النظاميين ، تجمعوا في الشمال بعد اتفاقية جنيف، وبناء على بنودها التي تحدد ضرورة فصل قوات الطرفين المتنازعين عن بعضها البعض . والتي أجليت بموجبها القوات الفرنسية والقوات المتحالفة معها من الشمال

إلى الجنوب . ولقد اعتبرت عملية إعادة التجمع بالنسبة لقوات الفييتمينه تدبيراً « مؤقتاً » بانتظار توحيد البلاد ، وإجراء الانتخابات العامة في يوليه (تموز) ١٩٦٥ .. تلك الأمور التي لم تنفذ أبداً . وهكذا بقيت القوات الجنوبية الموجودة في الشمال متمركزة هناك ، ولكنها كانت تتحرق شوقاً للعمل ، بعد أن عيل صبرها من عطالتها الإجبارية خلال حملة الانتقام التي شنها نظام ديم ضد رجال المقاومة القدامى . والتي كانت موجهة ضد عائلات الجنود المجتمعين في الشمال . لذا لم يكن من المحتمل أن يصم « جيش وشعب فيتنام الشمالية » آذانهما أمام نداء جبهة التحرير الوطنية . وكان من الطبيعي أن يغتنم المهاجرون هذه المناسبة ، لارتداء لباس الحرب ، وحمل السلاح ، والعودة إلى الجنوب ، تدفعهم رغبة لاهبة بالانتقام . كما كان من الطبيعي أن لا تتخلف عن المعركة قوات باثيت لاو التي تسيطر على معظم الحد د الفاصلة بين لاووس وفيتنام الجنوبية ، وأن تهرع لتلبية الدعوة إلى « الوحدة والتعاون المتبادل » . ومن الأمور الغريبة تجاهل وكالات الأنباء الغربية في سايغون لهذا النداء ، مع أنها تستمع بشكل منتظم لإذاعة جبهة التحرير .

ولكن هل يوجد في الجنوب قطعات نظامية من جيش فيتنام الشمالية ؟ إن وجود هذه القطعات لا يبدو ضرورياً . لأن الجنوبيين الذين جمعوا في الشمال في عام ٥٤/٥٥ يعدون ١٤٠,٠٠ نسمة ، ومعظمهم – باستثناء بعض النساء والاطفال – عسكريون أو إطارات سياسية . وفي نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٦٦ كان عدد الأمريكيين الرسمي في فيتنام الجنوبية ٣٥٨,٠٠٠ رجلاً ولم يكن عدد « المتسللين » إلى الجنوب ، حسب التقديرات الرسمية الأمريكية ، يتجاوز ٥٠,٠٠٠ مقاتلاً . ويعني هذا أن على «التسلل» أن يستمر طويلاً قبل أن يعود من بقي من الجنوبيين (١٠٠,٠٠٠) رجل إلى ديارهم . وبما أن معظمهم جنود في قطعات نظامية ، فقد دعتهم جبهة التحرير الوطنية للعودة إلى بلادهم ليقاتلوا داخل تشكيلاتهم القديمة . إن اتفاقية جنيف لم تشترط ضرورة تسريحهم من الخدمة بعد وصولهم إلى فيتنام الشمالية ، كما لم تحرم عليهم التدريب على استخدام الأسلحة الحديثة ، ولم تنص على ضرورة بقائهم في الشمال بصورة دائمة . بل إن بنودها كانت تنص على أن التجمع عبارة عن وسيلة لإبعاد قوات الطرفين المتخاصمين عن بعضها البعض .

والحقيقة ، أن هناك وحدات كثيرة تم حلها وتسريحها . ولكن العسكريين ظلوا مجمعين في مزارع الدولة الواقعة ضمن مناطق الحدود . ولقد تمركزوا هناك داخل كتائب وأفواج ، وتزوجوا ورزقوا بأولاد ، وبدأوا يزرعون البن والكاوتشوك والأرز

مع متابعة التدريب في مجموعات الدفاع الذاتي . أما الضباط فكانوا يتبعون كل سنة دورات تحسين معلومات ، بغية المحافظة على مستواهم ، والاطلاع على التقنية العسكرية الحديثة .

فبأي شكل وإلى أي مدى يساعد شمال البلاد جنوبها ؟ إن هذا الأمر سر عسكري مجهول . ولكنني على قناعة تامة ، بأن صراع الجنوب خلال عدة سنوات لم يتطلب أية مساعدة من الشمال . كما إنني أعتقد بأن شعب فيتنام الشمالية أحس بأن عطالته خلال الفترة الواقعة بين ١٩٥٤ و ١٩٦٠ عبارة عن قصور وطني . ولقد لاحظت ذلك خلال زياراتي للشمال في عامي ٦٣ و ٦٤ ... وبعد بدء الغارات الجوية تغير الموقف بصورة واضحة ، وبدأ كثير من الإطارات يقولون في جلساتهم الخاصة ، دون أن يعلنوا ذلك على الملأ بأن الهجوم الجوي الأمريكي ألغى بصورة فعلية وجود خط العرض ١٧ . كما يقولون بأن القصف الجوي يدمر الشمال بحجة أننا نساعد الجنوب ، لذا فليس هنالك ما يمنعنا من تقديم هذه المساعدة ، ما دمنا معاقبين بسببها مسبقاً . وهم يرون أن جزءاً من الهجمات الجوية ينطلق من القواعد الكائنة في فيتنام الجنوبية ، لذا فإن القانون الدولي يعطي لجمهورية فيتنام الديمقراطية ملء الحق بأن ترسل جيوشها لإزالة هذه القواعد ، وإسقاط الحكومة التي تسمح باستخدامها وهم يتساءلون أخيراً هل يحق للأمريكيين والكوريين والاوستراليين والنيوزيلانديين أن يكونوا في الجنوب ، ويحرم الفيتناميون من هذا الحق ، حتى ولو كانوا قد اجتازوا خط التحديد المؤقت ؟

ويعرف جميع الأشخاص الذين قابلتهم في هانوي أن بلادهم تساعد الجنوب . وهم سعداء بذلك . حتى ولو كانوا لا يعرفون بالتفصيل كيف تتم هذه المساعدة . ولقد اختفى الشعور بالقصور ، وأصبح « الدفاع عن الشمال وتحرير الجنوب » شعاراً وطنياً في جميع البلاد . ولقد لاحظت أن كل من تحدثت معهم مؤمنون بأن الثورة لن تضع السلاح قبل أن يتم توحيد البلاد . وهم يعتبرون أن قيام الأمريكيين بقصفهم بالقنابل عن طريق الجو ، عبارة عن « تحد » . ولقد قبل الشعب الفيتنامي هذا التحدي ، وهو يتنفس الهواء .

فهل كان الشمال يقدم العون والدعم للجنوب عندما بدأ القصف الجوي ؟ إنهم لا يتحدثون في هانوي عن هذا الأمر . ولكنهم يلفتون الأنظار إلى أن التسلل لم يكن الحجة التي تذرع بها الأمريكيون عندما قصفوا دونغ هوي في فبراير (شباط) ١٩٦٥ ، إذ أعلن الامريكيون بصورة رسمية آنذاك بأن عمليتهم عبارة عن « غارة انتقامية »

للرد على هجوم قام به الفييت كونغ ضد المطار الأمريكي في بليكو . ولكن القصف الجوي استمر بعد ذلك . ثم اعلن الأميركيون فيما بعد بأن هذا القصف يهدف إلى إجبار حكام هانوي على قبول الدخول في مباحثات السلام . وأخيراً وبعد ما أسموه بـ« اكتشاف أسلحة » مخفية على شاطىء وسط فيتنام ، لم تعد الحجة تتبدل ، إنها تقول بأن القصف الجوي معد لإيقاف تسلل الرجال والعتاد من الشمال .

ولقد كتبت النيويورك تايمز في افتتاحية أحد أعدادها الصادرة خلال شهر مايو (مايس) ١٩٦٦ كلاماً يستشم منه ضعف قيمة هذه الحجج . وجاء في هذه الافتتاحية ما يلي : « **في صيف ١٩٦٤ وُعد رئيس وزراء فيتنام الجنوبية خان ، بدعم من الرئيس جونسون ، بالقيام بسلسلة من عمليات القصف الجوي ضد الشمال ، شريطة أن تقدم سايغون حكومة مستقرة . وبدأت الغارات في الشتاء التالي ، عندئـــذ فسر المسؤولون الرسميون الأمريكيون والفيتناميون الجنوبيون بأن دور الغارات الرئيسي هو تثبيت الوضع السياسي في فيتنام الجنوبية** » .

والجدير بالذكر ان الرئيس جونسون تعهد لحكومة سايغون بشن الغارات ، في اللحظة التي كان فيها يوجه النقد الى خصمه في الصراع على كرسي الرئاسة السيناتور باري جولد ووتر ، لأنه دعا إلى ضرورة قصف فيتنام الشمالية بالطائرات .

واعتقد البعض أن هذه الغارات الجوية ستحقق الاستقرار السياسي في سايغون . ولكن بعد ابتدائها بخمسة عشر شهراً ظهرت هذه الفكرة وقد فقدت أساسها . وينطبق الأمر نفسه على الفرضية الأحدث ، والتي ترى أن من الممكن ربح الحرب « بتحطيم الشمال » أو بتدمير هانوي وهايفونغ .

والدليل على ذلك ما كتبه جاك فوازي مراسل صحيفة نيويورك هيرالدتريبيون في سايغون في يوم ٢٣ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٦٥ والذي يقول فيه: « **يعترف الطيارون أنفسهم بأن تسعة شهور من القصف لخطوط المواصلات لم تعق المواصلات الآسيويــة التقليدية التي تتم على الأقدام ، وبالمراكب الصغيرة ، أو على عربات تجرها الثيران . ويبدو أن هانوي تستعد لمجابهة القوات الأمريكية منذ شهر مايو (مايس) بعد أن تم إنزال أول قطعات مشاة البحرية الأمريكية إلى اليابسة . ومن المعروف أن أول وحدات فيتنام الشمالية اجتازت الحدود في مايو أو يونيه (مايس–حزيران) . وهكذا يبدو أن هانوي قد ردت على التصعيد الأمريكي للحرب البشرية بتصعيد آخر** » .

ويعني هذا أن فوازي يعتقد بأن التدخل الفيتنامي الشمالي جاء رداً على القصف الجوي الأمريكي (الذي بدأ في فبراير ـ شباط ـ) وعلى وجود القوات الأمريكية في الجنوب. إذن فإن التسلل من الشمال إلى الجنوب لم يكن سبب القصف بل نتيجته. ولكن هذا لم يمنع فوازي من أن يكتب في المقال نفسه، بأن لغارات طيران الولايات المتحدة الأمريكية هدفين هما: « **.. قطع طرق المواصلات، وتخفيف سرعة تسلل الفيتناميين الشماليين** » إذن يبدو أن الأمريكيين توقعوا ابتداء، التسلل وتزايد استخدام طرق المواصلات بعد القصف الجوي الأول مباشرة. بالإضافة إلى « **إشعار هانوي بالقوة العسكرية التي تملكها الولايات المتحدة الأمريكية، بغية إجبارها على قبول الاشتراك في مباحثات السلام ..** »

ولا تفيد هذه الحجج في الحقيقة إلا لتبرير التصعيد، وإلهاء الشعب الأمريكي، مع الاعتماد على ضعف ذاكرته. ويعترف فوازي مع ذلك بأنه لم يتم التوصل إلى أي هدف من الهدفين المنشودين. ثم يردد أقوال المؤيدين لزيادة حدة القصف ويقول: « **إن السدود لم تتعرض للهجوم الجوي، كما لم تتعرض مصانع ضواحي هانوي أو ميناء هايفونغ لأية غارة. علماً بأن تدمير السدود يؤدي إلى إغراق الدلتا التي تتم فيها زراعة الأرز خلال فترة طويلة من السنة ..** » ثم يذكر بعد ذلك « **بأن هانوي تتدخل بصورة متزايدة، وذلك بإرسال قوات نظامية، ليكون صوتها مسموعاً في حالة إجراء أيـة مباحثات. ويُقال في بعض الأوساط ان المباحثات ستأخذ الشكل التالي: اسحبوا قواتكم وسنسحب عندئذ قواتنا** ».

وكل هذا مثال صارخ على جهل السياسيين الأمريكيين، والناطقين باسمهم في سايغون وواشنطن، لأن الجيوش الفيتنامية المقاتلة في الجنوب ستبقى فيه. أما بالنسبة للقوات القادمة من الشمال، أو بالأحرى العائدة من الشمال، فهي موضوعة تحت تصرف السلطة المركزية لجيش التحرير في فيتنام الجنوبية، ولن تُستدعى إلى الشمال أبداً. ولن يكون هنالك أية اتفاقية تنص على إعادة « التجمع » في الشمال. وهنا يمكننا أن نؤكد بأن الأمريكيين ألغوا بتصرفاتهم في هذا الصدد وجود خط العرض ١٧.

هذه هي الأفكار التي استطعت التقاطها خلال أحاديثي مع المسؤولين السياسيين في الشمال، ومع قادة جيش التحرير. إن على الأمريكيين لا على الفيتناميين أن ينسحبوا، وستستمر الحرب حتى يتحقق هذا الأمر. وقد تستمر الحرب سنوات طوالاً حتى ولو دمرت هانوي وهايفونغ، وهدمت سدود النهر الأحمر. إن مناضلين من أمثال هوشي

مينه ، وفونغوين جياب ، وفام فان دونغ ، وآخرين غيرهم لن يخضعوا للقوة أو التهديد بأكثر مما خضع أسلافهم الأولون . لقد أعلن هوشي مينه . « **سنناضل ١٠ — — ١٥ — ٢٠ سنة أو أكثر** » وصرح فونغوين جياب : « **سنقاتل حتى النصر النهائي.. وسننتصر ..** » ولا يعتبر الشعب الفيتنامي مثل هذه الأقوال دعاية جوفاء . وهو بعسكرييه ومدنييه مؤمن بأنها تصريحات تنم عن الحقيقة ، وتمثل برنامجاً للعمل . ويدفعني كل ما رأيته أو سمعته أو أحسست به إلى الاعتقاد بأنهم يقبلون بلا جدال تكريس حياتهم وكل نشاطهم لتحقيق هذا الهدف ، ولكنني أشك بأن العقول الإليكترونية في المخابرات المركزية الأمريكية C. I. A. والبنتاجون قادرة على فهم معلومات بمثل هذه البساطة .

الفصل العاشر

العقول الإلكترونية والعقول البشرية

كلنا نعرف أن واشنطن ، والبنتاجون بصورة خاصة يعتمدان على العقول الإليكترونية لتخطيط استراتيجيتهما وتكتيكهما العسكري في فيتنام . وتملك هانوي أيضاً آلاتها الخاصة لإجراء الحسابات ، وهي في صراع دائم مع آلات الأمريكيين . وسيظهر المستقبل بلا شك فاعلية كل نظام من هذين النظامين ، والنتائج التي سيتوصل إليها في حقل المعركة ، أو على مائدة المفاوضات . وتدل النظرة السطحية الأولى ، على أن حظ هانوي بالنجاح في هذا التنافس غير المتكافىء حظ ضعيف جداً .

ولكن هانوي تملك أداة قدمت حتى الآن نسبة كبيرة من الأجوبة الصحيحة . إنها الآلة البشرية للجنرال نغوين فان فينه ، المعاون المبدع للقائد الأعلى للجيش الشعبي الفيتنامي ، والذي ترأس خلال عدة سنوات مجلس إعادة توحيد البلاد ، المشكل بناء على اتفاقية جنيف ، لإعداد مراحل إعادة التوحيد ، كما كان الجميع يرونها آنذاك . ويعتبر المراقبون الاجانب الجنرال نغوين فان فينه منظراً عسكرياً ممتازاً ، ويجله الفيتناميون أكبر إجلال .

وفي عام ١٩٦٢ قدم لي الجنرال فينه شروحاً طويلة متعددة حول الشكل الذي ستأخذه الحرب في فيتنام الجنوبية .. ولقد أظهر في جميع هذه المناسبات معرفة رائعة لنوايا الأمريكيين واستراتيجيتهم ، والأساليب المستخدمة لإبطال مفعولها . والجنرال رجل نحيل ، فارع الطول بالنسبة لمواطنيه الفيتناميين ، وله وجه صغير ينم عن الذكاء ،

وشعر متجعد ، ويتصرف بكل خجل وهدوء . وإني لأذكر تحليله في عام ١٩٦٢ لبدعة الجنرال ماكسويل تايلور « الحرب الخاصة » . وشرحه للشكل الذي ستسير به في فيتنام حتى تصل إلى الفشل . كما أذكر تحليله العام لهذه « الحرب الخاصة » وعلاقتها مع التدخل العسكري الأمريكي في جميع أرجاء العالم ، وإمكانية تطور « الحرب الخاصة » في فيتنام الجنوبية إلى « حرب محلية » أي إلى اشتباك تشترك به القوات الأمريكية بصورة مباشرة ، بدلاً من الحرب الموجهة عن بعد ، التي تشنها قوات فيتنام الجنوبيـــة تحت إشراف « خبراء » أمريكيين .

ثم أثبتت تحليلاته وتوقعاته فيما بعد صحتها ، حتى فيما يتعلق بعدد القوات الأمريكية المستخدمة ، والتواريخ التقريبية لوصولها ، وسير الهجمات المعاكسة السياسية العسكرية التي ستعلن عن نهاية « الحرب الخاصة » وهكذا أظهر عقل الجنرال فينه تفوقه على عقول البنتاجون الإليكترونية ، تلك العقول التي أقنعت ماكنمارا بأن النصر واقع لا محالة في نهاية عام ١٩٦٥ ، وأن بوسعه سحب جميع الخبراء العسكريين الأمريكيين . وصدق ماكنمارا ذلك ، ولكنه اضطر بعد ذلك لأن يعلن عن ارتفاع عدد القطعات الأمريكية خلال تلك السنة من ٢٠٠٠٠ رجل إلى ١٨٠٠٠٠ . ولقد جعلتني دقة نظرات الجنرال القديمة متشوقاً إلى السماع لتحليلات عقله غير الإليكتروني ، بعد أن تورط الأمريكيون بشكل متزايد بـ « حرب محلية » في الجنوب و « حرب جوية شاملة » في الشمال .

وكان على مكتب الجنرال نسخة من مقال كتبه حول هـــذا الموضوع ، لنشره في المجلة النظرية للجيش الشعبي ، وهو يقول فيه بأن التعزيزات الأمريكية المتدفقة على فيتنام الجنوبية ، عاجزة عن قلب ميزان القوى لصالح الولايات المتحدة الأمريكية ، إذ أن المصادر الأمريكية نفسها تؤكد ضرورة وجود تفوق يعادل ١٠ ــ ١٥ ضد واحد حتى يتم الانتصار على الثوار . وهذا أمر بعيد المنال . وبالرغم من تنازل بعض القادة الأمريكيين ، وقبولهم بميزان للتفوق يبلغ خمسة ضد واحد ، فإن من المستحيل الوصول إلى هذه النسبة ، لأن قوات جبهة التحرير الوطنية قادرة على التزايد بسرعة كافية . على حين تتدمر قوات سايغون المسلحة بشكل يؤمل ميل ميزان القوى دائماً لمصلحة جبهة التحرير الوطنية ، حتى بعد أن زج الأمريكيون في المعركة ٣٠٠٠٠٠ أو ٤٠٠٠٠٠ رجل أو أكثر . وتؤكد نتائج الإنزالات الأمريكية الضخمة منذ مايو (مايس) ١٩٦٥ هذه الفرضية . لأن إنزال ٤٠٠٠٠٠ رجل حتى نهاية عام ١٩٦٦ ، لم يعدل أبداً ميزان القوى بين القوات الأمريكية وقوات سايغون من جهة ، وقوات التحرير الوطنية من

جهة أخرى ... وهكذا بقي ميزان القوى ثابتاً بصورة عامة . وأصابته في بعض الحالات تطورات طفيفة ، كان معظمها لصالح جبهة التحرير الوطنية . ولقد قال لي الجنرال فينه بهذا الصدد :

« تتضمن القوة التي يستطيع أي بلـــد من البلاد زجها في الحرب العناصر التالية : عدد ومعنويات الرجال الذاهبين إلى خطوط القتال ، والوسائل المستخدمة في الدعم المادي لمتابعة الحرب بما في ذلك نوع وكمية الأسلحة المتوفرة في الجبهة ، ودعم البلاد الأجنبية في الصراع الدائر . فإذا نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر القدرة الاقتصادية والحربية ، والأسلحة ، والتقنية المستخدمة ، بدا لنا أن العدو في فيتنام الجنوبية يتفوق علينا في هذا المضمار تفوقاً ساحقاً ، ووجدنا أن علينا مجابهة خصم يفوقنا قوة كما كان وضعنا في جميع مراحل تاريخنا . ولكن إذا أدخلنا في الحساب مجمل العنـــاصر التي تشكل قوى الطرفين ، والجاهزة للاندفاع في أتون القتال ، سواء أكان ذلك في جنوب بلادنا أو في بلادنا كلها ، وجدنا بأننا أقوى من خصومنا » .

ثم ذكر لي بعد ذلك العناصر التالية :

الأمريكيون :

١ ــ إنهم متورطون في حرب بعيدة عن الولايات المتحدة الأمريكية ، وبعيدة عن مصالحهم الحيوية . وهي حرب لا تتمتع بتأييد شعبهم أو شعوب حلفائهم . ومن الواضح أنها حرب غير عادلة .

٢ ــ إنهم يملكون عدداً كبيراً وأعتدة متفوقة . ولكنهم مضطرون لمجابهة خصومهم في نقاط متعددة من الكرة الأرضية ، ولا يستطيعون تعبئة سوى جزء من قواتهـــم للحرب في فيتنام .

٣ ــ لقد كان الجيش والإدارة في سايغون على شفا هاوية عندما وصلت القوات الأمريكية لإنقاذهما . وكانت القوات العميلة مبعثرة ضعيفة المعنويات . وليست قوات البلاد المتحالفة التي استطاعت واشنطن دفعها إلى الجنوب سوى قوات محدودة ، وستبقى كذلك بسبب عدة مشاكل محلية ، أهمها معارضة مواطني البلاد المتحالفة للحرب .

٤ ــ لهذا لم يحقق الأمريكيون تفوقاً عددياً ساحقاً ، الأمر الذي دفعهم إلى القيام بالحرب بناء على مفاهيمهم العسكرية البورجوازية البالية ، القائلة بالاعتماد على الســـلاح والتقنية للقيام بضربات سريعة ، والوصول إلى الحل الحاسم بأقصر وقت ممكن .

الفيتناميون : (نلاحظ هنا أن الجنرال فينه يتحدث عن الحرب في شمال فيتنام وجنوبها وكأنها حرب على جبهة واحدة) .

١ – إن قتال الفيتناميين قتال عادل . فهم يدافعون عن أرضهم ومنازلهم ، لذا يشترك مئات الآلاف من المواطنين في الصراع إلى جانب القوات المسلحة لجبهة التحرير الوطنية ، وهم يستخدمون في ذلك آلاف الوسائل المختلفة فإذا ما جمعنا قوات الجيش النظامي ، والقطعات المحلية ، ووحدات الدفاع الذاتي ، وجدنا أن القوات الشعبية أكثر عدداً وأفضل نوعاً من قوات العدو .

٢ – يقدم الشعب العون والدعم لكافة المقاتلين المنضمين إلى القوات المسلحة المذكورة أعلاه . لذا فإن من السهل تعويض الخسائر التي يتعرض لها أي فرع من فروعها ، وذلك باستخدام الاحتياط الواسع المتوفر من الرجال .

٣ – لا تستخدم جبهة التحرير الوطنية الأسلحة التقليدية فحسب ، بل تستخدم في دفاعها عن القرى عدداً كبيراً من الأسلحة البدائية ، كأفخاخ الصيد مثلاً . وهذا ما يوقع بالأمريكيين خسائر كبيرة .

٤ – يتلقى المواطنون في الجنوب دعماً كاملاً من شعب الشمال ، ومساعدة مادية من البلاد الاشتراكية ، ودعماً معنوياً من العالم أجمع ، بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية .

ولقد قال لي الجنرال فينه : « **يدل كل هذا على أن فيتنام تقوم بحرب ثورية شعبية ، يعجز العدو عن مجابهتها . ولا يؤدي تدفق القوات الأمريكية إلى الجنوب ، وشن الغارات ضد الشمال ، إلا إلى زيادة الصعوبات أمام واشنطن . ويعرف جميع مواطنينا بكل وضوح بأننا نقاتل ضد قوات الغزاة المعتدين الأجانب** » .

وسألت الجنرال بعد ذلك عن أهمية الاحتياط البشري في الولايات المتحدة الأمريكية . وهل تستطيع واشنطن استخدامه لاستعادة المبادهة في العمليات ، وسحق جبهة التحرير الوطنية ، واحتلال المناطق التي تسيطر عليها الجبهة ؟ فكان رده يؤكد استحالة ذلك .

« **إنهم عاجزون عن استعادة المبادهة في القتال الدائر ، أو إعادة احتلال الأرض أو قلب الموقف لصالحهم** » .

ثم بين لي أن الأمريكيين أرسلوا إلى فيتنام صفوة فرقهم بغية إنهاء العمليات بأقصر

وقت ممكن . ولكن الفيتناميين وجدوا أن هذه الفرق لا تتمتع إلا بقيمة قتالية محدودة مع أنها كانت أفضل ما في جعبة واشنطن . ثم أكد الجنرال أقواله بأن قدم لي مقالاً ظهر في عدد من أعداد أبريل (نيسان) ١٩٦٦ في المجلة الأمريكية « News and World report » يقول فيه الكاتب إن « صفوة القطعات » الأمريكية ، التي تم اختيارها من أحسن الفرق الأمريكية وأفضلها تدريباً ، سيتم سحبها اعتباراً من شهر أغسطس (آب) ١٩٦٦ ، بعد أن اشتركت في القتال لمدة ١٢ شهراً . ثم يتساءل بعد ذلك كيف ستتصرف القطعات التي ستحل محلها . واستطرد الجنرال فينه يقول :

« يقر الأمريكيون أنفسهم بأنهم دفعوا إلى بلادنا خيرة جنودهم ، فما هي الانتصارات التي حققوها خلال سنة من الصراع ؟ إنهم لم يحققوا في الحقيقة أي انتصار » .

ولقد قال لي الجنرال فونغوين جياب بعد حديثه الصحفي المصور بالتليفزيون ، بأن « مقاتلي » فرقة المشاة الأولى ، والفرقة الأولى المحمولة جواً كانوا « يستحقون الرثاء » . وإن **« جميع المعلومات الواردة اليه تؤكد بأنهم عبارة عن جنود « أغرار » لا يمكن مقارنتهم بالجنود الفرنسيين »** فهم لا يتمتعون **« بأي مفهوم عن قتال العصابات في الأدغال ، على حين يقف ضدهم أفضل رجال العصابات في العالم ... إنهم يقعون في أفخاخ لا يمكن أن تخدع طفلاً ، وتتم إبادتهم بالمئات ، ويبدو أن القادمين الجدد أطفال بكل معنى الكلمة » .**

ويقارن الجنرال نغوين فان فينه الحرب الفيتنامية بالحرب الكورية ، حيث كان الأمريكيون وحلفاؤهم قادرين على جمع ٤٠٠٠٠٠ رجل على جبهة واحدة بفضل أمن وحيطة مؤخراتهم . ويستنتج من ذلك ، بأن نصف مليون جندي أمريكي عاجزون عن احتواء الحركة الثورية في فيتنام الجنوبية .

« ولا يتمتع أعداؤنا بخطوط مؤخرات أمينة . فالجبهة قائمة في كل مكان . وهم يتحدثون ببساطة عن هجوم عبر لاووس . ولكن أنّى لهم القوات اللازمة لذلك ؟ وماذا يعتقدون أننا سنفعل عندئذ ؟ وكيف ستتصرف قوات باثيت لاو ؟ إن ٣٤٠٠٠ من مشاة البحرية المتمركزين في دانانغ يحاولون عبثاً منذ سنة أو نيف لتأمين الاتصال مع ١٠٠٠٠ جندي محاصرين في شولي التي لا تبعد أكثر من ٨٠ كيلومتراً . مع أن الأرض التي تفصل بين القاعدتين أرض منبسطة تماماً . ولقد عضّوا بنان الندم بعد كل محاولة جدية قاموا بها لهذا الغرض . أما مؤخراتهم في دانانغ ، فوضعها معروف لدرجة تجعلنا نحجم من ذكره . فكيف يمكنهم في مثل هذه الظروف أن يفكروا باجتياز ٢٠٠ كيلو متراً من

الأدغال والجبال في لاووس ، واحتلال هذه المناطق بعد ذلك ؟ .. إن هذا المشروع يبدو مغرياً على الخرائط التي تنشرها الصحافة الأمريكية ، وهو سبيل إلى بث الطمأنينة في قلوب القراء ، ولكنه في الحقيقة أمر مستحيل التنفيذ » .

وسألت الجنرال عن رأيه بإمكانية مد نطاق الحرب البرية إلى فيتنام الشمالية ، علماً بأن صحافة الولايات المتحدة الأمريكية أعطت في الحقيقة صورة لخطة غزو يعود تاريخها إلى عام ١٩٦٥ ... وتتضمن هذه الخطة إنزالاً بحرياً على طول القسم الضيق من البلاد شمال خط العرض ١٧ ، حيث تكثر الشواطىء الملائمة لهذه العملية ، وحيث يمر الطريق الواصل بين الشمال والجنوب على مقربة من الساحل الذي لا يبعد عن جبال لاووس أكثر من ٥٠ كيلو متراً . (انظر الخارطة على الصفحة الأخيرة) .

« إن ميزان القوى سيتبدل تبدلاً كلياً ، إذا ما شن الأمريكيون عدواناً برياً على الشمال . ففيتنام الشمالية تملك دفاعاً قوياً لا يستهان به ، كما أن الدول الاشتراكيـــة مصممة على حمايتها » .

وكنت أعرف من مصادر عليمة موثوقة ، بأن الصين مستعدة لإرسال مليون جندي إلى فيتنام الشمالية «كبداية» لإرسال قوات أكبر . ولقد تم هذا العرض مع معرفة تامة بالعقاب الذي سيحاول الأمريكيون إنزاله بالأرض الصينية . ولا شك بأن الجنرال فينه فكر بهذا الأمر عندما أضاف قائـــلاً : **« إذا ما شن الأمريكيون عدوانهم على فيتنام الشمالية ، في هذه الفترة التي تتزايد بها نكساتهم في الجنوب ، فإنهم سيتعرضون إلى الهزيمة أمام القوات الكبيرة التي يملكها خصومهم في هذه المنطقة ، مهما كان حجم القوات التي تدفعها واشنطن إلى هذه الهاوية التي لا قرار لها » .**

ثم قرأ لي فقرة من مقاله عن « انعدام » المواقع الخلفية الذي سيحس به الأمريكيون إذا ما اندفعوا في هذه المغامرة :

« عندما يدمر المهاجم في أي صراع خصمه ، أو يجبره على التراجع ، فإنه يحتل أرضه ويقيم فيها سلطته . عندها تصبح المنطقة المحتلة مؤخرته . وتصبح كافة المصادر البشرية والمادية في المنطقة مصدراً يساعده بشكل كلي أو جزئي على سد بعض متطلباته ، وتعويض خسائره ، سواء أتم ذلك بالعنف أم بالرضى .

ومع هذا ، فإن العدو لم يجد في مناطق كثيرة من بلادنا ، وبخاصة في فيتنام الجنوبية ، ركناً هادئاً يثبت فيه أقدامه ، بالرغم من وحشية تدابير القمع العديدة التي يطبقها » .

ثم ذكرني بمختلف الخطط الرامية إلى إحلال السلام . والتي أعدها الأمريكيون

تباعاً ، كخطة ستانلي تايلور ، وخطة ماكنمارا ، وخطة « **احلال السلام داخل قطاعات** » والخطط التي طرحها السفراء ماكسويل تايلور وكابوت لودج والجنرال لانسدال الذي أحيل الآن إلى التقاعد . وأضاف الجنرال بعد ذلك بكل تواضع :

« لقد آلت جميع جهودهم إلى الفشل ، بالرغم من أن اعتمادهم على فرق كاملة خلال سنة أو سنتين ، لإحلال السلام بأي ثمن في بعض القطاعات ، أي في قريتين أو ثلاث قرى على أبواب سايغون ــ شولون ، أو حول القواعد الأمريكية .

ولا يكتفي ثوار سايغون ــ شولون بالعمل في ضواحي المدن الرئيسية ، بل إنهم يقومون بضربات مفاجئة صاعقة في مراكز المدن والقواعد المحمية جيداً .. ومن الواضح أن العدو لا يملك حرية التصرف في حقل استخدام المصادر البشرية والمادية داخل المناطق التي يسيطر عليها . وإنه عاجز عن الأكل أو النوم بطمأنينة وهدوء وسط مصالحه وثكناته ومهاجع جنوده » .

ووضع مقاله على المكتب ، ليتابع كلامه قائلاً :

« إن عدم الأمن في المؤخرات يعرقل تحقيق كل مبادىء الحرب ، وخاصة عندما يريد المرء تصعيد العمليات العسكرية » .

وهو يرى بأن نقص التلاحم في المؤخرة يعود إلى **« ما يتحلى به الشعب الفيتنامي من وعي سياسي عال ، ووطنية عميقة »** .

لقد سافرتم إلى ريف فيتنام الشمالية ، وعشتم داخل القرى ، وزرتم ورشات البناء ، والمصانع التي تم نقلها وتوزيعها ، والقواعد العسكرية ، لذا فإن بوسعكم إصدار حكم صحيح على صلابة قواعدنا الخلفية . وبوسعكم مقارنة موقفنا مع موقف الأمريكيين الذي ينعكس كل يوم في صحافتهم . إن التاريخ العسكري يؤكد بأن أي بلد من البلاد لا يمكن أن يربح الحرب إذا لم يؤمن مؤخراته ، ولم يستفد من كل مصادر البلاد وكأنها مصادره. ولكن الأمريكيين لم يتوصلوا إلى ذلك . ولن يتوصلوا إليه أبداً . وهذا سبب من الأسباب التي تؤكد بأن هزيمتهم محققة لا محالة » .

عند هذا القول بادرته بالسؤال التالي :

« إن لديهم الآن ٢٥٠,٠٠٠ رجل ، ويلعبون دوراً هاماً في العمليات العسكرية ، كما يقومون في بعض الحالات بعمليات خاصة مستقلة . فما هي أهمية قوات سايغون

في الوقت الحاضر ؟

« — إنها أهمية كبرى ، لأن الموقف يحمل في طياته حتى الآن بعض بقايا « الحرب الخاصة » . وليس لدى الأمريكيين عدد كاف من الرجال والعتاد لاحتلال كافة أرجاء البلاد وإدارتها .. لقد كان الأمر مختلفاً بشكل واضح في عهد الفرنسيين ، إذ أنهم عادوا إلى بلادنا في ١٩٤٥—١٩٤٦ مع أساليبهم الاستعمارية القديمة ، وكانوا أناساً يعرفون البلاد ، ويتقنون أسلوب تسيير إدارتها ، ويحملون وراءهم ٨٠ سنة من الخبرة الاستعمارية أما الأمريكيون ، فلا تستطيع قواتهم المؤلفة من ٢٣٠,٠٠٠ رجل إلا احتلال ١٠—١٢ من عواصم المقاطعات أو المدن الكبرى ، علماً بأن عدد هذه العواصم والمدن يناهزا (٢٠٠). وهم عاجزون عن وضع الحاميات في المراكز الحيوية ، كما أنهم أشد عجزاً بالنسبة لإدارة الشعب ، وخاصة سكان الريف . وليس لديهم من يعرف البلاد وأهاليها ، أو يملك الخبرة اللازمة للإدارة هنا ، لذا فهم بحاجة إلى قطعات سايغون ، وما يسمى بحكومة فيتنام الجنوبية . إن وجود قطعات كبيرة أمريكية أو تابعة للبلاد الدائرة في فلك أمريكا على الأرض الفيتنامية قد عدل من حجم الصراع وشكله . ولكن دور الجنود المرتزقة الجنوبيين بقي رغم ذلك دوراً هاماً جداً . فهم يشكلون دعماً سياسياً وعسكرياً للأمبرياليين الأمريكيين نظراً لأنهم يخفون إلى حد ما الوجه الاستعماري الأمريكي ، ويقاتلون كمرتزقة ، ويخففون خسائر الأمريكيين من الرجال ، لذا . فإن إبادة معظم جيش المرتزقة (والإدارة العميلة) تحمل معنى استراتيجياً بالغ الأهمية .

وهنا لا بد من أن نتذكر ، بأن احتلال الأمريكيين بأنفسهم للمنطقة يبدد كل الأوهام الخاصة بنواياهم . لأن النظام الذي سيحاولون تأسيسه سيكون من نوع مشابه للأنظمة التي عرفتها البلاد المعادية التي احتلوها في أوروبا بعد حرب ١٩٣٩—٤٥ .

وتشكل قوات سايغون وقوداً لفوهات المدافع ، إذ يكلفهم الأمريكيون بأقذر الأعمال وأشدها خطورة . الأمر الذي يسمح بإقلال الخسائر الأمريكية .. لقد غيرت الحرب طبيعتها ، ولكن دور العملاء لا يزال كبيراً حتى الآن » .

وعندما قلت له :

« لقد لاحظت عند زيارتي الأخيرة لجبهة التحرير الوطنية أن المقاتلين ينظرون إلى « الخبراء » الأمريكيين كأول عدو يجب قتله . فهل بقي الأمر كذلك حتى الآن ؟ وهل تشكل القطعات الأمريكية الهدف المختار لجيش التحرير ؟ »

أجابني الجنرال فينه مبتسماً :

« ينبغي طرح هذا السؤال على أركان جبهة التحرير . ولكن إذا درسنا تقارير الجبهة ، وجدنا أن قوات التحرير تهتم بكلا الجيشين المعاديين اهتماماً واحداً . ويبدو لي أنه ليس هنالك « أفضلية ما » في هذا الصدد . ففي عام ١٩٦٥ فقدت كتائب المرتزقة ثلث تعدادها . ولقد تعرضت خمس فرق من أصل عشر فرق وهي(الفرق ٢ و ٥ و٢٢و٢٥ و ٢٧) إلى الهزيمة عدة مرات ، وتكبدت بذلك خسائر فادحة وأبيد نصف كتائب هذه الفرق تقريباً . كما تلقت الفرق الخمس الأخرى ضربات قاسية متعددة ... ولقد أبيد أكثر من نصف الاحتياط الاستراتيجي لجيش سايغون ، والمؤلف من ١٢ كتيبة من المظليين ومشاة البحرية المرتزقة . ويحاول العدو تعويض خسائر هذا الاحتياط بأن ينقل إليه الرجال من قطعات ضعيفة التدريب قليلة القيمة . وهذا ما يفسر نقص الرجال على كافة المستويات ، كما يفسر تباين قيمة القطعات وانخفاض قدرتها القتالية . أما قطعات الحرس ، وقوات الميليشيا الإقليمية العاملة في المقاطعات والنواحي والقرى ، فقد تكبدت خسائر فادحة . وأصبحت تكتفي بالدفاع عن القرى الهامة في المقاطعات والنواحي ، محاولة توسيع نشاطها هنا وهناك . ولكن معظمها قانع بالبقاء متخندقاً وراء التحصينات .

وهناك قطعات كثيرة انقلبت ضد سايغون ، تحت قيادة فرق أو مناطق . وهي لم تفعل ذلك لمجرد ولائها للزعماء البوذيين ، ولكنها قامت به تحت تأثير الهزائم الساحقة التي لحقت بها في حرب يتزايد طابعها الأمريكي البحت يوماً بعد يوم . ويحس الضباط — وأغلبهم من سكان المدن — بالعار والخجل عندما يرون ما يلحق بالنساء الفيتناميات، بما فيهن نساء عائلاتهم ، في المدن التي يحتلها الأمريكيون . حيث إن الأخلاق منحطة بشكل ملحوظ .

وتوخياً للدقة ، لا بد لنا من أن نقول : بأن جبهة التحرير الوطنية تعلق أهمية كبرى على تدمير قوات سايغون التي تشكل دعماً ودرعاً للأمريكيين » .

« — إن من قابلتهم من المراسلين الأمريكيين في سايغون يعتبرون أن وصول قوات أمريكية كبيرة مزودة بعتاد ضخم يرفع معنويات قطعات فيتنام الجنوبية . وهذا رأي سائد ومقبول في الولايات المتحدة الأمريكية . فما هي وجهة نظركم في هذا الموضوع؟»

« — لقد كان هذا صحيحاً خلال فترة معينة من الزمن، وخاصة في بداية التدخل . إذ جاءت النجدات الأمريكية في وقت كانت فيه قوات سايغون قد فقدت كل أمل

بالنجاح ، وانخفضت معنوياتها إلى درجة هددت بانهيار بنيان الحكومة كلها . وكان الأمريكيون القادمون مجهزين بشكل رائع ، ويملكون صنادل إنزال ، ودبابات ، ومدافع كبيرة العيار ، ومئات من طائرات الهليكوبتر . الأمر الذي أثلج قلوب الضباط الكبار ، ودفعهم إلى الاعتقاد بأن هذا الغزو سيسمح لهم بالحفاظ على ممتلكاتهم وأرواحهم . وهكذا تلقى الجنوبيون في الحقيقة دعماً فعالاً ، وساعدهم الأمريكيون بفضل الطيران على إخلاء مناطق محاصرة لا أمل في إنقاذها .

ولكن حالة القطعات لم تتغير أبداً . وبدأ المرتزقة يفهمون بأن حلفاءهم بشر لا يتميزون عن غيرهم ، وأنهم يقعون في الكمائن أكثر منهم ، ولا يعرفون إجراء التحركات بصمت ، وإذا ما توصلوا إلى ذلك كانت حركتهم بطيئة كحركة السلحفاة . كما أن الرصاص يصيبهم كما يصيب أي إنسان آخر .

ونحن نرى في الأيام الأخيرة أن القوات الأمريكية تأتي إلى الجبال التي كانت قبر قوات المرتزقة . ولكن منذ أن جاءت لنجدة المرتزقة ، تزايدت عملية إبادة هؤلاء أكثر من أي وقت مضى . ففي عام ١٩٦٤ ، وقبل تدفق الأمريكيين إلى فيتنام الجنوبية ، أباد الثوار أكثر من ١٠ كتائب من المرتزقة في جميع مسارح العمليات داخل فيتنام الجنوبية. وفي عام ١٩٦٥ ، وبالرغم من وصول القوات الأمريكية ، بلغ عدد القوات الجنوبية المبادة في اشتباكات الجبال وحدها ٤٠ كتيبة . وهناك حالات لا يندفع فيها الأمريكيون لنجدة المرتزقة ، بل يهرع المرتزقة على العكس لإنقاذ الأمريكيين ، كما هي الحالة في معركة بلي – مي .

أما في السهول ، فإن وصول القوات الأمريكية لم يتح أي تبديل هام في الوضع العسكري لقوات المرتزقة ، الذين تقع على عاتقهم حتى هذا اليوم مهمة الحفاظ على القرى الاستراتيجية الباقية ، وتأمين الدفاع في القرى داخل المنطقة المحتلة ، وحراسة المراكز الهامة في النواحي والمقاطعات ... ومهما كان عدد القوات الأمريكية كبيراً ، فهي عاجزة عن تحقيق هذه المهمات بدلاً من المرتزقة . كما أن الشبكة الدفاعية التي تتناقص كثافتها يوماً بعد يوم ، لم تعد كافية لحماية النظام العميل في سايغون ، بالإضافة إلى عجزها عن تحقيق تماسك صفوفها أمام الهجوم السياسي – العسكري الذي يشنه الشعب وقطعات جيش التحرير لفيتنام الجنوبية . ولقد أعلن الأمريكيون في عام ١٩٦٥ – وهو العام الذي تدخلوا فيه بشكل واسع – عن حدوث ١١٣,٠٠٠ حالة فرار من الخدمة، وأعتقد أن هذا الحدث الجديد يرد على سؤالكم، ويدحض تأكيدات صحافة الولايات المتحدة الأمريكية .

إن جبهة التحرير الوطنية تقوم منذ بداية الصراع بحرب تتضافر فيها السياسة مع العمليات الحربية . ويشترك كل أفراد الشعب في العمليات السياسية اليومية الموجهة إلى الجنود الفيتناميين الجنوبيين ، بغية إثارة حسهم الوطني ، وإيقاظ الفضائل الوطنية القديمة في نفوسهم . ولا يملك الأمريكيون في مستودعات أسلحتهم أسلحة مضادة قادرة على إبطال مفعول هذا السلاح السياسي الذي لا يقهر . »

ويحقق الجنرال فينه هنا بلا شك سبقاً على أصحاب العقول الإليكترونية في البنتاجون ، والذين سيجدون صعوبة بالغة في إيجاد المعادل الحسابي لسلاح « الفضائل الوطنية » .

وقلت للجنرال :

« هناك سؤال يهم عدداً من أصدقائكم في العالم أجمع وهو : كيف يمكنكم أن تأملوا بالانتصار على الأمريكيين ؟ إن هنالك عدداً كبيراً من الناس ، وبعضهم من مراسلي الصحف الغربية ، يعتقدون بأن أعداءكم عاجزون عن إلحاق الهزيمة بكم . ولكنهم لا يعتقدون بأن جبهة التحرير الوطنية قادرة على ربح الحرب ، أو أن فيتنام الديموقراطية قادرة على الانتصار في صراعها ضد الطيران الأمريكي . »

« – إننا نتحدث بكل ثقة عن الانتصار على الأمريكيين. ولكننا لا نتطلع إلى إلحاق هزيمة عسكرية بالولايات المتحدة الأمريكية . وكل ما نرغبه هو إجبارها على إيقاف العدوان على بلادنا ، وإيقاف الحرب بعد ذلك .. وهذا هو كل شيء .. إننا لن نطارد العدو ، ولن نحاول إغراق أسطوله ، أو طرده من القواعد التي يحتلها خارج فيتنام . كما أننا لا نفكر باحتلال أراضيه . إننا نقاتل للحصول على استقلالنا . فعندما نحصل على الاستقلال نكون قد انتصرنا .

وهناك أشياء يصعب تفسيرها حتى لأعز أصدقائنا . ولكننا قانعون بأن التحليل الموضوعي للموقف يؤكد بأن بوسعنا الوصول إلى النصر . كما إننا قانعون بقدرتنا على هزيمة مختلف عناصر الجيش الأمريكي المشتركة في هذه الحرب .

فلنفحص هذه العناصر واحداً بعد الآخر ، ولنر علام تعتمد الولايات المتحدة الأمريكية . إنها تعتمد قبل كل شيء على طيرانها . وهو يقدم لها دعماً لا ينكر كقوة تدميرية ، ووسيلة من وسائل نقل القطعات . ولكن هذا السلاح الذي تعتمد عليه سلاح له حدوده » .

ولنأخذ على سبيل المثال طائرات ب ــ ٥٢ . إن فرقتين جويتين استراتيجيتين من قوات الباسيفيكي تضمان هذه الطائرات وتعملان في فيتنام الجنوبية ، ولقد قامتا بحوالي مائة غارة جوية ، فإذا ما قارنا عدد العمليات والقنابل الملقاة مع أهمية الخسائر المحققة ، وجدنا أن هذه الطائرات هي أقل الطائرات فاعلية في السلاح الجوي الأمريكي . ونسبة إصابتها لأهدافها أقل من غيرها من الطائرات ، وتسبب أقل عدد من القتلى والجرحى . إن الغارات التي تقوم بها الطائرات ب ــ ٥٢ ، ويصفها أعداؤنا بأنها غارات « إبادة » لم تؤد إلى نتائج هامة إلا عندما وجهت ضد المدن الكبرى ذات الكثافة الصناعية والسكانية، وغير المجهزة بأسلحة دفاعية حديثة . فإذا ما تحولت إلى ضرب مدن فيتنام الشمالية ، شكلت بكتلتها الضخمة ، وسرعتها الصغيرة هدفاً يسهل إسقاطه . ولقد أثبت استخدام طائرات ب ــ ٥٢ في فيتنام الجنوبية قلة فاعليته وكثرة تكاليفه [1] ، بفضل قلة كثافة السكان الريفيين ــ تلك الكثافة التي تتناقص يوماً بعد يوم ــ والتوزيع الذكي لقوات التحرير المسلحة ، وتدابير الدفاع التي أخذها الشعب والقوات المسلحة ، وأثبتت فاعليتها ضد الطائرات .

وفي فيتنام أنواع أخرى من الطائرات العاملة ، يقدر عددها بـ ٣,٠٠٠ طائرة ويعمل معظم هذه الطائرات في فيتنام الجنوبية وتضم ١٠٧١ هليكوبتر ، و ١٠٩٣ طائرة قتال، و ٧١٠ طائرة مختلفة .

وتقوم طائرات القتال عادة بغارات منعزلة ،وتعمل على دعم المشاة خلال الاشتباكات البرية . ولقد ارتكبت هذه الطائرات جرائم لا تحصى ضد المواطنين العزل في فيتنام الجنوبية ، ولكن أضرارها تتناقص باستمرار نظراً لتطور التدابير الدفاعية الشعبية وتحسنها المستمر . إنها تؤثر على قوات التحرير الوطنية ، وتجبرها على تعديل أساليب القتال ، ومدة الاشتباك ، ولحظة الهجوم والانسحاب ، وأسلوب السيطرة على الأرض أو إخلاء حقل المعركة ، ولكنها لاتستطيع منعها من إجراء معارك كبيرة تهدف إلى إبادة كتائب العدو وأفواجه . ولقد تم في عام ١٩٦٥ تدمير أكثر من ٩٠٠ طائرة في فيتنام الجنوبية ، كان قسم كبير منها جاثماً في قواعده نفسها . فإذا قارنا خسائر الأمريكيين بالطيارين

---

(١) تكلف ساعة طيران ب ــ ٥٢ مقدار ١٠٥٢ دولاراً ، على حين تكلف ساعة طيران الطائرات التكتيكية ٥٠ دولاراً فقط .

(المؤلف)

والفنيين والطائرات ، مع الخسائر التي تلحقها الطائرات المعادية بشعبنا في فيتنام الجنوبية، وجدنا أن خسائر العدو من بعض النواحي أكثر من خسائرنا .

ومما لا شك فيه أن القاذفات والمقاتلات المعادية أوقعت بفيتنام الشمالية خسائر بالرجال والعتاد لا يمكن إنكارها . وأعاقت إلى حد ما مواصلاتنا وحركة النقل في بلادنا . ولكن أثبتت أحداث السنة الماضية كما قلنا ، بأن طائرات العدو عجزت عن تأمين النصر ، أو تدمير اقتصادنا الذي يعتمد معظمه على الزراعة ، أو التأثير على صناعتنا الإقليميـــة وحرفنا ، أو إيقاف مواصلاتنا وحركة النقل على طرقنا » .

وكان الجنرال فينه قد قال لي في عام ١٩٦٢ ، بأن الأمريكيين أدخلوا في الحرب بدعة تقنية جديدة لم يكن الفرنسيون يلجأون إليها وهي : استخدام الدبابات البرمائية وطائرات الهليكوبتر . وهي معدات ذات قدرة حركية كبيرة . وتسمح بتحقيق المفاجأة التي تعتبر عاملاً هاماً في حرب العصابات. وعندما ذكرته بذلك ، وسألته عن رأيه باستخدام الهليكوبتر أجابني قائلاً :

« هذا صحيح . إذ تلعب الهليكوبتر دوراً ملحوظاً في زيادة حركة قوات المشاة المعادية . كما أن لها دوراً محدوداً في المهمات الأخرى ، كنقل العتاد ، وإخلاء الجرحى ، ودعم القوة النارية .. الخ . فما هي الفاعلية التي أدى إليها نقل قوات المرتزقة بالهليكوبتر؟ إن فشل تكتيك « النقل بالهليكوبتر » « Heliqortage » في « الحرب الخاصة » يتضمن في حد ذاته إجابة واضحة على هذا السؤال .

إن استخدام العدو لهذا السلاح، اعتراف منه بضعفه وعجزه عن السيطرة على خطوط المواصلات في المناطق المحتلة . وكثيراً ما تناقص محيط الأرض الأمينة المحيطة بأراضي هبوط الهليكوبتر ، لدرجة تجعل الأمريكيين يتقاتلون فيما بينهم عند ركوب الطائرات، إذ أن كل واحد منهم يود أن لا يكون آخر الراحلين ، حتى لا يتعرض لهجوم مفاجيء يكنسه . ولقد ذكرت الصحافة الأمريكية حالات أطلقت فيها القوات الأمريكية النار على قوات المرتزقة التابعة لها ، والتي كانت تتدافع وتتقاتل بغية الركوب في طائرات الهليكوبتر . ولم تكن مثل هذه الأحداث المخجلة لتقع لو أن الأمريكيين استطاعوا السيطرة على طرقات المنطقة ، وطمأنوا الجنود الذين يعرفون جيداً أن لا فرصة أمامهم للعودة سيراً على الأقدام ... وتقدم الهليكوبتر للمشاة قدرة حركية كبيرة . ولكنها تجبر القوات على البقاء على بعد عدة كيلو مترات فقط من المناطق الجرداء داخل الغابات ، نظراً لأنها

المناطق الوحيدة التي تسمح بالإقلاع أو الهبوط ... والآن ما هي النتيجة التي توصلت إليها الفرقة الشهيرة الأولى للخيالة الجوية والمزودة بحوالي ٥٠٠ طائرة هليكوبتر ؟ إنها لا تزال تحاول حماية منطقة لا تتجاوز مساحتها عدة كيلومترات مربعة تحيط بقاعدتها في آن خي. ويقتل مهرة رماة جبهة التحرير الوطنية ضباط هذه الفرقة وجنودها واحداً تلو الآخر ، كما أن طائرات الهليكوبتر لم تستطع منع وقوع عدة معارك التحام بالسلاح الأبيض داخل حدود قطر الدفاع. إذن فليست هذه الطائرات التي يعتمد عليها الأمريكيون سلاحاً خيالياً لا يقاوم .

وتشمل تحليلاتنا عناصر أخرى تشكل عاملاً من عوامل دهشة أصدقائنا . وتقول هذه التحليلات بأننا لا نعتبر الآلة الحربية الأمريكية آلة كبيرة القيمة بالرغم من معداتها الهائلة التي تدهش العديد من المراسلين الغربيين . ولقد كانت الآلة الحربية الفرنسية أفضل منها بكثير . ونحن لا نعتبر الجنرالات الذين يعملون في الميدان أو في القيادة العامة أو في سايغون ضباطاً ممتازين ، فهم عاجزون عن تقدير الموقف في أوضاع ملموسة معينة ، وخاصة في فيتنام . »

عندها سألت الجنرال :

« هل ينطبق هذا عليهم بالرغم من عقولهم الإليكترونية . إنني أسمع بأن نتائج هذه العقول لا تخيب أبداً . »

ورد الجنرال مبتسماً :

« نعم ، بالرغم من عقولهم الإليكترونية » .

ثم عبث بقلمه هنيهة ، وتابع كلامه :

« إن الآلات الإليكترونية لا تقدم أجوبة صحيحة إلا إذا زودت بمعلومات موضوعية، على حين أن جميع معلومات وكالة المخابرات المركزية C. I. A. بعيدة عن أن تكون كذلك .

ومهما يكن من أمر ، فإن التاريخ العسكري للولايات المتحدة الأمريكية يؤكد على أنها لا تتدخل في الأحداث بقوة السلاح إلا عندما يكون تطور الأحداث ملائماً لها . ففي الحرب العالمية الأولى ، انتظر الأمريكيون وصول الألمان إلى حافة الهزيمة قبل أن يزجوا قواتهم . كما انتظروا في الحرب العالمية الثانية ، ولم يفتحوا الجبهة الثانية في أوروبا الغربية قبل أن يتحققوا من أن الجيش الأحمر السوفييتي قد حطم القوات الهتلرية، وجعلها

على شفا الهزيمة النهائية . ثم عجلوا في استخدام القنبلة الذرية للحفاظ على هيبتهم عندما رأوا أن الجيش الأحمر السوفييتي ، وجيش التحرير الشعبي الصيني ، سائران بخطى حثيثة لتدمير معظم القوات اليابانية في منشوريا وكوريا الشمالية . ومنذ أكثر من عشر سنوات ، جاء تدخل القوات الأمريكية في كوريا والكونجو وسانت دومينغو ليوقف تدهور موقف الأمبرياليين الأمريكيين ، أو ليقلب الأمور لمصلحتهم .

ويعتمد الأمريكيون عادة على حساباتهم الخاصة البعيدة عن الموضوعية . لذا اعتقد قادتهم بأن إرسال بضع مئات آلاف من الجنود إلى فيتنام الجنوبية ، وتصعيد الغارات الجوية ضد فيتنام الديموقراطية كافيان لتبديل الموقف لصالحهم ، وإجبار قوات التحرير في فيتنام الجنوبية على الدفاع ، وإكراهها على القيام بأعمال عصابات مبعثرة ، ودفع الأهالي في شمال فيتنام وجنوبها إلى الاستسلام . ولكن ظروف التدخل على نطاق واسع في فيتنام الجنوبية مختلفة تمام الاختلاف عن الحالات المذكورة آنفاً ، إذ أن التدخل لم يقع في لحظة ضعف الشعب وقوات التحرير في الجنوب ، ولكنه وقع على العكس في مرحلة تفكك بها جيش المرتزقة والحكومة العميلة بشكل خطــير ، وفشلت « الحرب الخاصة » فشلاً ذريعاً بعد دفعها إلى حدها الأقصى ،وانتشرت فيها قوات جبهة التحرير الفيتنامية الظافرة بكل قوتها في كل مكان ، وتطورت فيها الحركة الثورية بعنف لم يعرف من قبل ، وامتدت من كوانغ تري إلى كامو ، ومن الريف إلى المدينة . وهذا ما يفسر الأوامر التي أصدرها البنتاجون إلى القوات الأمريكية بالتزام الدفاع منذ وصولها إلى فيتنام الجنوبية .

ولقد استخدمت قوات جبهة التحرير الوطنية في انتصاراتهــا الأخيرة تكتيكات وأساليب قتالية متنوعة جداً : كالإغارات المفاجئة ضد القواعد العسكرية الأمريكية ، والدفاع الإيجابي (كما في فان توونغ) ، واللقاءات غير المتوقعة (كما في توان نينه) والانقضاض (كما في نوي تانه وبوبانغ) . والكمين (كما في دات كووك) والهجوم على المخافر مع التعرض للنجدات (كما في بلي مي ودونغ دوونغ) .. الخ . لقد اشتبكت في معارك ليلية ونهارية ، وفي فصل الأمطار وفصل الجفاف ، وكانت مدة معاركهــا ساعات أو شهراً كاملاً ، وعملت في الغابات والجبال والسهول والمدن ، وبقوى هجومية مختلفة حسب الظروف . ويؤكد شمول الانتصارات الباهرة التي حققتها قوات التحرير بأن القوات الأمريكية عاجزة عن الانسحاب دون التعرض لنكسات خطيرة . ويطرح هذا الأمر سؤالاً يمكننا أن نرد عليه بالاستنتاج التالي : إن جنود وشعب فيتنام الجنوبية

قادرون تماماً على الانتصار في حربهم ضد القوات الأمريكية مهما تباينت الظروف » .

ثم قام الجنرال فينه بتقدير دقيق للقطعات الأمريكية المشتبكة في الصراع عندما قال :

« إن فرقة المشاة الأولى ، المدربة للقيام بعمليات نظامية ، والمحرومة من أي مثل أعلى يدفعها إلى القتال ، تفوق قوات المرتزقة من الناحية الآلية ، ولكنها تشابهها بالنسبة لاستخدام وسائل النقل . وهي تعمل في بلاد تجهلها وفوق أرض لا تعرف عنها شيئاً . وتتصف بمعنويات ضعيفة مزعزعة . ولقد رأينا في المعارك الأخيرة (بونانغ ونامات) كيف تفتتت وحدات فرقة المشاة الأمريكية الأولى إلى أجزاء صغيرة ، منذ اللحظـــات الأولى للاشتباك، بفضل انقضاض قوات التحرير . وكيف تعرضت هذه الأجزاء للإبادة خلال ساعات معدودة .

ولقد وضعت هذه الفرقة خارج القتال بعد عدة هزائم فادحة . وهي تتساءل الآن كيف يجب عليها أن تتصرف في المستقبل ، حتى تتحاشى النكسات ، ولا تتعرض إلى المتاعب نفسها . وهي مترددة بين الحلول التالية : أخذ موقف دفاعي والتخندق في قواعدها أو عدم القيام بطلعات إلا إذا تجمعت الظروف الملائمة لنجاحها ، أو تحاشي الاشتباك عند الهجوم مع خصم يعادلها ، أو البقاء على مسافة كبيرة من قوات التحرير في حالة الاشتباك حتى تتمكن من طلب دعم المدفعية والطيران .

ولكن من سوء حظها أن قوات التحرير اليوم معتادة على ضرب العدو في جميع الظروف والأحوال ، سواء أوقف موقف المدافع ، أم انتقل إلى الهجوم . وهي تعرف كيفتقاتل بشكل ملائم يتناسب مع أهمية قواتها ، كما تعرف كيف «تمسك الخصم من نطاقه» لتضربه وتمنعه في الوقت نفسه من الا بتعاد .

ولا تتاح الفرصة أمام ألوية المظليين لاستخدام تكتيكها . ولقد فهمت بعد مغامرتها الفاشلة في توان نينه ، بأنها لا تستطيع فرض احترامها إلا على عدو ضعيف ذي مؤخرة حساسة ، وبأنها تجد في كل شبر من الأرض الفيتنامية التي تنزل بها عدواً يقظاً من رجال العصابات ، وأفخاخاً ، وقطعات نظامية تضربها بقوة بغية إبادتها ، قبل أن يتوفر لرجالها الوقت الكافي ليتعرفوا على مكانهم ، ويتشبثوا بالأرض . لذا لم يعد الأمريكيون يستخدمون الإنزال الجوي في فيتنام الجنوبية إلا نادراً ، وأصبح هذا التكتيك بالياً زال أوانه . وتكتفي قوات المظليين بالانتقال بطائرات الهيلكوبتر أو السير على الأقدام للاشتباك بمعارك كبيرة . والحقيقة ، إن المظليين أقل قدرة على القتال من بقية الاختصاصيين الأمريكيين .

أما الفرقة الأولى من الخيالة الجوية ، فهي قطعة ذات شكل خاص ، ومجهزة بأفضل

التجهيزات ، وتتمتع بقدرة رائعة على الحركة . ولقد اعتبرها البنتاجون ورقته الرابحة الرئيسية لاستعادة المبادهة في تاي نغوين . ولكنها هزمت بعنف في بلي مي (حيث تشتتت تاركة قتلاها على الأرض) بعد أن هاجمها مشاة قوات التحرير . إن تكتيك « النقل بالهليكوبتر » الذي ابتُدع منذ عدة سنوات ، لم يستطع كما رأينا إنقاذ قوات المرتزقة . كما فشل تكتيك الفرقة الأولى من الخيالة الجوية الأمريكية ، وبدا عاجزاً عن إنقاذ القطعات الأمريكية القادمة من أماكن نائية ، والتي لم تعتد على طوبوغرافية فيتنام الجنوبية وغاباتها وجبالها . علماً بأن هذه الخيالة لا تمتاز على قوات المرتزقة أبداً من ناحية قدرتها القتالية .

إن أحدث المعدات عاجزة عن أن تؤمن للخيالة الجوية قدرة حركية تساوي قدرة قوات التحرير على الحركة . كما إنها عاجزة عن إعدادها للقتال على مستوى قوات التحرير المقاتلة في سبيل مثل ثوري أعلى ، والموجودة في كل مكان ، والمتمتعة بدعم ومساعدة شبكة واسعة النطاق من القطعات المحلية والمتطوعين ، والحائزة على جميع صفات القطعات النظامية المتمرسة على فنون القتال ، والجاهزة للانقضاض على العدو في كل لحظة .... كل هذا حقائق أكيدة أثبتتها وقائع حقل المعركة في فيتنام الجنوبية .

ولمشاة البحرية التقليدية مهمة القيام بإنزالات وهجمات سريعة لاحتلال الجسور والشواطىء ، وإعداد رأس جسر لإنزال المشاة . ولكن العصابات تحتل في فيتنام الجنوبية مجمل حقل العمليات على الشاطىء . ولقد أعطت القيادة الأمريكية لمشاة البحرية بعد هزيمتها في فان تعونغ[1] مهمة حراسة القواعد العسكرية على طول الشواطىء ، والقيام بالدوريات في المناطق المجاورة[2] ، ولكنها نادراً ما تنفذ هذه المهمة بشكل مرضٍ ، ولقد هوجمت جميع القواعد التي كلفت بحراستها من الداخل ، وسقطت بين المطرقة والسندان ، وتعرضت لنيران العصابات من الداخل والخارج . وتقوم مشاه البحرية بين آونة وأخرى بنشاطات ذات صبغة دفاعية تمتد إلى خارج القواعد ، فتتعرض في كل مرة إلى خسائر فادحة .

---

(١) ما يسميه الأمريكيون « انتظار شولي » .
(المؤلف)

(٢) لقد تم الحديث مع الجنرال قبل عمليتي « هاستينغ » و « بريري » اللتين حاول فيهما مشاة البحرية بدون جدوى احتلال الأرض الواقعة جنوب خط العرض ١٧ مباشرة ، وتكبدوا خلال محاولتهم خسائر فادحة.
(المؤلف)

إن وقوف الأمريكيين أمام عدو قوي وشجاع متحرك حاضر في كل مكان كقوات تحرير فيتنام الجنوبية ، يجعل قواعدهم العسكرية والإدارية في خطر دائم ، لا تستطيع معه تأمين حيطتها تجاه الضربات الجريئة الأريبة المفاجئة .

وهكذا تتلقى هذه القواعد ضربات منتظمة ، وتتعرض لخسائر فادحة جداً تجعلها عاجزة عن تأمين متطلبات القطعات الأمريكية المتزايدة يوماً بعد يوم ، أو تموين آلاف المرتزقة والعملاء المحرومين من التموين المحلي . في وقت تكاد تنقطع به الطرق الواصلة بين قواعد الشاطىء وداخل البلاد ، والتي كانت تسمح بمرور المعدات والمتطلبات الإدارية الأخرى . وليس هناك من يستطيع تحديد جميع الصعوبات والاضطرابات التي ستتعرض لها مصالح التموين والإدارة والنقل العادية في المستقبل . وليس هناك من يستطيع الاعتقاد بجدية وموضوعية تأكيدات الأمريكيين القائلة بأنهم قادرون على القتال في فيتنام الجنوبية خلال عشرات السنين بقوات قوامها ٥٠٠,٠٠٠ أو ٧٠٠,٠٠٠ أو مليون رجل .

إن دراسة الأسباب الأساسية لانتصارنا المؤكد ولهزيمة العدو الحتمية ، وتقييم أسلحة العدو وقطعاته الخاصة يدفعاننا إلى رؤية واضحة للأسس القوية التي تسمح لنا بالسير نحو النصر الكامل » .

إن المستقبل وحده كفيل بإظهار صحة توقعات الجنرال أو خطئها . ولكن هذه التوقعات تأخذ في اعتبارها بلا ريب عوامل عديدة، كالتقاليد ، والطبيعة ، والجو ، والنفسية ، والسياسة ، والحياة الاجتماعية . وهي كلها عوامل دقيقة تصعب معرفتها وتقبلها من قبل العقول الإليكترونية في البنتاجون .

وليس علينا إلا أن نجمع بعض التصريحات التي أدلى بها ماكنمارا خلال السنوات الأخيرة حتى نلاحظ إلى أي مدى خدعته هذه الآلات . ومن الجدير بالذكر أن ماكنمارا قام حتى كتابة هذا الكتاب بثماني زيارات لفيتنام الجنوبية ، واشترك في ١٥ مؤتمراً استراتيجياً في هونولولو لبحث قضية فيتنام .

عام ١٩٦٢ : في المؤتمر بعد زيارته الأولى لفيتنام الجنوبية : « **ليس هناك مخطط يتوقع تدخل قوات محاربة في فيتنام الجنوبية** » .

يوليه (تموز) بعد المؤتمر في هونولولو : « **لقد بدأنا بمهاجمة ثوار الفييت كونغ في النقطة الحساسة ، أي إننا بدأنا نكسب الأهالي لقضية الحكومة** » .

عام ١٩٦٣ : ٢ أكتوبر (تشرين أول) تصريح البيت الأبيض : « **لقد قال ماكنمارا والجنرال ماكسويل تايلور بأنهما يعتبران بأنه سيتم تنفيذ الجزء الأكبر من المهمة العسكرية**

التي تضطلع بها الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية عام ١٩٦٥ » .

في ٢٠ نوفمبر (تشرين ثاني) صرح ماكنمارا : « **إن ٣٠٠ جندي أمريكي سيغادرون فيتنام في ٣ ديسمبر (كانون أول) ، كما سيغادرها ١٠٠٠ جندي آخر في نهاية العام »** .

في ٢٠ ديسمبر (كانون أول) صرح ماكنمارا في سايغون بأنه : « **متفائل بالنسبة للتقدم الذي يمكن تحقيقه خلال السنة المقبلة »** .

في ٢٢ ديسمبر (كانون أول) أعلن البيت الأبيض عن : **انسحاب جميع القوات الأمريكية قبل نهاية عام ١٩٦٥** . ثم أُلغي هذا الخبر بعد عودة ماكنمارا من سايغون .

عام ١٩٦٤ : ١٨ فبراير (شباط) : صرح ماكنمارا بأنه لا يعتقد بأن على الولايات المتحدة « **أن تتحمل مسؤولية الحرب »**

١٧ مارس (آذار) ، بعد زيارة جديدة إلى سايغون مع الجنرال تايلور أعلن ماكنمارا : « **قد يتحسن الموقف بشكل كبير خلال الأشهر القادمة »**

١٠ مايو (مايس) في سايغون : « **التقدم الحالي ممتاز »**

١٤ مايو (مايس) أعلن ماكنمارا في أحد المؤتمرات بواشنطن ، بأنه قد يكون من الضروري « **إرسال عدد إضافي من الرجال الأمريكيين إلى فيتنام بغية تدريب قوات فيتنام الجنوبية بشكل أفضل »** .

١٥ أغسطس (آب) : أكد للرأي العام بعد القصف الجوي لمنشآت المرافىء في الشمال ، بأنه : « **لا يتوقع شن غارات أخرى »** .

عام ١٩٦٥ : ٧ فبراير (شباط) : بدء الهجمات الجوية المنهجية على فيتنام الشمالية .

١٩ ــ ٢٠ أبريل (نيسان) : كشف ماكنمارا بعد مؤتمر استراتيجي في هونولولو عن وجود خطة ترمي إلى زيادة القوات الأمريكية في فيتنام الجنوبية بما يعادل ١٠٠,٠٠٠ إلى ١٦٠,٠٠٠ رجل ، وصرح بأن الغارات « **قد سمحت بتخفيض عمليات التسلل بالرجال والعتاد من الشمال »** .

٢٦ أبريل (نيسان) : « **إن تسلل الرجال والسلاح يتزايد يوماً بعد يوم »** .

١٦ يونيه (حزيران) : صرح بأن القوات الأمريكية ستصبح ٧٥,٠٠٠ رجل منهم ٢١,٠٠٠ مقاتل .

٢٠ يوليه (تموز) : صرح ماكنمارا في خلال رحلته السادسة إلى سايغون بأن

الموقف العسكري : « **متدهور بالرغم من المساعدة والتدخل الأمريكيين على نطاق واسع** »

٢٨ يوليه (تموز) : أعلنت وزارة الدفاع بأن القوات الأمريكية العاملة في فيتنام الجنوبية سترتفع من ٧٥,٠٠٠ إلى ١٢٥,٠٠٠ رجل.

٢٨ – ٢٩ نوفمبر (تشرين ثاني) : صرح ماكنمارا في سايغون : « **لقد توقفنا عن خسارة الحرب** » ولكنه أبدى في الوقت نفسه استغرابه من « **حدة هجمات جبهة التحرير الوطنية ، والمستوى الذي تم فيه داخل المناطق الجبلية المركزية** » .

عام ١٩٦٦ : ٢٠ – ٢١ يناير (كانون ثاني)، أعلن ماكنمارا أمام الكونجرس الأمريكي: **بأن الخطط العسكرية مبنية على أساس أن الحرب « ستستمر حتى نهاية يونيه (حزيران) ١٩٦٧ »** .

٢ مارس (آذار) : أعلن أن : **عدد القوات الأمريكية في فيتنام ارتفع إلى ٢١٥,٠٠٠ رجل ، بالإضافة إلى ٢٠,٠٠٠ رجل سيتم إرسالهم بعد ذلك .**

١١ مايو (مايس) : أعلن ماكنمارا أمام هيئة الشؤون الخارجية لمجلس الشيوخ الأمريكي بأن « **الغارات الجوية أثرت تأثيراً بالغاً على معنويات قوات الفييت كونغ ، وزعزعت إيمانها بالنصر . وأن قوات الفييت كونغ بدأت تفقد الدعم الذي كانت تجده بين صفوف السكان القرويين ...** » .

٢٩ يونيه (حزيران) : بعد قصف مستودعات المحروقات في هانوي وهايفونغ ، أعلن ماكنمارا : « **بالرغم من الخسائر الفادحة التي تكبدتها القوات الفيتنامية الشمالية العاملة في الجنوب ، فقد تضاعف عدد هذه القوات خلال النصف الأول من عام ١٩٦٦ ، كما تزايد وزن العتاد المنقول من الشمال إلى الجنوب بمعدل ١٥١٪ . وتقوم الفييت كونغ الآن بعمليات عسكرية شبه نظامية ، وتستخدم الأعتدة الثقيلة ، والأسلحة ذات العيار الكبير .** »

١١ يوليه (تموز) : بعد المؤتمر الاستراتيجي الخامس عشر في هونولولو . أعلن ماكنمارا بأنه « **متفائل تفاؤلاً حذراً** » بالنسبة للحرب ، الأمر الذي لا يعني أن « **العمليات الحربية ستنتهي في وقت قريب** » .

نوفمبر تشرين الثاني : صرح ماكنمارا بعد زيارته الثامنة لسايغون ، **بأن عدد القوات**

الأمريكية في فيتنام سيرتفع إلى ٣٨٥,٠٠٠ رجل في نهاية عام ١٩٦٦ وسيصل هذا العدد إلى ٤٧٥,٠٠٠ رجل في نهاية عام ١٩٦٧ . ولقد نقلت النيويورك تايمز هذه الأرقام في عددها الصادر في ٢٢ نوفمبر ، ثم علقت على ذلك: «**وستؤدي هذه الزيادة إلى إثارة معضلات إدارية كبيرة ، لأن ١٥٠,٠٠٠ رجل على الأقل سينهون خدمتهم الإلزامية في تلك الفترة ، وسيكون علينا استبدالهم** » .

وهكذا يبدو أن هانوي استفادت من عقولها البشرية بشكل يفوق الفائدة التي جناها ماكنمارا من عقوله الإليكترونية . وسيدفع الشعب الأمريكي في النهاية غالياً ثمن هذه السلسلة من الحسابات الخاطئة .

الفصل الحادي عشر

هانوي العاصمة !

هانوي مدينة صغيرة هادئة ، تتسم شوارعها بالسكينة ، ويشاهد فيها الأطفال عادة وهم يلعبون بمسدسات خشبية ، على مقربة من ملاجىء الحماية ضد الغارات الجوية ، ويشاهد المرء في شوارعها أزواجاً من الشبان والشابات الذين لم يرحلوا عن المدينة ، وهم يتنزهون وقد تشابكت أيديهم ، أو يجلسون متقاربين على المقاعد المحيطة بـ « البحيرة الصغيرة » في قلب العاصمة . كما ترى الزهور التي تجاوزت أسوار الحدائق لتطل على الرصيف ... وفي الظهيرة يندفع سيل من الدراجات ليخلق الحركة من جديد في الشوارع الهادئة ... ويصعب على المرء أن يتصور وسط هذا الجو ، أن هناك آلات إليكترونية تقع على بعد ١٠,٠٠٠ من الكيلومترات ، قادرة على أن تقرر بأزيزها وتكتيكاتها تدمير هذه المدينة أو الحفاظ عليها . ومن أكثر الأمور إثارة ولا شك ، أن يستطيع المرء إلقاء نظرة خاطفة على المعلومات التي تقدم إلى هذه الآلات ، أو معرفة أفكار الرئيس جونسون عندما يعكف على دراسة نصائحها واقتراحاتها .

ولا تعتبر هانوي مدينة من مدن الشرق الأقصى المهيبة ، ويجدها السواح القادمون من البلاد الاشتراكية أو الغربية مدينة رمادية قاتمة ، وهي في الأصل مدينة فقيرة ، ولقد نجحت الحكومة في إيقاف هذا الفقر عند حدوده القديمة ، ومنعه من التفاقم ، أو الانحدار إلى الدرك الأسفل من البؤس . ولم تؤثر التحسينات التي أصابت الريف على المدينة إلا

قليلاً ، وبخاصة من ناحية الشكل والمظهر . ولم تحاول الحكومة أن تنشىء فيها أمكنة ضخمة تجذب السياح ، كما تفعل جميع الحكومات في مختلف العواصم .. وقد يكون هذا خطأ ، إذ كان على الحكومة أن تبذل بعض الجهود في هذا الصدد ، وكان عليها إعادة طلاء وإصلاح المنازل على الأقل . وليس من المحتمل أن تقوم بذلك في هذه الأيام . وإذا ما بحثت عن المخازن وجدت أن العدد المحدود من المحلات الأنيقة الراقية التي كانت في الماضي وقفاً على الطبقة المتميزة ، قد اختفت مع اختفاء الامتيازات نفسها . وهذا أمر طبيعي منتظر ، لأن معظم أفراد الأقلية المتميزة كانوا من الأجانب ، وكبار الموظفين ، وبعض التجار الموسرين .

ويشكل كبار الموظفين اليوم على العكس جزءاً من الطبقة المحرومة . ويضرب رئيس الجمهورية ورئيس وزرائه المثل في التقشف والزهد . وهما يعيشان في الحقيقة داخل المنازل التي كانت مخصصة للخدم في قصر الحاكم العام الفرنسي السابق . وهما لا يقومان بذلك بدافع ديماغوجي ، ولكنهما يتابعان العيش بوتيرة حياتهما السابقة ، التي كانت حياة آلاف الإطارات المناضلة المخلصة خلال حرب المقاومة الأولى . الأمر الذي ينسجم تمام الانسجام مع وضع البلاد الاقتصادي .

ففي سبتمبر (أيلول) ١٩٤٦ كان الرئيس هوشي مينه يستعد لإلقاء بيانه بإعلان الاستقلال عندما لاحظ في آخر لحظة ، بأنه لا يرتدي الألبسة الملائمة ، وأنه حضر من الأدغال ببنطال قصير كاكي قديم ، وزوج من النعال المصنوعة من إطار سيارة . فهرع بعض الحاضرين بسرعة إلى أحد المحلات التجارية المجاورة ، وعادوا معهم ببذة كاكية اللون ، وزوج نعال مطاطية . وكان هذا هو كل ما اتخذه من تدابير مراعاة للمراسيم والبروتوكولات .

لقد رحل معظم التجار الموسرين ، وكبار الموظفين ، وكل من كانوا يعيشون بفضلهم إلى سايغون ، عندما تم فصل المقاتلين عن بعضهم البعض بعد اتفاقية جنيف في عام ١٩٥٤ . كما رحلت الجالية الأجنبية أيضاً ، وجاء أجانب جدد من البلاد الاشتراكية ، ولكنهم لا يملكون المال أو الرغبة اللازمين لخلق زبائن جدد في البارات والمطاعم والمحلات التجارية الراقية . لذا لم يستطع هؤلاء القادمون الجدد صرف الأموال الكافية لبقاء إعلانات النيون ، والأبنية الضخمة ، التي كان من الممكن أن تحافظ على لونها المحلي ، وسماتها الخاصة ببلاد الشرق الأقصى ، أسوة بما يحدث في عواصم آسيوية أخرى . ومما لا شك

فيه أن الحكومة لم تجد ما يدفعها إلى تبديد النقد الأجنبي لاستيراد بضائع كمالية ، حتى ولو كان لديها زبائن لهذه البضائع ... كل هذا جعل من هانوي ، حتى الأعوام الأخيرة مدينة ذات مظهر فقير متقشف . ولقد تزايد فقر هذا المظهر مع تزايد تهديدات الحرب على جبهة لاووس ، وفي جنوب خط العرض ١٧ .

أما التدابير التي سمحت برفع مستوى الفلاحين بشكل بسيط ، فقد أجبرت الحكومة على تخفيض مستوى حياة الطبقات المتوسطة في المدن . وقد لا تهدف السياسة الاقتصادية الحالية إلى المساواة المطلقة ، ولكنها تهدف على أي حال إلى تخفيض حدة اختلاف الأجور وعدم المساواة بين القرويين وسكان المدن ... والسيارات الوحيدة التي يصادفها المرء في الشوارع هي سيارات كبار الموظفين والوزراء والأمناء العامين (وكلاء الوزارات) وهي لا تتحرك إلا لأمور تتعلق بالعمل . بالإضافة إلى السيارات الموضوعة تحت تصرف البعثات الأجنبية التي تزور البلاد ، وسيارات السلك الدبلوماسي ، ولجنة المراقبة الدولية . وحركة النقل في هذه العاصمة محدودة جداً ، وهذا ما يجعل من كل سيارة مثار انتباه رجـــال الشرطة الذين يراقبون مفارق الشوارع . ومن الملاحظ أن الدولة لم تقم خلال ١٢ سنة من السلطة الاشتراكية بإنشاء أية أبنية حديثة ضخمة داخل العاصمة . وهناك محـــلات تجارية تبيع للسياح بعض الحاجيات التقليدية المصنوعة يدوياً : كالصور المدهونة ، وتماثيل العاج ، والتحف الفضية ، والسلال المزركشة ، وأغطية الطاولات وأشياء صغيرة أخرى.. ولكن البضائع المعروضة الأخرى تفتقر إلى التنوع والجودة .

هذه هي مظاهر المدينة التي تشد انتباه الزائر الأجنبي قبل كل شيء ، وخاصة إذا كان هذا الزائر يعرف هانوي عندما كانت عاصمة الهند الصينية الفرنسية ، بشوارعها المضاءة الزاهية ، وباراتها المتعددة ، ومخازنها المليئة بالبضائع الفرنسية الأنيقة ، وشوارعها الغاصة بالسيارات والقوافل العسكرية . ولكن الفيتناميين ينظرون إلى الأمر بشكل آخر . فالبضائع المعروضة في المحلات تلائم اليوم متطلباتهم ، وتتناسب مع ما يملكونه من مال. وكل البضائع الجديدة مصنوعة داخل بلادهم ، وأهمها زجاجات حفظ الماء المثلـــج (الترموس) ، والدراجات ، والأقمشة ، والمصابيح اليدوية ، والمصابيح الكهربائية ، وبعض الأدوات المصنوعة من المينا ، والسكاير ، والكبريت ، والأحذية المطاطيـــة ، ومعاطف للوقاية من المطر ، وعدد عديد من المعدات الصغيرة وأدوات المطبخ المتواضعة. وتباع كافة هذه البضائع الضرورية للحياة اليومية بأسعار زهيدة بشكل يدعو إلى الضحك

إذا ما قيست بسعر تحويل العملة للأجانب . وهي أسعار معقولة أيضاً بالنسبة لدخول الأفراد العاديين .

وهناك تحسينات أخرى أصابت حياة المواطنين ، ولكنها تحسينات يصعب على السائح اكتشافها ، كتخفيض ساعات العمل ، والحصول على الإجازات بأجر ، والتقاعد عند الشيخوخة ، وخدمات التعليم ، والصحة العامة ، وميزات أخرى لا يمكن للمرء أن يراها مكدسة تحت أضواء النيون ، أو في واجهات المحلات التجارية .

وبالرغم من عدم إنشاء أبنية حديثة في العاصمة ، فإن الأمر مختلف في الضواحي التي رأت ظهور عدد كبير من مصانع الأدوات الاستهلاكية العادية التي ذكرناها من قبل ، بالإضافة إلى مصانع أكبر تنتج الآلات والمحركات ، والمحولات الكهربائية ، ومحركات القوارب (ديزل) ، والمضخات الآلية . ويرى في الضواحي النائية العديد من المعاهد والمؤسسات الجديدة للاقتصاد والمال والطب والصيدلة وتحديد النسل والأقليات الوطنية والزراعة والمسرح والسينما .. إلخ ، ويقع معظم هذه المعاهد والمؤسسات في أبنية متواضعة ، مؤلفة من دورين أو ثلاثة أدوار . ومتباعدة عن بعضها بعداً كافياً ، وتحيط بها عادة حقول الأرز . وقد يصادف المرء مثل هذه المؤسسات على بعد عدة كيلومترات من العاصمة . وهي لا تثير الاهتمام ببنائها نفسه ولكن بما تمثله بالنسبة للمستقبل . وتعدل بوجودها الشكل الريفي المسيطر على العاصمة .

والغريب في الأمر أن الزوار القادمين من سايغون هم آخر من ينتقد هانوي . ذلك لأن الحياة الطبيعية الهادئة المخيمة عليها تتناقض لحسن الحظ مع مظهر التوتر الحربي الذي كان يسيطر على سايغون قبل قدوم الأمريكيين ، ثم تزايد بعد تدخلهم . وليس في هانوي ضجيج أو أبواق سيارات الشرطة . ولا يصادف المرء في شوارعها دبابات تزمجر أو دوريات عسكرية ، أو إعلانات عن أفلام أجنبية بوليسية مثيرة ، أو أكوام من القمامة. فمن الملاحظ أن هانوي مدينة نظيفة جداً . ولا ينتظر العاملون في فنادقها ومطاعمها النفحات (البقشيش) كمكافأة لهم على ابتسامتهم . وليس في المدينة عاهرات أو قوادون أو تضخم عملة . واختفاء العديد من البارات التي كانت موجودة في كل حي وشارع أمر يخفف العبء عن كاهل المواطنين بما فيهم المدمنون . وينظر كثير من الأجانب القاطنين في هانوي إلى المدينة نظرة جديدة بعد أن يقضوا عشر دقائق مع أحد القادمين من سايغون. والذين يمكن مصادفة الكثيرين منهم ، نظراً لحركة الذهاب والإياب التي يقوم بها أعضاء هيئة المراقبة الدولية العاملة في المدينتين .

ولهانوي رغم مظهرها المتقشف جاذبية خاصة . ويتمتع سكانها بأوقات راحتهم بشكل هادىء متواضع ... وتقع « البحيرة الصغيرة » في قلب العاصمة ، وهي درة تحف بها أشجار ضخمة ، وفيها هيكل صغير يتصل بالشاطىء بواسطة جسر حجري مندفع داخل الماء . ويحيط بالبحيرة من جميع أطرافها مشارب صغيرة تقدم فيها المشروبات المثلجة المحلاة من شراب جوز الهند المثلج حتى البيرة المحلية اللذيذة الرخيصة إلى حد كبير . وتحيط بالبحيرة اليوم ملاجىء الوقاية من الغارات الجوية التي تجاور المشارب وتزاحمها على المكان . والملاجىء شيء عادي في هانوي ، فهي منتشرة في أكبر الشوارع وأهمها . أما الشوارع الصغيرة فأرصفتها مليئة بالملاجىء الإسمنتية الفردية الأسطوانية المزودة بغطاء . وهناك حراس يرفعون الأغطية عند سماع إشارة الإنذار الجوي ، ولكن غالباً ما يرفع الغطاء الشخص الراغب باستخدام الملجأ الفردي . ومعظم الملاجىء العامة مغطاة بالتراب ، وتزرع البلدية على سقوفها الزهور أو الخضروات . ولقد رأيت قرب الفندق الذي أقطنه ملجأ مغطى بعيدان الذرة .

ويحاذي أحد أطراف « البحيرة الصغيرة » الحي الأوروبي الذي بناه الفرنسيون . والشوارع في هذا الحي عريضة مزدانة بالأشجار . وفيه كثير من الدارات (الفيلات) التي يشغلها اليوم الدبلوماسيين الأجانب . وعلى الطرف الآخر للبحيرة يقع الحي الفيتنامي القديم الذي كانت شوارعه في الماضي متخصصة بهذه الحرفة أو تلك ، كما كانت المدن الأوروبية في عصور الإقطاع . وهناك ٣٦ شارعاً لمختلف الحرف . ولكن يبدو أن معظم الحرف قد زالت ، ولم يبق منها سوى الاسم الذي يحمله الشارع . وشارع الحرير هو أشهر هذه الشوارع بالنسبة للأجانب . وهناك شارع الفضيات ، ونقاشي حجر اليشب ، والعاج ، والنحاس والمبيضين ، والحذائين ، وصناعة الصناديق والتوابيت .. الخ ولا يزال بعض الحرفيين يعملون في هذه الشوارع ، على حين أسس معظمهم جمعيات تعاونية ، أو بدأوا يعملون في الصناعة . وهكذا فقدت شوارع المدينة القديمة نشاطها وطابعها السابقين ويعود ذلك إلى التوسع الصناعي ، وتناقص زبائن التحف والكماليات – منذ ابتداء القصف الجوي – بالإضافة إلى تهجير عدد كبير من السكان غير اللازمين لعمليات الإنتاج والدفاع .

وتزخر ضفاف « بحيرة البامبو الأبيض » بالحياة في يومي السبت والأحد . ويأتي العديد من المواطنين اليها لممارسة رياضة التجديف بالقوارب . وهناك مطعم في الهواء الطلق يؤمه الكثيرون نظراً لشهرته بتقديم الجمبري المقلي ، الذي ينقل من الماء إلى المقلاة ليقدم بعد ذلك مع البيرة التي غدت خلال عدة سنوات المشروب الوطني المفضل . وفي

هانوي بحيرات متعددة أخرى ومنها « بحيرة الوحدة » التي حفرها جنود جيش التحرير في أوقات فراغهم . ويحيط بهذه البحيرة ضفاف مزهرة تحظى بعناية فائقة ، ومقاعد عديدة تكفي لجميع أزواج المدينة . ولقد بدا لي عند زيارتي الأخيرة أن هذه المقاعد مشغولة بالمسنين ، بعد أن رحل الشبان إلى جبهات القتال أو العمل .

وتقع ساحة يادينه في قلب الحي الأوربي ، وعلى مقربة من المقر السابق للحاكم العام وهي تمثل في هانوي ما تمثله الساحة الحمراء في موسكو ، وساحة تيين آن مين في بكين . ففيها تلا هوشي مينه في ٢ سبتمبر (أيلول) ١٩٤٦ إعلان الاستقلال الذي كتب كما قال في خطابه « بالدم والدموع التي قدمها المواطنون منذ أكثر من ثمانين عاماً » وكان الإعلان مبنياً على ثماني نقاط ، كان هوشي مينه قد طرحها على ويلسون وكليمانصو ولويد جورج وبعض الساسة الآخرين في مؤتمر فرساي عام ١٩٢١ . حيث طرح نغوين آي – كوك – وكان هذا اسم الرئيس هوشي مينه آنذاك – موضوع استقلال فيتنام لأول مرة . وتتضمن السطور الأولى من إعلان الاستقلال فقرات من إعلان الاستقلال الأمريكي بالإضافة إلى فقرات من إعلان حقوق الإنسان والمواطن الفرنسي .

« يولد جميع الناس متساوين . لقد أعطانا الخالق حقوقاً لايجوز الاعتداء عليها، وهي حق الحياة ، وحق الحرية ، وحق السعادة .

إن هذا القول مأخوذ من إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٧٧٦. فإذا ما أخذناه بمعناه الواسع دل على : أن كل شعوب الأرض تولد متساوية ، ولها حق الحياة والسعادة والحرية .

وينادي إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي طرحته الثورة الفرنسية في عام ١٧٩١ بأن : الناس يولدون أحراراً ويبقون أحراراً ومتساوين في الحقوق » .

إن مفهوم « العالم الحر » الذي يطرحه الرئيس هوشي مينه واضح وملموس، كمفهوم الرجال الذين يحاولون الآن باسم هذه « الحرية » نفسها إبادة شعب ، وكتم أفكاره .

ومن الجدير بالذكر أن نقول بأنه بعد إعلان الاستقلال بثلاثة أشهر جرت في كافة أرجاء البلاد انتخابات عامة . ولم يكن خط العرض ١٧ آنذاك يشكل خط تحديد بين شطري فيتنام . ومع هذا فإن السفير الأمريكي المتجول كابوت لودج أظهر في حديثه لمندوب محطة Colombia Broadcasting System في ٢٢ ابريل (نيسان) حذراً كبيراً بالنسبة للانتخابات في فيتنام ، حتى تلك التي وعد الجنرال كي بإجرائها . واعتبر أنها

تمثل « أرضاً مجهولة » . ولم يكتف بذلك ، بل ذكر ملاحظة تدل على جهله المطبق بالوضع الصحيح عندما قال : **لم يعرف الشعب الفيتنامي في حياته الانتخابات على المستوى الوطني ولمواضيع وطنية . وهذا أمر لم يقع في تاريخ هذه البلاد أبداً »** .

ولقد حصلت الفييت مينه في الانتخابات الوطنية التي جرت في يناير (كانون الثاني) ١٩٤٦ فوق مجمل الأرض الفيتنامية على ٢٣٠ مقعداً في المجلس الوطني . وفي ٣ مارس (آذار) من العام نفسه انتخب هوشي مينه رئيساً للجمهورية . وبعد ثلاثة أيام أعلن جان سانتني ممثل فرنسا في هانوي ، عن اعتراف حكومته بجمهورية فيتنام الديموقراطية كـ« دولة حرة لها حكومتها الخاصة وبرلمانها ونظامها المالي » . وفي ١٤ سبتمبر (أيلول) وقع البلدان في فونتينبلو اتفاقية تعايش تؤكد اتفاقية ٣ مارس .

ولقد كتب أحد الأمريكيين المشهورين المتخصصين بشؤون فيتنام عن انتخابات عام ١٩٤٦ ما يلي : «**لو تمت هذه الانتخابات بأسلوب غربي ، لكان من المتوقع نجاح بعض النواب المحافظين الإضافيين . ولكن النتائج النهائية لم تكن لتتغير .** » لذا فإن من الغريب أن نلاحظ كم كانت معلومات كابوت لودج عن هذا الموضوع خاطئة . وخاصة إذا تذكرنا خوف الأمريكيين من أن تعطي انتخابات عام ١٩٥٦ نتائج مماثلة لنتائج انتخابات ١٩٤٦ أو أسوأ منها ــ من وجهة نظرهم ــ بالإضافة إلى أن خوف الأمريكيين نفسه هو الذي دفع واشنطن إلى أن تبذل كل ما في وسعها لمنع إجراء الانتخابات ، بالرغم من بنود اتفاقية جنيف التي تحدد ضرورة إجرائها في يوليه (تموز) ١٩٥٦ ــ ويرى كثير من المراقبين أن قرار منع الانتخابات كان سبباً من أهم أسباب الصراع الحالي .

وفي ساحة بادينه منصة متواضعة من الخشب ، يعتليها المسؤولون في البلاد ، وكبار الزوار ، في ذكرى استقلال البلاد ليتحدثوا إلى الجماهير . وهي الآن أحد الأماكن الهامة في تاريخ فيتنام .

ويؤم الزوار المهتمون بتاريخ البلاد القديم المتحف التاريخي . ويسمح هذا المتحف بإجراء ربط مباشر بين تكتيك الفيتناميين العسكري الحالي ، وتكتيك أسلافهم منذ ألف سنة . ففي عام ٩٣٨ أغرق نغوكوين أسطول الغزو الصيني (الهان) . وفي عام ١٢٨٨ دمر تران هونغ داو ٤٠٠ مركب من مراكب المغول الغزاة . ولقد استخدم كلا القائدين آنذاك الأساليب الفنية التي استخدمتها جبهة التحرير الوطنية في صراعها ضد المظليين وطائرات الهيليوكبتر . علماً بأن الجبهة استخدمت فضلاً عن ذلك بعض المدفعية المضادة

للطائرات .

ويرى في هذا المتحف أوتاد مدببة ضخمة بطول مترين أو ثلاثة أمتار . كان الفيتناميون يغرسونها في سرير باش دانغ ، في المنطقة الواقعة شمال موقع مدينة هايفونغ الحالية . والتي كانت طريق الغزو التقليدي في ذلك العصر . ولقد تم نزع حوالي ٢٠٠ وتداً من هذه الأوتاد من قطاع صغير لا تزيد مساحته عن ١١٨ × ٢٠ متراً . وبقي في القطاع مع ذلك بعض الأوتاد . وكانت القوارب الفيتنامية ذات الغاطس الصغير بالنسبة لقوارب العدو تتظاهر بصعود التيار جاذبة بذلك خلفها قوارب العدو ، في وقت يغطي به المد تلك الأوتاد . وعندما كانت قوارب العدو تحاول النزول مع التيار إلى البحر خوفاً من الاصطدام بالأرض عندما ينخفض مستوى الماء مع الجزر ، كان الفيتناميون يلاحقونها . وهكذا كان الصينيون والمغول يجدون أنفسهم محصورين بين الأوتاد والقوارب المهاجمة . وكان انحسار الماء عند الجزر يجعل قواربهم تلامس اليابسة مشكلة بذلك هدفاً ثابتاً رائعاً أمام سهام الفيتناميين المحرقة . وهكذا سقط في هذا الفخ أسطول السونغ الصيني في عام ٩٨١ ، أي في الفترة الواقعة بين غزو الهان وغزو المغول .

ويلاحظ طيارو الهليكوبتر غالباً أن المناطق الجرد وسط الغابات ، والواقعة قرب حقول المعركة التي اختارها الفييت كونغ ، مزروعة بأوتاد مدببة تحطم المراوح وتثقب جسم الطائرات . ولقد توقف المظليون عن الهبوط بالمظلات بعد أن لاحظوا أن أعشاب الأراضي التي تبدو صالحة للهبوط تخفي أوتاداً معدنية ذات رؤوس حادة . وفي الوقت نفسه يستخدم الفيتناميون الشماليون أساليب متعددة لخدع الطائرات الأمريكية وجذبها نحو أهداف كاذبة ، حيث يستطيع المدفعيون وطيارو الميغ تنفيذ مهماتهم على أحسن وجه .

ويستغرب الزائر الغربي عندما يرى أن الفيتناميين يستخدمون قبعة المستعمرين التي لا يخلو منها رسم ساخر (كاريكاتوري) يمثل الأمبريالية في آسيا وأفريقيا ، ويعتبرونها غطاء رأس وطني في شمال البلاد . ويرتديها عادة كافة العسكريين والمدنيين من النساء والرجال ، بما فيهم رئيس الجمهورية نفسه . وهي مصنوعة محلياً من عجينة صناعية ، ولقد تناسى الناس أصلها الاستعماري نظراً لخفتها وفاعليتها في الوقاية من الشمس . وقبعات الجنود مغطاة بقماش أخضر للتمويه .

ويرى المرء قليلاً من السيارات في شوارع هانوي ، ولكن القوافل في الضواحي كثيرة العدد . وتحمل كل عربة نقل سقفاً إضافياً من الخشب المعاكس ، يمنع انعكاس

الضوء على الزجاج الأمامي من أن يجذب انتباه الطيارين . وسقوف سيارات النقل العام في المدينة والضواحي مغطاة بطبقة كثيفة من الورق . أما الفتحات فمدهونة بلون قاتم . ويجهز الزجاج عادة بأشرطة ورقية حتى لا يتناثر على شكل شظايا تحت تأثير ضغط انفجار القنابل . ونوافذ المدارس والمستشفيات العاملة حتى الآن « مزدانة » بأشرطة الورق نفسها. وليس في استخدام كلمة « مزدانة » أية مبالغة ، لأن الفيتناميين قصوا الورق بروحهم المرحة ، وحسهم الفني الطبيعي ، وأعطوه أشكال ومناظر زخرفية ، تذكرنا بالمناظر الفنية التي تزين النوافذ والحواجز الصينية (بارافان) . ويشكل كل هذا فناً فولكلورياً حقيقياً. ونوافذ مصحة هانوي مزدانة بشرائط ورقية تمثل حمامة السلام لبيكاسو ، وكأن حمامة السلام موضوعة هنا للتهكم على المعتدين . وهناك رسوم أخرى تمثل شخصيات الأوبرا الفيتنامية ، وسط عدد لامتناه من الرسوم الهندسية المتعددة .

فإذا ما تجول المرء في الشوارع وسط الجماهير التي لم تفقد مرحها ، رأى جنوداً يسيرون مثنى وثلاث ، وهم يمسكون بأيدي بعضهم بعضاً ، وشاهد حافلات الترام تسير بضجيجها المعهود ، وقد تدلت من نوافذها سلال مليئة بالدجاج والخضار .. ويؤم الناس في هانوي دور السينما بشكل كبير ، منذ أن رحلت العائلات ، وأصبح الرجال الباقين فيها يتمتعون بأوقات فراغ كبيرة . ويجتمع الناس في هانوي على نواصي الشوارع ليقرأوا الإعلانات التي تتحدث عن الطائرات التي تم إسقاطها . ولا يكاد الأجانب يلاحظون وجود السؤال الملح الذي يشغل بال الجميع : متى ستسقط القنابل الأولى ... ؟

إن جو المدينة لا يحمل أي توتر . ولكن لكل فرد من الباقين في المدينة أهـــل تم تهجيرهم ، أو يستعدون للرحيل . وفي يوم الاثنين يتبادل الذين سنحت لهم فرصة الذهاب لرؤية أطفالهم في الريف مشاعرهم وانفعالاتهم داخل المصانع والمكاتب . لقد قلب التهديد بالقصف الجوي حياة العائلات . ويسمع سكان العاصمة كل يـــوم صوت الطائرات والانفجارات المدوية التي تحدثها القنابل المتساقطة على بعد ٣٠ ــ ٤٠ كيلومتراً . ويعرف السكان من الإذاعة مصيرهم المحتمل ، حيث أن الحكومة لا تمنع سماع الإذاعة «صوت أمريكا » أو إذاعة « سايغون » فشعارها الرسمي هو « **قارنوا أكاذيبهم مع الحقيقة التي تعيشونها** » وهي تترك الناس أحراراً في سماع الحوار الدائر بين « الصقور » الراغبين بتدمير هانوي « والحمام » الراغبين عن ذلك .

وإذا ما تخيل المرء كل ما يمكن أن يصيب هانوي قال لنفسه : لعل من حسن حظ

سكانها أن حياتهم لم تتحسن كثيراً خلال سنوات السلم التي تلت الاستقلال . وتبدو الآن بكل وضوح الحكمة في عدم تعجيل الحكومة ببناء مجموعات سكنية أو مكاتب ، مع أن هذا البناء أمر يمكن تبريره في مدينة يسكنها مليون من البشر . وليس في المدينة مصاعد كهربائية ، أو أنفاق لحافلات المترو ، يمكن أن يسجن الناس في داخلها إذا ما انقطع التيار الكهربائي . وليس هناك ثلاجات ضخمة مليئة بكميات هائلة من مخزون الأطعمة التي يمكن أن تفسد عند أي عطل كهربائي . كما أن السيارات قليلة لا يمكن أن تسبب الازدحام أو عرقلة المرور ، إذا ما توقفت إشارات الشوارع الضوئية عن العمل . إذن ليس في هانوي أي شيء مما يمكن أن يسبب هلعاً مماثلاً للهلع الذي أصاب نيويورك والساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية خلال انقطاع التيار الكهربائي في شتاء عام ١٩٦٥ . وليس هناك ناطحات سحاب يمكن أن تنهار لتسد الشوارع ، وتردم تحت انقاضها مئات الأشخاص ، فبيوت هانوي صغيرة يستطيع سكانها إذا ما وقع « الأسوأ » أن يهرعوا خلال لحظات إلى ملاجئهم المغطاة بالزهور .

ولقد رأيت المدينة في مناسبات متباينة . ولكن زيارتي الأولى تركت في نفسي أكبر الأثر ، ذلك لأنها وقعت في فترة عودة الجيش الشعبي إلى العاصمة ، بعد اتفاقية جنيف عام ١٩٥٤ .

وإني ألاحظ الآن وأنا أعيد قراءة ما كتبته آنئذ بأن في مقالي السابق توقعاً صحيحاً للوضع الراهن الذي نراه الآن ، ووصفاً حياً لآلاف الشباب الذاهبين لإنهاء العمل الذي بدأ به آباؤهم وإخوتهم الكبار .

ففي عام ١٩٥٤ تم انتقال السلطة إلى القوات الشعبية شارعاً شارعاً وبيتاً بيتاً . ولقد وصلت قطعات الجيش الشعبي الفيتنامي إلى المدينة سيراً على الأقدام ، وكان رجالها ينتعلون نعال « هوشي مينه » الشهيرة المصنوعة من إطارات السيارات . على حين كانت أرتال الجيش الفرنسي الآلية تبتعد مزمجرة . وكان سكان هانوي يسيرون قرب الجنود وهم يحملون الرايات والأعلام .

« إن الجماهير تتقدم على الأرصفة على محاذاة الجنود الأوائل . وتقف معهم لتنطلق معهم من جديد . ويتزايد حجم الجماهير باستمرار مع توغل الرتل في شوارع المدينة ، ولكن انضباط الأهالي لا يقل عن انضباط القطعات النظامية . لقد وجهت قيادة الجيش الشعبي الفيتنامي إلى المواطنين نداء تناشدهم فيه المحافظة على الهدوء بغية تحاشي الإثارة

والتحديات . وجرى كل شيء في جو من النظام والهدوء . وباحتلال الجيش لشوارع المدينة عادت الحياة من جديد . وظهرت الأعلام في النوافذ بعد مرور رايات الجيش ببضع دقائق فقط . وبعد عدة ساعات ، انتصبت أقواس تزدان بالأنوار وحمامات السلام وصور الرئيس هوشي مينه . وبكل ما يمثل النصر والسلام والسعادة » .[1]

وفي اليوم التالي تم دخول الجيش الشعبي الفيتنامي إلى العاصمة بصورة رسمية .

« وارتدى الجميع خيرة ثيابهم . ولبست نساء المدينة بنطلونات وقمصاناً طويلة شعبية من الحرير الخفيف الزاهي الألوان . وارتدت الفلاحات بنطلونات واسعة سوداء، وقمصاناً بنية طويلة . وكان المسنون يقفون بمهابة ، وقد ارتدوا قمصانهم التقليدية الطويلة السوداء ، وبناطيلهم الحريرية البيضاء ، وقد اعتمروا قبعات مستديرة شعبية . أما الشبان فكانوا جميعاً يرتدون القميص والبنطال الغربيين ... وكان الجميع يلوحون بالأزهار والأعلام الصغيرة ، ويلقون باقات الزهر في سيارات نقل الجنود المارة وسط الشوارع . وعندما تتوقف سيارة عسكرية من السيارات كان الأطفال يهرعون لتقبيل الجنود والزهور في أيديهم .

ومرت سيارات نقل عسكرية ، وسيارات جيب ، ورشاشات ، ومدافع ميدان ، ومدافع بازوكا أمريكية أمام الجماهير السعيدة ، وفي الوقت نفسه كانت الهتافات المدوية تشق عنان السماء .

وارتفعت حدة الانفعال فجأة وعرف الحاضرون من أهالي الجنود أبناءهم ، وبدأ الجميع يتناقلون الخبر : إن الجنود المارين يشكلون جزءاً من فوج هانوي... لقد كانوا شباناً من العمال والطلاب والمواطنين العاديين الذين قاتلوا الفرنسيين ببطولة وراء المتاريس في بداية المقاومة ... لقد رحلوا مع جرحاهم منذ ثماني سنوات تقريباً ، وهم يرتدون الأسمال، ويحملون البنادق القديمة ، بعد قتال في الشوارع دام شهرين وقد اضطروا في تلك الغضون إلى ترك المدينة ، والهرب تحت جنح الظلام من بين صفوف الفرنسيين ، واجتازوا النهر الأحمر عند جسر بول ـ دومير الذي يبلغ طوله كيلو مترين ، هذا الجسر الذي يصل هانوي بضاحية جيا ـ لام . وانسحبوا إلى داخل البلاد ، وليعدوا أنفسهم للمعارك المقبلة .

---

(١) ويلفرد ج . بورشيت : إلى شمال خط العرض ١٧ (عام ١٩٥٥) ـ لم ينشر بالفرنسية . (المؤلف)

إن أهلهم ونساءهم يجدون اليوم صعوبة في التعرف على هؤلاء المناضلين القدامى بثيابهم العسكرية الجيدة ، والجالسين بنظام على مقاعد سيارات النقل الضخمة ، التي تحمل كتابات تشير إلى أنهم شاركوا في معركة ديان بيان فو . وكان بعض الجنود يجلسون وراء المدافع المقطورة المضادة للطائرات، على حين كان البعض الآخر يتقدم سيراً على الأقدام بنظام رائع ، كجنود قدماء ضرستهم المعارك . ولكن يبدو أن هذه المعارك لم تجعلهم قساة لدرجة تمنع دموعهم من الانحدار على وجناتهم ، عندما كانوا يرون بين بين الجموع وجه إنسان عزيز لم يروه منذ ثماني سنوات ، أو يسمعون نداء أم أو أب أو زوجة أو ولد .

لقد شكل هؤلاء الأبطال في بداية الصراع نواة فوج هانوي ، الذي يشكل اليوم جزءاً من الفرقة ٣٠٨ من القطعات الخاصة الممتازة . وكانت المعركة الكبيرة في المقاومة معركتهم . لأن هذه المعركة لم تبدأ حقاً ، إلا في الليلة التي أقام بها شبان العاصمة المتاريس. ولقد سمحت معركتهم الأسطورية التي دامت مدة شهرين بكسب وقت ثمين ، استطاعت الثورة خلاله تنظيم المقاومة في الريف ، وتدمير الطرقات والجسور ، وتأخير تقدم الفرنسيين ، مع منعهم من تدمير قواعد الفييت باك . ويعود تشكيل كتيبة هانوي إلى معركة المتاريس في شوارع هانوي . ثم توالى سيل المتطوعين الجدد الذين كانوا يهربون من المدينة ليلتحقوا بالثوار ، وأصبحت الكتيبة فوجاً (ثلاث كتائب) ، اشترك في جميع المعارك الهامة ، بما فيها معركة ديان بيان فو .

وهكذا عاد فوج هانوي ، على حين انسحب اعداؤه الأقوياء ، يحملون معهم سلاحهم وتقنيتهم ، بعد أن انتصر عليها شعب يتفوق عليهم بمعنوياته ، لأنه يقاتل في سبيل قضية عادلة .

لقد كان ذلك اليوم الذي مرت فيه القوات أمام جماهير هانوي يوماً حافلاً ، تتخلله النداءات والضحكات والدموع واللقاءات المفاجئة المؤثرة والفراق المفاجىء .. كانت القافلة تسير وسط الشوارع فأردنا التقاط بعض الصور ، وفجأة انطلقت من الجموع صرخة مكتومة ، والتفت مترجمنا نحو مصدر الصوت وشحب لونه : فقد كان هناك فتاة شابة ترافقها طفلتان صغيرتان وكانت تضغط فمها بظهر يدها كما لو أنها غير واثقة مما ترى . وناداها المترجم باسمها ، عندها تبدد الشك ، فهذا الرجل الواقف أمامها بزيه العسكري هو عمها ، ولكنه قد شاخ مبكراً . ودفعت الطفلتين أمامها ، وكانتا بنتي

مترجمنا . لقد تركهما منذ ثماني سنوات ، وكانت البكر صغيرة جداً ، على حين كانت الطفلة الثانية رضيعة ، ولم يرهما بعد ذلك ... وابتسمت الطفلتان الصغيرتان ثم انخرطتا في البكاء بهدوء . ولم يكن أمام الأب سوى لحظات معدودات ، ضمهما فيها إلى صدره وتحركت القافلة ، فقفز إلى السيارة وهو يقول للشابة شيئاً بصوت عال ، وردت عليه الفتاة . فكتب على ظهر يده عنواناً . واغرورقت عيناه وعيون كل من كانوا في العربة بالدموع .

ووقعت مئات من الأحداث المشابهة . سؤال مفاجىء ... أين زوجتي ؟ ، وهل هي حية حتى الآن . ؟ .. وتتابع السيارة مسيرها وسط القافلة . وكان الكثيرون من الجنود يجتازون هانوي متجهين إلى قطاعات أخرى لتنفيذ مهمات جديدة . فالجميع ، من الضباط إلى أصغر الجنود ، يعرفون بأنهم لن يذوقوا طعم الراحة قبل أن تتحرر كافة أرجاء البلاد وتتوحد . ولم يتح لمعظمهم سوى أن يقبلوا زوجاتهم وأطفالهم بسرعة ، ويتمتموا ببعض الكلمات الممزوجة بالضحكات والدموع قبل انصرافهم . ولكنهم كانوا يقبلون هذا الوضع بفخر وانضباط كما لو أن معجزة إلهية تدفعهم إلى ذلك . ويستحيل على كل من شاهد هذه اللقاءات القصيرة أن يشك بعمق العواطف التي تخلقها ، وأن لا يحس بحب أعضاء الأسرة وحاجتهم الملحة لجمع شملهم بشكل دائم . ولعل أكثر ما يثير الإعجاب والتقدير ، روح الانضباط التي تحلى بها الجنود ، وقدرتهم على الفهم وتقبل التضحيات المقبلة ، التي يستطيع الجميع بعدها التمتع بمستقبل سعيد يعوض حرمان الحاضر . »

فكم رجلاً من هؤلاء اضطر الآن من جديد إلى هجر عائلته وأطفاله وأصدقائه ، ليحمل على كتفيه من جديد أعباء المهمة نفسها .. ؟ . ويجد الأهل ذلك طبيعياً تماماً كما يراه الذاهبون إلى القتال ... إن لدي العديد من الأصدقاء في هانوي . ومع هذا فأنا لم أسمع أي شخص يشكو إلا من الأمريكيين ، وممن يتعاونون معهم ، أو يطالبون الشعب بالخضوع لهم .

فهل سنرى مشاهد مماثلة في سايغون .. ؟ وهل ستعرف هذه المدينة الحفلات بمناسبة انسحاب الأمريكيين ، ودخول قطعات جبهة التحرير الوطنية .. ؟ إن الجنرالين جياب وفينه مؤمنان بذلك ، كما يؤمن بذلك الجنرال نغوين هوتو ، رئيس جبهة التحرير الوطنية . ولكن ماذا سيبقى من هانوي عندئذ . ؟ إن الجواب الوحيد على هذا السؤال هو إشارة استفهام ضخمة .

ويشغل هذا الموضوع بال الكثيرين . ولقد سمعت أشخاصاً مرموقين في العاصمة يطرحون بهذا الصدد أفكاراً غريبة أنقل للقارىء أهمها :

« ماذا يهم إذا ما دمرت هانوي ! ! إننا سنعيد بناءها من جديد بعد تحسينها ، وسنجعل منها مدينة فيتنامية حديثة ، على حين أنها تتمتع اليوم بطابع نصف أجنبي نصف إقطاعي. إننا لا نقر القادة التشيكيين الذين فتحوا حدودهم أمام الغزاة ، بعد أن هدد هتلر بقصف براغ ، . ثم دفعوا ثمن هذه الخطيئة خمسة أعوام من الاحتلال النازي . ولقد ترك الفرنسيون نصف بلادهم للألمان ، والنصف الآخر للفيشيين ، بغية إنقاذ باريز . ولكننا لن نفعل ذلك أبداً . لأن هذه المواقف نابعة عن مفهوم بورجوازي للحرب . ولن نخضع أبداً في سبيل إنقاذ عاصمتنا من الدمار ... »

ويمكن الرد على ذلك بأن باريز وبراغ لم تكونا مدينتين أجنبيتين . ولكنهما تمثلان على العكس عبقرية الشعوب التي بنتهما . ولا يمكن اعتبارهما مدينتين تحملان الطابع الإقطاعي ، ولكنهما نتاج عدة عصور من التطور . عندها يكون جواب الفيتناميين « **بأن أية مدينة في العالم لا تستحق أن يضحي الشعب من أجلها ببلاده ومبادئه** » .

ومما لا شك فيه ، أن هذه أمور لا بد من إعطائها للعقول الإليكترونية القابعة في البنتاجون ، والعاكفة على إعداد مصير هانوي. ومن الضروري تذكير هذه العقول بأن رجال الفييت مينه نظموا المقاومة الأولى دون أن يسيطروا على هانوي أو هايفونغ أو أية مدينة كبرى . ففي تلك الفترة كانت عواصم المقاطعات والطرق الاستراتيجية بين يدي العدو . ولقد سمحت معركة المؤخرة في عام ١٩٤٥ ، والتي صمد فيها عمال هانوي مدة شهرين بنقل جزء من العتاد من العاصمة إلى وسط الأدغال . ولكن عملية النقل هذه كانت أصغر بكثير من عملية نقل المصانع التي وزعت هذه المرة وبدأت بالإنتاج داخل مخابىء أمينة .

ولكن السؤال الأول الذي يجب طرحه أمام هذه الآلات الإليكترونية هو : « ماذا يمكن أن يقع إذا ما دُمرت هانوي وهايفونغ .. ؟ » وستجد هذه الآلات صعوبة في الرد على السؤال . ويقال في بعض الأوساط ، إن وزير الدفاع ماكنمارا لا يعتقد بأن هذا الحل قادر في الوقت الحاضر على تغيير وجه المعضلة في فيتنام الجنوبية . لقد أعد زعماء الشمال شعبهم نفسياً لاستقبال فكرة تدمير هاتين المدينتين ، فأبطلوا بعملهم هذا تأثير السلاح الذي اعتبره ماكنمارا في وقت من الأوقات « سلاحاً فعالاً » في مستودع أسلحته التي يستخدمها في عملية « التصعيد » .

الفصل الثاني عشر

سلم صعب

إن محاولة البحث عن حل لكل هذا يعني محاولة حل المعضلة القديمة الناجمة عن اصطدام قوة كبيرة جارفة لا تقاوم مع جسم ثابت لا يتزحزح . والجواب الوحيد الممكن إذا طبقنا هذه الحالة على البشر هو أن يكف الطرف الثاني عن المقاومة ، أو يفقد الأول صفته بأنه خصم لا يقاوم .

إن هانوي وواشنطن لم تحددا بعد بشكل واضح التدابير العملية التي يمكن معها إيقاف الحرب . لأن توقع شكل الحرب أسهل بكثير من توقع الشكل الذي تنتهي به .

وفي مايو (مايس) ١٩٦٦ ، أصيب الأمريكيون بفشل متكرر خلال العمليات البرية في الجنوب ، واندلعت الانتفاضات المسلحة في دانانغ وهوي ، عندها نقل بعض خبراء الجنرال ويستمورلاند لمراسلي الصحف في سايغون الفكرة التالية : « حسناً إننا لن نربح الحرب في الجنوب ، ولكننا قادرون على الانتصار إذا ما حطمنا الشمال » . وكان ذلك في حقبة بدأ فيها الأمريكيون بتصعيد الغارات ضد فيتنام الشمالية مع استخدام طائرات ب ـ ٥٢ وبقصف المراكز المدنية .

وكان هذا الأمر هو موضوع أول سؤال طرحته على رئيس الوزراء فام فان دونغ خلال حديث صحفي ، تم فوق أعشاب حديقة القصر ، الذي كان مقراً للحاكم العام الفرنسي . .

« سؤال : يقول الأمريكيون الآن بأنهم قادرون على كسب الحرب في الجنوب عند تحطيم الشمال . فما رأيكم في ذلك ؟

جواب : إن هذا جريمة وحشية ، كما أنه يدل على خطئهم في التقدير . لقد تورطوا تورطاً خطراً في الجنوب ، وهم يتحملون الآن خسائر فادحة في الشمال . ويبدو أنهم يرسمون الخطط الرامية لتوسيع الحرب حتى تشمل بقية بلاد الهند الصينية ، مبتدئين بلاووس ... حسناً ! إنهم يهيئون بذلك الشروط اللازمة لهزيمة محققة لا يستطيعون تحديد مداها . »

لقد نضج فام فان دونغ قليلاً ، وزاد وزنه عما كان عليه منذ اثني عشر عاماً ، عندما بدأ عمله الرسمي خلال مباحثات السلام في مؤتمر جنيف ، ولم يكن يحمل آنذاك شيئاً يساوم به إلا انتصار ديان بيان فو . وكانت نظراته آنذاك لاهبة لدرجة جعلت الكثير من محدثيه يعزون ذلك إلى حماسه الثوري . ولكن سر النظرات اللاهبة كان كامناً في الملاريا المزمنة التي أنهكت جسمه خلال ست سنوات قضاها في سجن جزيرة بولوكوندور . إن عمره الآن ٦٠ عاماً ، وبشرته مائلة إلى السمرة ، وقد زحف الشيب قليلاً إلى صدغيه . وهو يوحي رغم سنه بالصحة والمرح والثقة المطلقة . لقد كان في شبابه مولعاً بكرة القدم ، وهو يمارس الآن رياضة خفيفة ... وفي خلال إحدى الاستراحات التي تخللت الحديث الصحفي نصحني بكل جدية بأن أسير على هديه ، وأمارس الألعاب الرياضية ربع ساعة كل صباح .

ولقد كان فام فان دونغ أستاذاً للتاريخ في المدرسة الفرنسية السايغون كصديقه فونغوين جياب الذي عمل معه بشكل وثيق خلال الثورة . وكان هوشي مينه آنذاك (عام ١٩٢٥) في كانتون ويحمل اسم نغوين آي كوك ، أي « نغوين الوطني » . وكان يقوم في كانتون بتدريب إطارات المستقبل ، وإعداد العدة للقيام بالثورة .... وهناك التحق به فام فان دونغ ، ثم عاد إلى فيتنام ليتابع مهمته ، فنظم النقابات السرية ، وأثار اضطرابات عمال المناجم والعمال الزراعيين . فأوقفته السلطات في عام ١٩٢٩ وحكمت عليه بالسجن لمدة عشر سنوات في سجن بولوكوندور . الأمر الذي يعني الحكم عليه بالإعدام . نظراً للظروف الرهيبة السائدة داخل هذا السجن . ولكنه لم يكمل مدة سجنه ، إذ أطلق سراحه في عام ١٩٣٦ ، عندما وصلت الجبهة الشعبية إلى السلطة في فرنسا . وبعد أربع سنوات ذهب فام فان دونغ مع فونغوين جياب للالتحاق بالقيادة العامة التي أنشأها هوشي مينه في الصين ، ثم عادا إلى فيتنام بعد تشكيل الفييت مينه في يوم ١٩ مايو (مايس) ،

الموافق لعيد ميلاد هوشي مينه الواحد والخمسين .

هنا بدأ ببناء القواعد السياسية في الشمال مرحلة إثر أخرى . وفي نهاية عام ١٩٤٤ كانت القوى الثورية جاهزة للبدء بشن صراع مسلح ... وفي ٢٢ ديسمبر (كانون أول) ١٩٤٤ شُكلت أول فصيلة تحت قيادة جياب . وأطلق عليها اسم تران هونغ داو ، وهو اسم بطل فيتنامي اشتهر في صراعه ضد المغول . وكان في الفصيلة ٣٤ رجلاً مسلحين بـ ١٧ بندقية ذات مغلاق ، و ١٤ بندقية قديمة من بنادق الصيد ، ومسدسين . وهكذا أصبح يوم ٢٢ ديسمبر العيد الرسمي لإنشاء الجيش الشعبي الفيتنامي . وفي هذه الفترة كان هوشي مينه ينتقل من سجن كوو مينغتانغ إلى سجن آخر ، متسلقاً جبال كيانغسي ويداه مغلولتان خلف ظهره ، وقدماه مقيدتان بالسلاسل .

وبعد بضع ساعات من تشكيل فصيلة جياب ، قامت هذه الفصيلة بهجوم ليلي خاطف ، وهذا أمر ينسجم تمام الانسجام مع شخصية قائدها الفعال . فدمرت مخفرين معاديين ، واستولت على كمية ثمينه من الأسلحة حلت محل البنادق القديمة ، وزودت الثوار الجدد بالسلاح فيما بعد . وعندما خرج هوشي مينه من السجن وعاد إلى فيتنام ؛ كانت الثورة قد حررت ثلاث مقاطعات من منطقة فييت باك الواقعة في شمال البلاد ، وأنشأت فيها إدارتها الخاصة تحت إشراف فام فان دونغ ، وما أن ارتكزت الثورة وثبتت أركانها ، حتى اندفعت نحو الجنوب . وكان فام فان دونغ عضواً في مجلس التحرير الوطني المشكل في أغسطس (آب) ١٩٤٥ عشية الثورة التي سمحت للفيتناميين فيما بعد أن يأخذوا السلطة من اليابانيين . ثم غدا وزيراً للمالية في الحكومة الأولى . وفي عام ١٩٤٦ هاجمت القوات الفرنسية هانوي ، فانسحبت الحكومة إلى قواعد الفييت باك ، التي نظمها فام فان دونغ في عام ١٩٤٤ ، وبقي دونغ وجياب مع هوشي مينه طوال فترة الصراع التي دامت ثماني سنوات ، وانتهت بانتصار ديان بيان فو واتفاقية جنيف .

وكان رئيس الوزراء عند حديثي معه جالساً على طاولة فوق أعشاب حديقة القصر ، الذي كان مقراً للحاكم العام الفرنسي ، والذي أصبح الآن مقر رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزراء بآن واحد .

«سؤال : لقد أعلنت حكومة فيتنام الديموقراطية في عدة مناسبات بأنها على استعداد للقيام بحرب طويلة الأمد ، تدوم عشرة أو خمسة عشر عاماً أو أكثر . فهل اتخذتم التدابير الملائمة لمثل ذلك ؟ .

جواب : إن حرب التحرير الوطنية هي في حد ذاتها حرب شعبية ، أي أنها عبارة عن صراع طويل الأمد ، قد يدوم عشرات السنين .

إن شعبنا يقاتل دفاعاً عن حريته وحياته وشرفه . وهو يقاتل في سبيل وحدة بلده، ولتحقيق سلام حقيقي مبني على استقلال صحيح . وسيقاتل حتى النصر مهما كان الثمن.

ويؤكد منطق هذه الحرب أن تصعيد « صقور » البنتاجون للعمليات العسكرية يتم بعد هزائم خطيرة تهدد بالانهيار التام ، وهذا دليل على انتصارنا في شمال البلاد وجنوبها، وحافز يدفع إلى تزايد قوى شعبنا في جميع المجالات ، وفي المجال العسكري بصورة خاصة . وفي هذه الظروف ، كلما حلق « الصقور » عالياً ، كان سقوطهم أشد خطورة !

سؤال : ألا يتطلب كل هذا الجهد الحربي تراجعاً في خطة بنائكم للاشتراكية ؟ .
جواب :كلا ، بل على العكس ! إننا لا نتابع إرساء قواعد الاشتراكية فحسب ، ولكننا نزيد سرعة هذا البناء في مجالات متعددة ، حتى نؤمن تلبية الحاجات التي خلقتها الحرب.

إننا نعيش حقبة عجيبة في تاريخنا . ونحن نشهد تفتح الفضائل التقليدية لشعبنا ، كالشجاعة والفاعلية ، والذكاء ، وحب الوطن ، والثقة بالنصر . وهذا ما يفسر انتصارنا في الصراع ضد العدوان الأمريكي . كما يفسر تقدمنا على طريق تطور الزراعة،والصناعة المحلية ، والنشاطات الثقافية ، والعلم ، والتقنية .

سؤال : ما هي احتمالات القيام بمفاوضات تضع حداً للحرب ؟ وهل ترون احتمالا من هذه الاحتمالات طالما لم يتوقف الأمريكيون عن قصف شمال البلاد بالطائرات ؟ وإذا ما شاؤوا إجراء مفاوضات لوضع حد للعمليات العسكرية في الجنوب ، فهل ستجري المفاوضات مع جبهة التحرير الوطنية . وهل تعتبرون هذه الجبهة الجهة الوحيدة التي يحق لها القيام بمثل هذا العمل ؟ .

جواب : لقد حدد الرئيس هوشي مينه موقفنا بكل وضوح في رسائله التي بعثها في يوم ٢١ يناير (كانون الثاني) الماضي إلى رؤساء عدد من البلاد . ويمكنني أن أقول لك بأن هذا الموقف مبني على العناصر التالية :

أولاً : تصريحنا المؤلف من أربع نقاط .

ثانياً : التوقف النهائي غير المشروط للقصف الجوي ، ولجميع الأعمال الحربية الموجهة ضد جمهورية فيتنام الديموقراطية .

أما فيما يتعلق بمشاكل الجنوب ، فإن مناقشة حلها تتم مع جبهة التحرير الوطنية ، لأنها الممثل الحقيقي الوحيد لمواطنينا .

إنكم ترون أن موقفنا بسيط وواضح ودقيق . إنه موقف من يبحث عن السلم الحقيقي ، المبني على الاستقلال الوطني .

سؤال : ما رأيكم بالأحداث الأخيرة في سايغون ودانانغ وهوي ومدن أخرى في فيتنام الجنوبية .

جواب : ليكن ما يكون . هذا هو رد شعب المدن على قوات الغزو الأمريكية وخدمها من العملاء . وهذه هي النتيجة الحتمية للصراع الوطني والحرب الشعبية التي تحقق انتصارات باهرة في كل مكان .

ويشكل هذا بمجموعه ثورة لا تهزم ، ولكنها تتزايد وتتنوع أشكالها حتى يتم تحقيق النصر . »

وعندما انتهى الحديث الصحفي جاء الرئيس هوشي مينه ، وكان يرتدي كرئيس الوزراء بذة كاكية اللون ، في منتهى البساطة . وكانت خدوده محمرة قليلاً ، وعلى وجهه المائل إلى السمرة ابتسامة عريضة . وكان على عتبة عيد ميلاده السادس والستين . وقبل أن يقف أمام عدسة التليفزيون اشترط أن لا يجيب إلا على سؤال واحد وبالإنجليزية والفرنسية . فسألته عن رأيه بالفكرة القائلة بـ « **تحطيم الشمال لتحقيق النصر في الجنوب** » ..... فضحك من أعماق قلبه وأجابني :

« إن الأمريكيين يخدعون أنفسهم عندما يظنون بأن قصف الشمال يؤمن لهم النصر في الجنوب . إننا لن نخضع أبداً ، فحربنا حرب وطنية ، وهي حرب عادلة . ولقد قررنا الصراع خمسة أو عشرة أو عشرين عاماً أو أكثر إذا لزم الأمر . وسنكسب حتماً هذه الحرب ، لأن قضيتنا عادلة ، ولاننا نتمتع بدعم العالم كله تقريباً ، بما في ذلك دعم الشعب الأمريكي » .

ولو قال أي شخص آخر غير الرئيس هوشي مينه أو رئيس وزرائه جملة « **خمسة أو عشرة أو عشرين عاماً أو أكثر** » لأمكن اعتبار ذلك نوعاً من الدعاية . ولكن قائلها هو الرئيس نفسه ، وهو الذي شن قبل ٤٠ عاماً معركة بدت في ذلك العصر مستحيلة تماماً ، ووصل مع ذلك إلى نتيجة رائعة . وهذا ما يجعلنا نحمل تصريحه على محمل الجد .

وليست هذه الجملة شعاراً ، ولكنها برنامج عمل يطبق في كل مكان . لقد فكر

هوشي مينه قبل ذلك ومنذ حوالي نصف قرن بتحقيق ما لم يكن بالنسبة لأكثر المواطنين تقدماً سوى حلم بعيد التحقيق . وهوشي مينه هو ابن رجل مثقف (mandarin) رفض وضعه بملء إرادته ، وفضل أن يعود فلاحاً بسيطاً على أن يخدم الغزاة الأجانب .وأفادت الثورة هوشي مينه لأنها علمته أقسى الدروس ، وهذا ما سمح له بالحصول على ثقافة واسعة بالإضافة إلى نظرة بعيدة الأفق حول الوضع العالمي . وليس هناك رئيس دولة في البلاد الشرقية أو الغربية أو في بلدان العالم الثالث يتمتع بخبرة كخبراته .

ففي بداية عام ١٩١٢ ركب شخص يدعى (با) متن المركب الشراعي الفرنسي « لاتوش – تريفي » ليعمل كمساعد طباخ بعد دورة في سايغون مدتها ثلاثة أشهر . وكان أبوه قد لقبه عندما بلغ العاشرة من عمره – حسب عادات البلاد – نغويت تات تانه (نغوين الظافر) ، ولم يخطر ببال هذا المثقف – الفلاح آنذاك ، بأن هذه التسمية هي بداية حياة رجل ظافر حقاً . وعندما كان (با) يقشر البطاطا لأول مرة ، كانت فكرة استقلال البلاد تختمر في ذهنه ، دون أن يعرف السبيل إلى تحقيقها . وعندما وصل إلى مارسيليا اكتشف أمراً هاماً لم ينسه بعد ذلك أبداً ، وذلك أنه ذهب إلى الحوانيت والمقاهي وعاد بعد ذلك ليقول لزملائه من العاملين على المركب : « إن الفرنسيين في فرنسا أكثر لطفاً وأفضل أدباً من الفرنسيين المقيمين في الهند الصينية » ... ثم رحل بعد ذلك إلى أفريقيا ، وعلم خلال رحلته أن أربعة سنغاليين من داكار غرقوا واحداً إثر الآخر عند محاولة إرساء مركب فرنسي . فأعلن لزملائه : « إن الفرنسيين في فرنسا طيبون . ولكن الاستعماريين قساة ، لا يعرفون للإنسانية معنى ... فهم يعتبرون حياة الآسيوي والإفريقي تافهة لا تساوي سنتيماً واحداً » . وهكذا رأى (با) الرئيس هوشي مينه فيما بعد ، وعقب أول تماس مع فرنسا ، الفرق الواضح بين الاستعماريين الذين أقسم أن يهزمهم ، والشعب الفرنسي الذي كان يحترمه ويكن له إعجاباً خالصاً .

وفي عام ١٩١٣ ذهب إلى لندن ، حيث عمل في فندق كارلتون تحت إشراف كبير الطباخين اسكوفييه . وكان يدرس خلال أوقات راحته القليلة التاريخ الاستعماري الإنجليزي والفرنسي . وتعلم الإنجليزية التي أخذ يتحدثها بلكنة فرنسية يجدها محدثوه الإنجليز لكنة محببة .

وفي نهاية الحرب العالمية الأولى غير اسمه في فرنسا من جديد ، وصار يدعى نغوين آي كوك (نغوين الوطني) . وعمل في فرنسا عند أحد المصورين في روتوش الصور

الفوتوغرافية ، ثم عمل صحفياً ، ونظم في ذلك الوقت « الهيئة الفيتنامية » وباسم هذه المنظمة قدم إلى الحلفاء في مؤتمر فرساي طلبات مؤلفة من ثماني نقاط تتعلق باستقلال بلاده. ثم أسس بعد ذلك هيئة أوسع هي « جامعة البلاد المستعمرة » التي كانت تضم المنظمات الثورية في عدة بلاد آسيوية وإفريقية . وبدأ يحرر (Le paria) الصحيفة السرية لهذه الجامعة .

ثم ارتحل إلى موسكو في عام ١٩٢٤ ، وكان يأمل أن يجتمع هناك مع لينين ، وأن يحصل منه على دعم النضال الذي قرر القيام به . ولكن لينين توفي قبل وصوله بيومين. فمكث في موسكو يتعلم الروسية ، ويدرس الأساليب والتنظيمات الثورية في الاتحاد السوفيتي .

وفي العام التالي ذهب إلى الصين ، وبدأ يكسب رزقه كبائع صحف وسكاير . وفي كانتون أصبح السكرتير المترجم لبورودين ، الذي كان يرئس خبراء الكومنتيرن العاملين مع صن يات صن مؤسس الجمهورية الصينية الأولى . وكان الكومينتانغ والحزب الشيوعي الصيني يعيشان شهر عسلهما . وكانت كانتون مقرّ الحكومة الثورية . وفي تلك الفترة كان شوإن لاي الرئيس السياسي للكلية العسكرية في وابنوا ، والتي كانت معدة لتخريج الضباط المدعويين لدعم السلطة الثورية في مختلف أرجاء البلاد . على حين كان تشانغ كاي تشيك مديراً لهذه الكلية ، ويتقاسم إدارتها عملياً مع شوإن لاي . ؟

وكان نغوين آي كوك سعيداً بهذا العمل ، وبدأ يفكر بالطريقة التي يمكن معها تنظيم حركته في فيتنام . وكان نجاح الثورة الصينية يعني بالنسبة له وجود دولة صديقة مجاورة ، قادرة على مساعدته ، وفتح سبيل النصر أمام بلاده (الأمر الذي لم يتحقق إلا بعد خمسة وعشرين عاماً ، عندما طرد الشيوعيون الصينيون بقيادة ماوتسي تونغ جيوش الكومينتانغ ، وأوجدوا في نهاية عام ١٩٤٩ حدوداً مشتركة مع فيتنام) . وكانت مدينة كانتون في تلك الحقبة تعيش وسط حمى ثورية . وتجذب الثوار من جميع البلاد الآسيوية. وهكذا اندفع نغوين إلى المعركة بكل طاقاته . وكان قد أسس في باريز كما رأينا «جامعة البلاد المستعمَرة » فأسس في كانتون « جامعة الشعوب المضطهدة في آسيا » تضم كوريين وإندونوسيين وفيتناميين ... الخ كما أسس « جامعة الشباب الثوري الفيتنامي » التي قدمت معظم إطارتها فيما بعد إلى المقاتلين في سبيل تحرير البلاد . وفي عام ١٩٢٥ وصل إلى كانتون طالب شاب يدعى فام فان دونغ ، فراراً من السلطات الفرنسية التي كانت تلاحقه

بعد أن نظم إضراباً في جامعة هانوي . وكان عند قدومه إلى الصين ينوي تعلم الأساليب والتكتيكات الثورية . وكان نغوين قد انتحل في ذلك الوقت اسم فوونغ ، وأخفى اسمه الحقيقي نغوين آي كوك إلا عن أخلص مساعديه . وبدأ ينشر بمساعدة الصينيين منشورات سياسة سرية ويدخلها إلى فيتنام خلسة ، الأمر الذي أثار اهتمام الرجال الشرطة الفرنسية . كما أثار اهتمام المثقفين الفيتناميين .

وفي عام ١٩٢٧ قطع تشانغ كاي تشيك علاقاته الودية مع الشيوعيين ، وذبح الآلاف منهم في كانتون وشنغهاي . واستطاع بورودين وبعض خبراء الكومنتيرن الفرار إلى الاتحاد السوفيتي ، على حين لجأ نغوين إلى تايلاند حيث أسس « الهيئة الفيتنامية للمساعدة المتبادلة » وبدأ بإصدار صحيفة « L'humanité » التي لم تلبث أن دخلت الأرض الفيتنامية . ثم بدل اسمه مرة أخرى فأصبح معروفاً تحت اسم « الأب شين » واستفاد من إقامته لتعلم اللغة التايلاندية . وكان قد تعلم الصينية من قبل خلال إقامته في كانتون . وأدت أعماله وأفكاره إلى تشكيل ثلاث مجموعات ثورية داخل فيتنام . وفي نهاية عام ١٩٢٦ جاء مندوبو هذه المجموعات بصورة سرية ليجتمعوا به في كويلين ، الواقعة في المقاطعة الصينية كوانغ سي المجاورة لحدود فيتنام . ومن هذا الاجتماع ، انبثق الحزب الشيوعي الفيتنامي في ٣ فبراير (شباط) ١٩٣٠ .

وتابع نغوين عمله في الخارج ، وتضاعف عدد الخلايا التي أسسها داخل بلاده بالرغم من التراجع المؤقت (وفي هذه الفترة اكتشفت السلطات نشاط فام فان دونغ فأوقفته في عام ١٩٢٩ بعد عودته من كانتون) . وكان نغوين دائب الحركة ، يعيش حياة خطرة . وكان مواطنوه القادمون لرؤيته يجدونه وقد حمل في كل مرة اسماً جديداً . وكان يتجاهل من ناحيته كل ما يتعلق بنغوين آي كوك ... وتتسم كتاباته في تلك الحقبة بطابعها الواضح الصريح المألوف ، وظهورها بصورة منتظمة في المنشورات السرية . وكانت الشرطة الفرنسية والإنجليزية وشرطة الكومينتانغ تسعى في البحث عنه . وظن البعض عدة مرات بأنه مات في السجن . فبعد سجنه في هونغ -كونغ أطلقت السلطات سراحه ، فركب البحر إلى سنغافورة ، ثم ترك المركب ثانية وسجن مرة أخرى في هونغ -كونغ ، حتى أطلق سراحه بفضل محام إنجليزي . عندها اختفى وسافر إلى الصين والاتحاد السوفييتي . ولكن حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ اندلعت ، فعاد نغوين آي كوك إلى الحدود الفيتنامية . وعندما استسلم الفرنسيون أمام قوات الغزو اليابانية اجتمع مع فام فان دونغ وفونغوين جياب وقرر ثلاثتهم البدء بالكفاح المسلح .

وعاد نغوين إلى بلاده بعد غياب دام حوالي ثلاثين عاماً . وهنا ترأس تنظيماً واسعاً يبغي القتال ضد الغزاة ، وهو « جامعة استقلال فيتنام » أو الفييت مينه . وكان ينوي طلب العون من الفرنسيين الذين يملكون بعض القوات المبعثرة هنا وهناك ، للمساهمة في الصراع ضد اليابانيين . وكان رد السلطات المحلية على عرضه مزيداً من التعاون مع العدو لتحطيم الفييت مينه ... عندها قرر الصراع وحده .

واتخذت قيادة الفييت مينه قراراً بذهاب نغوين إلى تشونغ –كينغ في محاولة لطلب الدعم من الصينيين ، وكان تشانغ كاي تشيك قد نقل عاصمته إليها . واعتمد نغوين آن له في تشونغ – كينغ صديقاً قديماً من أصدقاء كانتون وهو شوإن لاي ، الذي كان يمثل جيش الطريق الثامن الشيوعي ، العامل ضمن التحالف القلق الذي أقامه الكومينتانغ والشيوعيون بعد اجتياح اليابانيين للأراضي الصينية . ولكي يخدع نغوين أعداءه الذين انضم اليهم اليابانيون ، انتحل عند سفره اسم هوشي مينه . ولكنه أوقف في الأراضي الصينية ، وأودع السجن بعد أن أوثق السجانون قدميه ، ووضعوا الطوق الحديدي حول عنقه . وجاء خبر توقيفه كضربة قاسية لفونغوين جياب وفام فان دونغ ورفاقه الآخرين ولكنهم قرروا متابعة الخطة المرسومة .

وكان الكومينتانغ يعرف ولا شك من يكون هوشي مينه . وكان المسؤولون في تشونغ –كينغ يؤيدون المقاومة الفيتنامية المسلحة ضد اليابانيين . ولكنهم نظموا لهذا الغرض تنظيماً خاصاً مرتبطاً بهم ، هو (فيتنام كاتشي مانغ دونغ مينه هوي) أي الكومينتانغ الفيتنامي . وكل ما كانوا يريدونه من الفييت مينه هو أن تختفي من الساحة. ونقل السجين (هو) من سجن إلى آخر خلال سنتين تقريباً . وكاد أن يفقد بصره بسبب انهيار صحته التي لم تكن في الأصل متينة . وكان سجانوه يجبرونه على السير ٨٠ كيلومتراً كل يوم، على طرق جبلية، بالرغم من القيود التي تعيق سيره ، والتي كانت تتصل في بعض الأحيان مع السلاسل التي تقيد كتفيه .

وعند عودته إلى فيتنام لاحظ أن رفاقه حرروا جزءاً من البلاد دون مساعدة الكومينتانغ أو الفرنسيين ، بفضل التكتيك الذي كان قد حدده من قبل بالتعاون مع جياب وفام فان دونغ . وكانت الأراضي الفيتنامية معدة للثورة الوطنية التي اندلعت في أغسطس (آب) ١٩٤٥ .

فإذا أضفنا إلى جميع التجارب السابقة تجربة حرب الهند الصينية الطويلة ، اقتنعنا

بأن هوشي مينه حصل على نصيب وافر جداً من التجارب الثورية ، وبأن رجلاً يناضل منذ أربعين عاماً لا يبالغ إذا ما توقع استمرار النضال خمسة أو عشرة أو خمسة عشر عاماً إضافية .

ويتمتع الز عماء الثوريون في هانوي بميزة كبيرة تعطيهم الأفضلية على جميع الشخصيات التي قد ترئس الحكومة في الجنوب ، وهي أنهم يشكلون جماعة من المناضلين القدماء المجربين المعتادين على تطبيق الاستراتيجية الثورية العسكرية والسياسية ، ويعملون معاً منذ حوالي ثلاثين عاماً . ويملكون بالإضافه إلى ذلك نواة صلبة من الإطارات العاملة تحت إمرتهم منذ ربع قرن . إنهم يعرفون بعضهم جيداً ، ويتمتعون بثقة مرؤوسيهم الكاملة ، ولا يخامرهم أي شك بأن أوامرهم ستنفذ بكل دقة . لقد علمتهم الأيام كيف يجابهون الأوضاع الخطيرة المفاجئة . ولقد حصلوا على الثقة الوطنية شمال خط العرض ١٧ وجنوبه ، نظراً لأنهم قادوا النضال على المستوى الوطني . ويندر أن تجد بين سكان الجنوب من يناقش تضحية هؤلاء القادة في سبيل قضية الاستقلال الوطني التي كرسوا لها كل حياتهم . ومن عبث القول أن نقارن سمعة هؤلاء الرجال مع سمعة الجنرالات أو الساسة المتعطشين للدولارات ، والذين تعاقبوا بسرعة على سايغون . ومهما بذل الأمريكيون من جهد ، فإنهم عاجزون عن إيجاد هوشي مينه آخر في الجنوب . علماً بأن مثل هذا « الاكتشاف » الأمريكي أو الغربي لا أهمية له بالنسبة للفيتناميين الذين يفضلون اكتشاف ز عمائهم بأنفسهم .

ويتساءل الناس غالباً : كيف يمكن لهؤلاء الرجال الوطنيين أن يقبلوا رؤية قاذفات القنابل الأمريكية وهي تدمر المصانع والجسور والمستشفيات والمدارس ومراكز الطاقة الكهربائية التي بذلوا في إنشائها جل حياتهم . خاصة وأن كل ما تم بناؤه بعد الاستقلال مدمر أو في طريقه إلى الدمار القريب . أفليس عليهم في مثل هذه الحالة أن يكتموا كبرياءهم ، ويستغلوا فرصة عرض المفاوضة الأمريكي ؟ ولِمَ ترفض هانوي بكل حزم وساطة أصدقائها ؟ وهل تستوحي تصرفها من الموقف الحازم المتصلب الذي تقفه بكين ؟ . ولقد طرحت هذه الأسئلة على عدد كبير من المسؤولين الفيتناميين خلال مناقشة طويلة حامية . فكانت معظم أجوبتهم تتلخص فيما يلي :

إن التدمير سيزيد من غضب الفيتناميين وحنقهم ، ولا بد أن من تمضي أجيال وأجيال قبل أن يسامح المواطنون حكومة واشنطون مهما تبدل نوعها .. ومن الملاحظ أن معظم النتائج التي تم تحقيقها منذ الحصول على الاستقلال هي نتائج لا يمكن تدميرها.والفيتناميون

سادة الموقف في شمال بلادهم على الأقل . ولقد تبدلت الظروف الاجتماعية والاقتصادية وأصبح الفلاحون يملكون أرضهم ، كما يملك العمال اليوم مصنعهم . وسار الشعب خطوات واسعة في شؤون التعليم والصحة العامة ، خاصة وإن التنظيم الاجتماعي يلاقي هوى في نفوس الجماهير ... وكل هذه الأمور أهداف لا يمكن تدميرها بالقصف الجوي، على الأقل طالما أن الاستقلال الوطني سليم لم يصب بأذى . ويؤكد الجميع قناعتهم بأن الشمال سيبقى مستقلاً ، وبأن الجنوب سينال استقلاله في النهاية .

مفاوضات ؟ مع الأمريكيين ؟

إن جمهورية فيتنام الديموقراطية لا تجد أن عليها مفاوضتهم، فهم البادئون بالعدوان. أما إذا كانت الغاية من المفاوضات بحث قضايا الحرب في فيتنام الجنوبية ، فإن من الضروري أن يقوم بها الطرفان المتحاربان كما هي الحالة في كل حرب ، وفي فيتنام الجنوبية طرفان هما : جبهة التحرير الوطنية من جهة ، والأمريكيون وحلفاؤهم والمرتزقة العاملون لحساب نظام غير شرعي من جهة أخرى . ويصرح الأمريكيون إنهم مستعدون للتفاوض على أساس اتفاقية جنيف . لذا فإن عليهم أن يبدأوا باحترام بنودها .

ومنذ عهد قريب ، بينما كان هوشي مينه يشرح هذه الفكرة لزائر أجنبي ، استدار نحو خارطة كبيرة ، وأشار إلى القواعد الأمريكية المتناثرة في الجنوب قائلاً :

« إن هذه القواعد خناجر في جسم فيتنام، وفي الوقت الذي تقصفنا طائرات الأمريكيين يقوم ساستهم بدعوتنا إلى التفاوض والسوط في يدهم . ونحن نقول لهم : اسحبوا قبل كل شيء خناجركم ، وارموا سوطكم . فالمفاوضات والخناجر في جسمنا تعني الاستسلام ونحن لن نستسلم أبداً » .

ومما لا شك فيه ، أن هانوي لن تناقش عروض المفاوضات أو ترد عليها ما دام القصف الجوي مستمراً . كما أنها لن تفعل ذلك إذا توقفت الغارات الجوية بصورة مؤقتة ، لأن معنى ذلك خضوعها للقوة الطاغية . ولأن تعليق الغارات مؤقتاً يعني بمنطق الأمريكيين قبول هانوي لشروطهم أو معاودة الهجمات الجوية . لهذا يصر المسؤولون في فيتنام الشمالية على طلب إيقاف غير مشروط للغارات ، ويعتبرون أن عدم إيقافها ، أو التهديد بمتابعتها بعد إيقاف مؤقت ، يعني أن الأمريكيين لا ينوون التفاوض بصورة صادقة ، بل يرغبون بإقناع الناس كذباً بحسن نواياهم .

ولقد قال لي أحد الزعماء الفيتناميين البارزين : **يستحيل علينا إجراء أية مفاوضات**

في هذا الصدد ، إنهم يهاجموننا ، وعليهم أن يوقفوا كل هذا العدوان .. ونحن لانهاجم الولايات المتحدة الأمريكية ، لذا فليس من حقها أن تطلب منا إيقاف أي شيء ».

ويتصور البعض المفاوضات المحتملة في المستقبل على شكل مؤتمر عام مبني على اتفاقية جنيف . ويبدو هذا واضحاً في تصريح زعماء هانوي المؤلف من أربع نقاط هي :

١ ـ الاعتراف بالحقوق الوطنية الأساسية للشعب الفيتنامي والتي تشمل السلام والاستقلال والسيادة والوحدة وسلامة الأرض . وتطبيق اتفاقية جنيف يعني أن تسحب حكومة الولايات المتحدة الأمريكية قواتها من رجال وعتاد خارج فيتنام الجنوبية . وأن تلغي القواعد العسكرية التي أقامتها فيها . وأن ترفض الدخول في « تحالف عسكري » مع سايغون ... وعلى الحكومة الأمريكية أن تضع حداً لسياسة التدخل والعدوان في فيتنام الجنوبية ، كما تفرض عليها اتفاقية جنيف أن توقف العمليات العسكرية ضد الجزء الشمالي من البلاد ، وتوقف نهائياً كل تعد على أراضي وسيادة جمهورية فيتنام الديموقراطية

٢ ـ بانتظار توحيد شطري فيتنام بالأساليب السلمية ، وطالما بقيت بلادنا مجزأة بصورة موقتة إلى بلدين . فإن من الواجب احترام التدابير العسكرية المذكورة في اتفاقية جنيف لعام ١٩٥٤ مثل : امتناع القسمين عن الاشتراك بأي تحالف عسكري مع أي بلد أجنبي ، ومنع إقامة قواعد عسكرية أجنبية ، أو إدخال قوات أو عسكريين أجانب إلى أراضيها .

٣ ـ ينبغي أن تحل قضايا فيتنام الجنوبية من قبل شعبها بناء على البرنامج السياسي لجبهة التحرير الوطنية ، ودون أي تدخل أجنبي .

٤ ـ إن توحيد فيتنام بالأساليب السلمية عمل من أعمال شعب شطري البلاد . ولا دخل للأجنبي به .

ولقد قدمت هذه النقاط الأربع إلى المجلس الوطني الفيتنامي من قبل فام فان دونغ في ١٣ أبريل (نيسان) ١٩٦٥ .

وصرحت حكومة جمهورية فيتنام الديموقراطية في هذا الصدد بأن موقفها المحدد مسبقاً يشكل منطلق الحل السياسي الأمثل للمشكلة الفيتنامية . فإذا ما تم الاعتراف بهذا المنطلق ، أصبح من الممكن إيجاد حل سلمي لهذه المشكلة وسط ظروف ملائمة . وعندها يمكن المشاركة في مؤتمر دولي كمؤتمر جنيف عام ١٩٥٤ .

وفي ٢٤ يناير (كانون ثاني) ١٩٦٦ أرسل الرئيس هوشي مينه إلى زعماء الدول رسالة أضاف فيها إلى هذا التصريح فقرة تطالب بإيقاف الغارات الجوية على فيتنام الشمالية.

« إذا كانت حكومة الولايات المتحدة راغبة حقاً بالوصول إلى حل سلمي ، فإن عليها أن تقبل النقاط الأربع التي طرحتها جمهورية فيتنام الديموقراطية . وأن تؤكد نواياها بالأفعال . إن عليها أن توقف بلا شروط وبصورة نهائية غاراتها الجوية وهجماتها من كل نوع ضد البلاد ، لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تسمح بتصور حل سياسي للصراع في فيتنام ».

ويبدو العرض الفيتنامي للوهلة الأولى عرضاً فيه بعض المبالغة . ولكن النقاط الأربع تشكل في الحقيقة روح اتفاقية ١٩٥٤ . ولقد تكلم الرئيس جونسون ودين راسك من قبل عن حل مبني على اتفاقية جنيف . وهذا ما دفع الشعب الأمريكي إلى الاعتقاد بأن عمليات القوات الأمريكية في الجنوب والقصف الجوي في الشمال ما هي إلا عمليات دفاعية لحماية اتفاقية جنيف . ولقد كان رد الفعل الأول في واشنطن هو الشكوى من أن هانوي تتطلب رحيل القوات الأمريكية ، وإلغاء القواعد العسكرية كشرط أولي لأية مفاوضات . وكان فام فان دونغ قد طلب فعلاً الاعتراف بالنقاط الأربع «كمنطلق» لخلق «شروط ملائمة» للتفاوض . وهكذا يمكن أن نقول بأن مقترحات هانوي بعيدة عن أن تكون شروطاً مسبقة فيها كثير من المبالغة ولقد اكتشف (لابيرا) محافظ فلورنسا هذا الاختلاف ، الأمر الذي أدى إلى استقالة فانفاني وزير الخارجية الإيطالي : ذلك لأن فانفاني الذي كان يرئس الجمعية العامة للأمم المتحدة أعلم الرئيس جونسون عن «اكتشافه» قبل أن يعلم حكومة بلاده . علماً بأن المعلومات الخاطئة التي نشرتها واشنطن بصورة رسمية خلال عدة شهور كانت السبب الذي سمح بمثل هذا ا «الاكتشاف» .

ولم تحدد رسالة هوشي مينه إلى رؤساء الدول «الأفعال» المطلوبة من الأمريكيين . ولكن الجنرال نغوين فان فينه الذي يملك خبرة وصلاحية واسعة في هذا المجال كتب في عدد ٢٣ سبتمبر من Le Courier du Vietnam مقالاً تحدث فيه عن الإعلان ونقاطه الأربع فقال :

« أما فيما يتعلق بأشكال انسحاب القطعات الأمريكية ، فإن المعسكر الامبريالي يملك خبرة كبيرة في هذا المضمار . فلقد عرف انسحاب القوات الفرنسية من الهند الصينية والجزائر ، وانسحاب القوات الأمريكية من لاووس وأماكن أخرى .. »

إن فيتنام الشمالية تعتبر التدخل الأمريكي في الجنوب والقصف الجوي في الشمال خرقاً لاتفاقية جنيف ، ينبغي على الولايات المتحدة الأمريكية أن تضع له حداً ، أو أن تتعهد على الأقل بوضع هذا الحد . وذلك بتقديم أدلة واقعية ملموسة عن صدق نواياها.

ويبدو أن واشنطن خائفة من شبح مؤتمر جنيف . ولقد ذكرت النيويورك تايمز في عددها الصادر في ٢ يناير (كانون ثاني) ١٩٦٦ اقتراح السلام الأمريكي ، وهو يتضمن ١٤ نقطة . وتقول النقطة الأولى بشكل مختصر مباشر بأن « **الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر اتفاقيتي جنيف لعام ١٩٥٤ و ١٩٦٢ قاعدة كافية للمفاوضات** » ولكننا سنعرف في المؤتمر الجديد الذي سيعقد في يوم من الأيام ماذا تعني كلمة «كافية » علماً بأن اتفاقية ١٩٦٢ تتعلق بلاووس فقط .

وتقول الفقرة الثالثة عشر من الاقتراح الأمريكي « **لن يجد رجال الفييت كونغ صعوبة في طرح وجهة نظرهم بعد إيقاف أعمال القتال ...** » وهذا يعني **بعد أن يضعوا السلاح »**. ويبدو هذا التفسير أقرب إلى الحقيقة إذا تذكرنا البرقية شبه الرسمية الصادرة من مكتب وكالة الصحافة العالمية في واشنطن في ١٠ ديسمبر (كانون أول) ١٩٦٥ والتي تقول :

« لقد عمدت واشنطن إلى تهدئة سايغون التي بدأت تخشى أن تستخدمها الولايات المتحدة الأمريكية «كعملة للتبادل » خلال أية مباحثات من أجل السلام . وكان ذلك بأن أكدت واشنطن لرئيس الوزراء نغوين كاوكي ، بأنها ستلتزم بكل دقة بالمبدأين التاليين :

١ ــ لن يكون لجبهة التحرير الوطنية أي مركز قد يؤدي إلى تشكيل حكومة ائتلافية.

٢ ــ لن يكون في اتفاقية السلام ما من شأنه إعاقة عمل حكومة فيتنام الجنوبية لإحلال السلام الشامل في المناطق الريفية . وهذا أمر ضروري لحرمان العصابات من إمكانية العمل السياسي ، أو البدء بالعمليات العسكرية من جديد .

لقد أعلنت الولايات المتحدة مسبقاً بأنها لاتنوي التفاوض مع جبهة التحرير الوطنية . وهي السلاح السياسي للفييت كونغ . مع أن بعض المسؤولين حددوا من قبل بأن من الممكن اعتبار بعض العناصر غير الشيوعية المقاتلة مع الفييت كونغ كعناصر تستحق المشاركة في الحياة السياسية للبلاد . ولكن يبدو أن الولايات المتحدة هجرت هذا الخط بغية منع كل ما يمكن أن يؤدي إلى تشكيل حكومة ائتلافية » .

ولقد سمعت موظفاً من كبار الموظفين في هانوي يسأل أحد الفرنسيين بعد أن قرأ له هذه البرقية :

« ماذا يريدون منا أن نفعل ؟ هل فاوض الجنرال ديغول هتلر ؟ وهل سمح له وللافال بتدمير الأنصار ؟ كلا ... لقد قاتل هتلر ، وأعدمَ لافال بعد تحرير البلاد . إنهم يطلبون منا أن نتوقف عن مساعدة جبهة التحرير الوطنية ، وأن نسمح لنظام سايغون بإبادتها مقابل الحفاظ على حياتنا . وبما أن أية حكومة في سايغون عاجزة عن مجابهة الثوار بقواها الذاتية ، فإنها ستستدعي الأمريكيين للقيام بعمليات الإبادة بدلاً عنها ، على حين نقف نحن في الشمال مكتوفي الأيدي . إنهم يريدون منا أن نسلم لافال أو كيسلينغ رئاسة الحكومة ، وفي نصف البلاد فقط ، واشتراكنا مع ذلك بالمفاوضات « غير المشروطة » . فإذا رفضنا ذلك اتهمونا بأننا نساهم في القتال ، ولا نود تحقيق السلام . واتخذوا من ذلك حجة لقصفنا بالقنابل حتى نثوب إلى رشدنا ، ونغدو «عاقلين» إن أي فيتنامي جدير بهذا الاسم يرفض أن يكون «عاقلاً» بهذا الشكل ، أي أن يخون بلاده . »

إن مطالبة التنظيم السياسي – العسكري الظافر ، أي مطالبة جبهة التحرير الوطنية التي تسيطر على أربعة أخماس المناطق الريفية في فيتنام الجنوبية ، وعلى ثلثي سكان البلاد كلها ، بأن تقبل إيجاد حل للصراع مشابه للانتحار ، عبارة عن طلب في منتهى السخف. ومن السخف أيضاً أن يطلب الأمريكيون من فيتنام الشمالية أن تقبل أية اقترا حات رفضتها جبهة التحرير الوطنية ، أو لا تتماشى مع المصلحة الوطنية .

وترى هانوي أن حكومة جونسون تعرض عليها أن تختار بين الاستسلام غير المشروط أو الدمار الشامل . وليست هذه فكرة هانوي وحدها . ولكن يمكن ملاحظتها في تصريحات أعلى المصادر السياسية والتشريعية الأمريكية . إذ تقدم زلات لسانهم الغريبة في بعض الأحيان الدليل الدامغ على أفكارهم . والحقيقة أن هناك ما يبرر شكوك أولئك الذين يعتقدون بأن الولايات المتحدة الأمريكية مزمعة على متابعة احتلال فيتنام الجنوبية على الأقل ، وعلى الاحتفاظ بقواعد عسكرية فوق أراضيها . وسيجد الرئيس جونسون صعوبة بالغة لتبديد هذه الشكوك ، إذا كانت نواياه مختلفة عن ذلك حقاً . ولن يكون هذا التبديد صعباً في هانوي ، بل في أماكن أخرى من العالم .

ويشك السيناتور ج . ويليام فولبرايت رئيس لجنة الشؤون الخارجية شكوكاً تشابه شكوك زعماء هانوي . وهو موقن ككثير من أعضاء مجلس الشيوخ بأن تعبير «مفاوضات غير مشروطة » لا يمكن أن يخفي تعبير « استسلام غير مشروط » . ولقد حاول دين راسك أن يرد على هذه النقطة عندما طرحها فولبرايت خلال جلسة المجالس المخصصة

لبحث القضية الفيتنامية ، في الفترة الواقعة بين ٢٨ يناير (كانون ثاني) و ١٨ فبراير (شباط) ١٩٦٦ . ولكن رده لم يبدد مخاوف البعض من نتائج خديعة الحكومة للرأي العام بصدد موضوع هام كهذا الموضوع . وهذه بعض الأحاديث المتبادلة بين دين راسك وفولبرايت خلال الجلسة الأخيرة :

فولبرايت : ... وليس من المؤكد أيضاً بأننا نتخذ موقفاً يسمح لجبهة التحرير الوطنية بالاشتراك في أية حكومة مؤقتة . ولكننا نطلب منها أن تستسلم أو تتعرض للابادة ...

ولنأت الآن إلى نيتنا بترك فيتنام . لقد كررتم عدة مرات بأننا مستعدون لذلك . ولكن يصعب على كل من عاشوا في فيتنام ، أو في أي مكان آخر من العالم ، أن يقتنعوا بأننا سننسحب في المستقبل القريب ، ما دمنا ننشىء في فيتنام حتى الآن قواعد ومرافىء وثكنات كبيرة كثيرة التكاليف . لذا فإنني أعتقد أن الناس لن يصدقونا عندما نقول بأننا سنسحب قواتنا عما قريب . ولقد قيل هنا فيما مضى بأننا لم نترك كوريا أو جمهورية الدومينيكان ، وأنا لا أعتبر جميع هذه الحالات متشابهة ، ولكن هذا لا يمنعني من أن ألاحظ بأن قواتنا المتمركزة خارج حدودنا أكبر من قوات أي بلد آخر .

ومن هنا يبدو أن الهدف المطلوب من حربنا هو استسلام جبهة التحرير الوطنية بغير شرط . وهذا يعني أن الحرب القائمة حرب غير محلية . كما يدل على نيتنا بتحقيق النصر حتى ولو أدى ذلك إلى تدخل الصين وروسيا ، والاشتباك في حرب عالمية .

وأقول يا سيادة الوزير بكل صراحة بأننا متورطون في فيتنام بشكل أكبر مما كنت أتصور ، وهذا ما يسبب لي الكثير من القلق . كما أننا قلقون لإرسال قوات جديدة إلى تايلاند مثلاً .. »

دين راسك : « أود أن أسألك يا سيادة الرئيس أن تحدد فكرتك . وماذا تنتظر من هانوي في الظروف الحاضرة ؟ » .

(من المعروف أن دين راسك بدا ماهراً في تجنب الأسئلة خلال هذه الاجتماعات وأظهر حذقاً خاصاً بتحويل المناقشة خارج المواضيع الأساسية) .

فولبرايت « إني أرى بأن تدخل هانوي والفييت كونغ في مفاوضات معنا ، وأن تشترك في هذه المفاوضات موسكو وبكين وكل من له مصالح مشروعة في هذه المشكلة. كما إنني أرى بأن تصرفاتنا لا تنسجم مع أقوالنا .. وأن تصريحاتكم وتصريحات الجنرال ماكسويل تايلور تدفعني إلى الاعتقاد بأننا مشتبكون في حرب عامة ، ليس لعدونا فيها

من مخرج سوى الاستسلام دون قيد أو شرط ... ولكنكم تنكرون ذلك ، كما ينكره الوزير ماكنمارا » .

دين راسك « وماذا تعني بالاستسلام دون قيد أو شرط ؟ »

فولبرايت : « أعني أن يهجر خصومنا الصراع ، ونحصل بذلك على نصر شامل . عندها سيكون أعداؤنا تحت رحمتنا خلال مباحثات السلام . وإنني لا أرى إمكانية البحث عن حل وسط ، كما لا ألاحظ وجود النية لمثل هذا البحث . إن بلادنا أقوى بلاد العالم ، ونحن قادرون ولا شك على فرض إرادتنا . ولكنني لا أعتقد بأن المستقبل سيؤكد حكمة هذا العمل . »

ثم تكلم راسك بشكل غامض عن الانتخابات وقال : « **فلنترك الفيتناميين الجنوبيين يقررون ذلك بأنفسهم** عندها سأله فولبرايت عن نوع الانتخابات التي يفكر بها :

فولبرايت : « لا أود أن أضيع وقتكم . ولكن يبدو لي واضحاً بأنكم ترون بأن على جبهة التحرير الوطنية أن لا تشترك بها مهما كلف الأمر . إذن فليس عليها إلا أن تتابع القتال . أليس هذا واضحاً في تصريحاتكم وتصريحات بعض أعضاء الحكومة الآخرين ؟ » .

دين راسك : « إن أحداً لم يقل ذلك بهذا المعنى ، كما أن جبهة التحرير الوطنية تتمتع بإمكانية . » .

فولبرايت : « فعلاً . إنها تتمتع بإمكانية الاستسلام . » .

دين راسك : «كلا . إنها تشكل في الوقت الحاضر جبهة هانوي . فلتتوقف عن العمل لحسابها ، وعن تلقي الدعم من الشمال بغية احتلال الجنوب ... إن بعض تصريحاتكم تبدو وكأنها تود أن تقول بأن علينا أن نوقف كل جهودنا . »

فولبرايت : « ليس هذا رأيي . ولكن علينا أن نعقد مؤتمراً . ولا أظن أن ذلك ممكن إذا لم تقدموا عروضاً معقولة ، تسمح لجميع الفيتناميين ، بما فيهم أعضاء جبهة التحرير الوطنية ، بالاشتراك في الانتخابات . إن فيتنام بلدهم لا بلدنا . وحقوقنا فيها أقل من حقوق الفرنسيين . وليس لنا فيها من الناحية التاريخية أي حق . وما نحن سوى متدخلين غرباء . وهم يرون بأننا نمثل الأمبريالية الغربية القديمة . »

وكان راسك مضطراً لقبول بعض الأمور في الاجتماع الأول . ودل هذا

بكل وضوح على قيمة تصريحات الرئيس جونسون المتكررة . والتي تؤكد بأنه ليس للولايات المتحدة الأمريكية مصالح سياسية أو إقليمية في فيتنام الجنوبيــة . كما تؤكد بأنها لا تود إقامة أية قواعد عسكرية فيها . وأن رغبتها الوحيدة هي حماية « حرية شعب فيتنام الجنوبية » .

السيناتور تشارش : « لقد قلتم غالباً يا سيادة الوزير ، وكررتم ذلك هذا الصباح ، بأن الولايات المتحدة الأمريكية غير راغبة بإنشاء قواعد عسكرية دائمة في هذه البلاد . وإن المصلحة الوطنية لا تتطلب ذلك » .

دين راسك : « هذا صحيح » .

تشارش : « هل ننوي إقامة قاعدة عسكرية في كوريا الجنوبية ؟ وهل تتطلب المصلحة الوطنية ذلك ؟ » .

راسك : « ليس لدينا في الوقت الحاضر خطة لسحب قواتنا الموجودة في كوريا . لأن مثل هذا القرار يتعلق بالموقف العام في الشرق الأقصى ... »

تشارش : « ما هو عدد القوات العسكرية في كوريا الجنوبية ؟ » .

راسك : « حوالي ٥٥ ألف رجل » .

تشارش : « لقد انتهت الحرب هناك منذ اثني عشر عاماً ، أليس كذلك » ؟ .

راسك : « نعم هذا صحيح » .

تشارش : « ما هو تعداد القوات الصينية في كوريا ؟ » .

راسك : « لا أظن بأن للصينيين في الوقت الحاضر قوات هناك » .

تشاوش : « مطلقاً ؟ » .

راسك : « إنها قوات صغيرة على الأقل . »

تشارش : « منذ متى سحب الصينيون كل قواتهم ؟ »

راسك : « منذ عام ١٩٥٤ أو ١٩٥٥ على ما أعتقد ... »

تشارش : « ... هل تعتقدون في هذه الحالة أن انسحابنا من فيتنام الجنوبية أسهل من انسحابنا من كوريا الجنوبية ؟ » .

راسك : « إن الجواب على سؤالكم متعلق بموقف فيتنام الشمالية » .

ومما لا شك فيه أن السيناتور تشارش يعرف بأن انسحاب القوات الأمريكية من فيتنام مرتبط أيضاً « بالموقف العام في الشرق الأقصى » . وهذا يعني أنها تنوي البقاء في هذه البلاد .

ويدل هذا الحوار على أن سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في فيتنام تتعرض لانتقادات الساسة المسؤولين عن خزينة البلاد ، وعن أعمال جنودها . وليس هناك من لا يرى الفرق الواضح بين وجه هذه السياسة الحقيقي ، والواجهة المقدمة الى الرأي العام الدولي تحت شكل « محاولات واشنطن لتحقيق السلام » ... إن فولبرايت وتشارش وموريس وغيرهم من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي ينظرون إلى عروض « المفاوضات غير المشروطة » نفس النظرة التي ينظر بها الفيتناميون الشماليون . وليس بين الجانبين أي اختلاف ، إلا في الشكل الذي تم الوصول به إلى هذه الاستنتاجات .

ولبعض « زلات اللسان » التي ارتكبها بعض المتحدثين خلال هذه الاجتماعات عن غير قصد أهمية كبيرة ومغزى عميق . وليس على المرء أن يكون من أنصار الفيلسوف فرويد حتى يحكم على ذلك .

ففي اجتماع ٣٠ يونيه (حزيران) ١٩٦٦ مثلاً حصل الحوار التالي :

الوزير جورج بال : « قد يكون الشكل الذي كتب به عرض الاستسلام غير المشروط سبب سوء الفهم . مع أنه يرمي إلى طرح موقف أمريكي مفتوح ما أمكن خلال المفاوضات (....) ولقد استخدمت الآن تعبير « الاستسلام غير المشروط » بدلاً من تعبير « المفاوضات غير المشروطة » . وليس هذا سوى مجرد زلة لسان » .

تشارش : « ولكن أليست هذه زلة لسان فرويدية ؟ »

(ضحك)

بال : « مطلقاً أبداً » .

(بعد ذلك بقليل)

السيناتور جور : « إن ما يضايقني هو قبول الحكومة للفكرة القائلة بأن عمليات العقاب قادرة على الإقناع ... »

بال : « إننا لا نود استخدام لغة العقاب . ولو كان الأمر غير ذلك لقلنا للفيتناميين :

استسلموا أو تبادوا ، وتُدمر مدنكم ، وتنقلب بلادكم إلى صحراء قاحلة . على حين أن كل ما نقوله لهم هو : إن عليكم أن تستسلموا لأنكم لن تربحوا الحرب في الجبهة السياسية أو العسكرية . ولسوف تستسلمون لأنكم إن لم تفعلوا ذلك اضطررتم إلى استنزاف قسم متزايد من ثروتكم في حرب لا يمكن أن تصل بكم إلى شيء . وهذا أبعد ما يكون عن لغة العقاب (...) لقد قلت منذ لحظات لسوف تستسلمون ، وكنت أود أن أقول : لسوف توقفون اعتداءاتكم » .

وهناك كلمات ذات دلالة هامة أفلتت من شفتي الجنرال ماكسويل تايلور السفير فوق العادة في سايغون . وكان ذلك خلال اجتماعات يناير وفبراير (كانون ثاني وشباط) . ويبدو أنه يعتبر الحرب الدائرة قتالاً بين رعاة البقر والهنود الحمر . وهذا ما يفسر فشله كسفير بالرغم من السلطات الواسعة التي كان يتمتع بها .

السيناتور سباركمان : « هل تعتقدون أن عملية إحلال السلام تسير سيراً حثيثاً ؟ »

الجنرال تايلور : « إننا قادرون الآن على الحركة في المناطق التي حققنا فيها قسطاً كافياً من الحيطة . ولكنني قلت فيما سبق بأن زرع الذرة خارج الأسوار صعب جداً إذا ما وُجد الهنود الحمر في المنطقة . وعلينا في العديد من المقاطعات أن نطردهم بعيداً إن شئنا التقدم في تنفيذ عملية إحلال السلام ... »

وعندما يبدأ رجل مثل ماكسويل تايلور بالحديث عن الهنود الحمر يكون حديثه سبباً لإثارة الخوف . وهذا هو في الحقيقة نوع التدابير المتخذة ضد الفيتناميين ، والتي حاول تايلور تطبيقها في سايغون . لقد كان ينوي إبادة القبائل الجبلية بإجبارها على النزول إلى السهول ، وحصرها في مناطق الاحتياطات . أما الفلاحين ، فكان يود سجنهم خلف أسوار « القرى الاستراتيجية » . ولعل عمله الدبلوماسي السريع لم يتح له الوقت الكافي لدراسة الوثائق الأمريكية الخاصة بتاريخ فترة الحدود . وكان عليه أن يقرأ بعض فقرات التقرير الذي وضعته لجنة من البيض شكلها الرئيس جرانت في عام ١٨٧٠ لدراسة موضوع الإبادة الجماعية التي يتعرض لها الهنود الحمر :

« لِمَ يزرع الهندي الذرة ؟ ولم يحيط أرضه بأسوار ؟ ولم يبني بيتاً مريحاً بدلاً من أن يعيش ليومه دون أن يفكر بالغد ؟ لقد دلته التجربة على أن الرجل الأبيض سينتزع نتيجة عمله من بين يديه . »

« ويمكن تلخيص تاريخ العلاقات بين الحكومة والهنود بلائحة مخجلة من خرق الاتفاقيات ، وعدم احترام العهود والمواثيق . إن تاريخ « الحدود » عبارة عن مجموعة من عمليات القتل والسرقة وخرق القانون قام بها البيض . »

« ... وجاء حماة القانون لينضموا إلى جانب المعتدين . وتؤكد مذكرات بعض كبار الضباط في جيش الولايات المتحدة الأمريكية ، بأن كافة الاعتداءات كانت من فعل البيض . ويشارك كبار الضباط في هذا الرأي جميع المدنيين المؤمنين الذين درسوا المعضلة بتجرد وتعمق . إن اللصوص والخارجين عن القانون الذين لجأوا إلى مناطق الحدود فراراً من قصاص العدالة مسؤولون عن هذه الحوادث ، ولكنهم لا يحملون المسؤولية وحدهم ، بل يشاركهم في حملها عدد كبير من الرجال المتمتعين بسمعة محترمة ، والذين يعملون كل ما بوسعهم لشن الحرب ضد الهنود بغية تحقيق ربح مادي ناجم عن وجود قوات عسكرية تصرف أموال الحكومة في مناطقهم . وهم لا يكفون عن طلب الموت للهنود شفهياً وكتابياً . وتخفي السلطات الجرائم المرتكبة ضد الهنود أو تخفف آثارها . أما جرائم الهنود فتنقلها كافة وسائل المواصلات السلكية واللاسلكية لتنشرها على الملأ في أقصى أقاصي البلاد مع أدق تفاصيلها المستقاة من الحقيقة أو الخيال ... »

وقد تبدو كل هذه الأمور أحداثاً تعود إلى تاريخ قديم جداً . ولكن مقارنتها مع الشكل العنصري الذي يأخذه عدد من النشاطات الأمريكية في فيتنام تحمل في طياتها معنى بليغاً . فلنشكر الجنرال ماكسويل تايلور لأنه ذكرنا بأمور قديمة.

وكان الجنرال تايلور قد صرح بخصوص « الاستسلام غير المشروط » : **« إنني لا أعتبر أن هناك عملية استسلام إذا ما قرر أحد المجرمين أن يقلع عن حياة الإجرام ويستسلم للعدالة . إننا نحاول قبل كل شيء إيقاف عدوان شمال فيتنام على جنوبها .. »**

ولكن تايلور سيجد صعوبة في فهم حقيقة أكيدة هي : أن من المتعذر اعتبار أناس مثل هوشي مينه ، وفونغوين جياب ، وفام فان دونغ ، وآخرين غيرهم « كهنود حمر » أو « كمجرمين » لأنهم يصدون الطائرات المغيرة على بلادهم ، أو يساعدون مواطنيهم الجنوبيين في قتالهم من أجل الاستقلال . علماً بأن هذا القتال دائر من حوالي نصف قرن .

لهذا يرفض الزعماء الفيتناميون عروض الاستسلام التي يقدمها دين راسك وبال ، كما يرفضون الإذعان لعمليات الإبادة التي يشنها الجنرال ماكسويل تايلور .

ولقد قدم تايلور اكتشافات عجيبة . فهو من أول دعاة الفكرة القائلة بضرورة

قصف شمال فيتنام ، واعتباره « رهينة » بغية تحقيق الاستقرار السياسي للولايات المتحدة . وهو يرى أن هناك أربعة شروط لا بد من تحقيقها قبل اشتراك هانوي في مؤتمر السلام وهي :

١ ـ الانتصار على قوات الفييتكونغ .

٢ ـ قيام القوات الجوية الأمريكية بإنزال ضربات أليمة بفيتنام الشمالية ، حتى تؤكد لها بأنها « ستتحمل خسائر كبيرة في المستقبل »

٣ ـ إيجاد حكومة مستقرة في واشنطن .

٤ ـ إفهام الأمريكيين « بأن بلادهم لن تحيد عن السبيل الذي رسمته لنفسها .

ويقول تايلور : « **عندما تتحقق هذه الشروط الأربعة تصبح هانوي مستعدة للتفاوض. وإني لواثق من ذلك كل الثقة ...** »

وتعطي إجاباته على أسئلة فولبرايت فكرة صحيحة عن نمط تفكير العسكريين في البنتاجون . ونحن نعلم أن تايلور اتهم السيناتور فولبرايت في إحدى المناقشات بأنه « **يتآمر على حرية خمسة عشر مليوناً من الفيتناميين الجنوبيين** » .

عندها رد فولبرايت : **وفي هذه الحالة ، فإننا نتآمر أيضاً على حرية ٢٥٠ مليون روسي ، فلم لا نذهب لتحريرهم ؟** »

فما كان من تايلور إلا أن أجاب : **ليست هذه هي المعضلة الآن** »

وما دامت السياسة الخارجية الحقيقية للولايات المتحدة الأمريكية تسير بناء على توجيهات أشخاص مثل دين راسك وماكسويل تايلور وجورج بال وغيرهم ، فإن من المتعذر إجراء خطوة واحدة على الطريق المؤدي إلى المفاوضات ... إن « الاستسلام » و « الخيانة » لا تشكلان جزءاً من المفردات السياسية للثوار الفيتناميين .

ولقد قدم العديد من حلفاء أمريكا في منتصف عام ١٩٦٦ خططاً مختلفة لإنهاء حالة الحرب . وأعلنت واشنطن بأنها مستعدة للتفكير والبحث عن حل يسمح لها بأن لا تفقد ماء وجهها .. ولكنها تكرر هنا أغنية قديمة سمعناها في نهاية الحرب الكورية : « يـا للأسف . لقد أخطأنا بتدخلنا في هذه الحرب ، ولكن علينا الآن أن نستمر بعد أن تورطنا ... » . ومن الخطط المقترحة خطة معروفة في الأوساط الدبلوماسية تحت اسم « الخطة الفرنسية » ولقد جاءت بعض عناصر هذه « الخطة » في خطاب ألقاه الرئيس

ديغول في فنومبينه يوم ٧ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٦ . وترى هذه الخطة أن على الولايات المتحدة الأمريكية أن تتعهد بسحب قواتها من فيتنام الجنوبية ، وأن تلغي قواعدها . وأن تبرهن على نواياها بجمع قواتها المقاتلة فوراً في هذه القواعد ، وبترحيل بعض القطعات خارج البلاد . على حين يستدعي الفيتناميون الشماليون قطعاتهم ، إذا اعتبروا أنهم قد أرسلوا مثل هذه القطعات إلى الجنوب . أما القصف الجوي فمن الضروري إيقافه من غير شروط ... عندها يمكن إجراء مباحثات السلام بعد أن تتوقف الاشتباكات بين جبهة التحرير الوطنية وحكومة سايغون ، مهما كان نوع هذه الحكومة . والانتقال بعد ذلك إلى جنيف ، مع وفود من فيتنام الشمالية والصين والاتحاد السوفييتي ، وكافة المشتركين في مؤتمر جنيف لعام ١٩٥٤ .

ونقطة الضعف في هذه « الخطة » كامنة في : أن هانوي ترى أن من الواجب إجراء المفاوضات بين جبهة التحرير الوطنية والولايات المتحدة الأمريكية . لذا فإن التباحث مع حكومة كي – تيو أو أية حكومة تحل محلها أمر لا داعي له .

وتشتمل « الخطة الفرنسية » على نقطة ضعف أخرى هي : أنها تترك إذا ما طبقت مئات الآلاف من الجنود الأمريكيين يحتلون مواقع استراتيجية في فيتنام الجنوبية . وليس هناك أي مجال للتفاوض بين الفيتناميين ما دام الاحتلال قائماً . كما أن جبهة التحرير الوطنية لا تسمح لنفسها بأن تضع فيتنام الشمالية في موقف تضطر معه إلى التفاوض تحت سيل القنابل ، أو تحت التهديد بمتابعة الغارات الجوية . ومما لا شك فيه أن وجود الأمريكيين في قواعدهم ، واستعدادهم للتدخل في كل لحظة ، يعرض الطرفين لضغوط كبيرة . ولا تقبل جبهة التحرير أن تؤثر مثل هذا التهديد ات على سير المباحثات .

وعندما نشرت « الخطة الفرنسية » أرسلت الحكومة الأمريكية إلى معظم بلاد العالم ، عدداً كبيراً من المبعوثين من مختلف الجنسيات ، وتحت ستار حجج متباينة . وكان من بين المبعوثين هنود ويابانيون وفيليبيون .. الخ وقام هؤلاء الرسل باتصالاتهم في مختلف البلاد ، وحملوا فكرة استعداد الولايات المتحدة الأمريكية للتساهل بشكل أكثر مما توحي به بعض التصريحات . وإمكانية اشتراك جبهة التحرير الوطنية في المفاوضات ، وفي الحكومة الائتلافية المقبلة . كما شرحوا حرج واشنطن ، وعدم قدرتها على التصريح بهذه الأمور ، خوفاً على انهيار نظام كي أو أي نظام آخر يليه في سايغون . وأشاروا إلى أن المؤسسات الأمريكية تبحث جاهدة عن شخصيات وطنية مدنية من فيتنام الجنوبية لم تتعامل مع الأجانب من قبل بغية تشكيل حكومة « محايدة » ، سواء أكانت هذه

الشخصيات داخل البلاد أم في المنفى .

وتستطيع هذه الحكومة بعد ذلك أن تطرح عروض السلام على جبهة التحرير الوطنية . وقد يؤدي ذلك الى تشكيل حكومة ائتلافية تشترك الجبهة بها . على غرار حكومة لاووس التي تشكلت بعد مؤتمر جنيف ولم تعش أمداً طويلاً ... ولكن جميع هذه المحاولات كانت بطيئة مترددة . وكان المبعوثون يجدون صعوبة في معرفة مدى جدية عروض واشنطن وتلاؤمها مع سياستها الحقيقية . وكانوا يخشون أن يدفعهم البعض إلى صعود سلّم عالٍ ، ثم يأتي الآخرون ليسحبوه من تحت أقدامهم . كما أن العقاب الذي تعرض له كل من تعاونوا مع السياسة الأمريكية في الجنوب عقاب خطير ، ذاق الأخوان نغودينه مرارته ، وهو لا يشجع الساسة على التعاون .

ومع هذا كانت الحلول المطروحة قابلة للتطبيق قبل سنة . وكان بوسع جبهة التحرير آنذاك أن تنظر إليها بعين الرضى . ولكن الأحداث المتعاقبة بعد ذلك ، وإرسال أعداد هائلة من جنود المشاة الأمريكيين إلى فيتنام الجنوبية ، جعل تطبيقها أشد صعوبة . ثم جاء قصف الشمال فألغى وجود خط العرض ١٧ ، وتتوج هذا القصف في نهاية يوليه (تموز) ١٩٦٦ بغارات طائرات ب ـ ٥٢ على المنطقة المجردة من السلاح ، على طول خط العرض ١٧ .

إن مناطيد التجربة التي أطلقها بعض كبار الموظفين الأمريكيين بعد أن تنكروا بلباس « الحمام » مثل إفريل هاريمان مثلاً لم تكن تحمل في طياتها الكثير من الواقعية . ولكن هذا لم يمنع الرئيس جونسون و « الصقور » المحيطين به من أن يعتبروها جديدة تماماً . وهذا ما أشار إليه جيمس رستون في مقال ظهر في عددي ١٨ ، ١٩ يونيه (حزيران) ١٩٦٦ من النيويوركتايمز . عندما كتب عن « المعارضين » كفولبرايت وموريس وآخرين :

« إنهم يودون أن تعتبر الولايات المتحدة الأمريكية الأمر منتهياً بالتعادل دون غالب أو مغلوب . وأن تحاول إنشاء حكومة معتدلة يقبلها الجميع في فيتنام الجنوبية ، بغية إجراء مفاوضات مع هانوي وجبهة التحرير الوطنية .. ولكن الدولة استقبلت ذلك بكل برود.. »

والحقيقة أن ما تطرحه واشنطن تحت اسم مفاوضات غير مشروطة يعني أن يتخلى الشمال عن جبهة التحرير الوطنية ، ويسمح للولايات المتحدة بأن تحصل بالمفاوضات على مكاسب لم تستطع تحقيقها على أرض المعركة . وتتمثل هذه المكاسب بالسيطرة

العسكرية على الحدود في الجنوب والشمال ، وعلى حدود لاووس وكمبودجيا . بالإضافة إلى احتلال أراضي الجنوب احتلالاً عسكرياً لمدة غير محدودة . وإذا ما قبل الشمال سحب قواته ، واعترف بأنه أرسل مثل هذه القوات[1] ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية لا تنوي قبول خطة الانسحاب التي طرحها بعض المتحدثين باسم واشنطن كأفضل حل للأزمة ، واشترطوا ان يتم تنفيذها بعد أن تقبل هانوي بأن تتصرف كدولة « عاملة » .

ويدل الحديث التالي الذي جرى في ٣٠ يونيه (حزيران) ١٩٦٦ في اجتماع لجنة الشؤون الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ ، على حقيقة الأهداف المنشودة من عروض « المفاوضات غير المشروطة » .

السيناتور جور : « لقد أعلنت الحكومة الأمريكية لحكومة فيتنام الشمالية ، في عدة مناسبات وبأشكال شتى ، بأن الولايات المتحدة راغبة بإيقاف غاراتها الجوية ، شريطة أن تتوقف هانوي عن إرسال قوات إلى الجنوب ، فهل هذا صحيح ؟ »

جورج بال : « نعم ، لقد تم ذلك بالفعل . »

جور « وإذا قبلت فيتنام الشمالية الشرط ، فهل ستكون الولايات المتحدة مستعدة للتصرف بشكل مماثل ؟ » .

بال : « لا أظن أن علينا أن نبحث مثل هذا التوازي في الموقف خلال المفاوضات ، فليست الأحداث الخاصة إلا استمراراً لعمليات العدوان التي ارتكبها الشماليون في الجنوب ولم يكن دور الولايات المتحدة الأمريكية سوى إيقاف هذه العمليات ... »

وتؤكد أقوال بال ماذا كان يختمر في رأسه عندما اقترف « زلة اللسان » حول « الاستسلام غير المشروط » .

ويرى الشماليون أن « الدفاع عن الشمال ، وتحرير الجنوب ، وتوحيد البلاد » هي الرد الوحيد على تصعيد العمليات ، وعلى الأهداف الحقيقية الكامنة وراء أفعال الأمريكيين والمختلفة كل الاختلاف عما يطرحونه أمام الرأي العام . علماً بأن الولايات المتحدة تستخدم في هذا الصدد تدابير كثيرة لا تقبل التبديل .

---

(١) هذا هو روح القرارات المتخذة في مانيليا في ٢٦ أوكتوبر (تشرين أول) ١٩٦٦ من قبل الولايات المتحدة وحلفائها .

(المؤلف)

ولقد سألت مراراً ، أليس هناك تناقض بين شعار هانوي « تحرير الجنوب وتوحيد البلاد » وبرنامج جبهة التحرير الوطنية المنادي بفيتنام جنوبية مستقلة ومحايدة ، الأمر الذي « يستبعد التوحيد في المستقبل القريب » ؟.

وكان الجواب دائماً تذكيري بالفقرتين الثالثة والرابعة من مقترحات فام فان دونغ اللتين تؤكدان بأن هانوي تقبل برنامج جبهة التحرير الوطنية الرامي إلى تحقيق الوحدة مرحلة إثر أخرى ، دون أن يحاول أحد الطرفين فرض نظامه على الطرف الآخر . ويقول المتحدثون باسم البرنامج ، بأن موقفه من الحياد والاستقلال ينسجم تمام الانسجام مع موقف هانوي بالنسبة لـ « جبهة البلاد » . ويرى هذا البرنامج أن شطري البلاد سيتمتعان بقسط وافر من الاستقلال ، وهو يعلن فيما يعلن :

« ... **إن الأوضاع الاجتماعية في الشمال والجنوب متباينة في الوقت الحاضر .... ومن الواجب الانتباه لحالة كل قطاع من القطاعين ، وأخذ مصالح الشعبين وآمالهما الشرعية بعين الاعتبار . كما يجب إجراء المفاوضات لتحديد السبيل إلى تحقيق انتخابات عامة حرة ، يتم بعدها توحيد البلاد دون أن يقوم أحد الشطرين بإجراء أية إلحاقات إقليمية أو ضغط سياسي على الشطر الآخر . ويتطلب الوضع الحاضر في شمال البلاد وجنوبها إنشاء مجالس منتخبة من قبل الشعب ، ومؤسسات إدارية تتمتع بصلاحيات واسعة في كل مدينة ...** » .

ولقد تمت الموافقة على هذا البرنامج في عام ١٩٥٥ ، وقَبْلَ خلق جبهة التحرير الوطنية بأمد كبير . وكان الشمال يأمل آنذاك أن تتم الانتخابات المذكورة في اتفاقية جنيف خلال شهر يوليه (تموز) من السنة التالية . وعلاوة على تساوي وجهتي النظر بالنسبة لمسألة استقلال شطري البلاد ، فقد أعلنت هانوي أكثر من مرة بأنها موافقة على برنامج جبهة التحرير الوطنية بما في ذلك فكرة حياد الجنوب ، بكل ما يحمله هذا الحياد من معنى . ويتضمن البيان الذي أذاعته الجبهة في أول اجتماعاتها في فبراير — مارس (شباط — آذار) ١٩٦٢ ما يلي: « **إن بلادنا مقسمة حتى الآن بصورة مؤقتة إلى شطرين . لذا فقد ظهر في كل شطر منها اختلافات اقتصادية واجتماعية هامة** » . أما بالنسبة لموضوع الوحدة فيقول البيان بأنها ستتم « **بصورة متدرجة ، مع اتباع الأساليب السلمية والمفاوضات بين الشطرين ...** » . ويقترح « الحمام » وأصدقاؤهم أن يأتي إلى السلطة في سايغون حكومة مستعدة للدخول في حوار مع جبهة التحرير الوطنية ، أو لمشاركة

الجبهة في حكومة ائتلافية. ولكن الناطقين بلسان جبهة التحرير الوطنية يردون على ذلك بأن الثوار لا يقبلون التفاوض مع حكومة مشكلة في ظل الاحتلال الأمريكي. ويلفتون الأنظار إلى أن برنامجهم يتوقع إنشاء **حكومة ديموقراطية ، تستند إلى ائتلاف وطني واسع يمثل كافة قطاعات المجتمع ، وكل الأقليات الوطنية ، والمعتقدات الدينية، وجميع الشخصيات الوطنية ، والأحزاب السياسية .** » . ويؤكدون على أن هذا المشروع ما زال قائماً. وأن فكرة إنشاء حكومة ائتلافية قد حازت على تقدم كبير في عام **١٩٦٦** . حتى أن بعض الشخصيات ستكون جزءاً من التحالف المطروح ، حتى ولو أنها دخلت في حكومة نغودينه ديم أو الحكومات التي تلتها .

ومن الملاحظ أن الجماهير التي اشتركت في انتفاضات الزعماء البوذيين والطلاب في سايغون وهوي ودانانغ خلال النصف الأول من عام **١٩٦٦** كانت تنادي بشعارات مماثلة لشعارات الجبهة . أما الزعماء البوذيون المحافظون ، فقد أبعدوا عنهم أنصارهم عندما تصلبوا أمام إمكانية العمل المشترك مع الجبهة . وهذا هو السبب الذي يجعل جزءاً كبيراً من المواطنين يدعم جبهة التحرير الوطنية . ولقد قامت هذه الجبهة باتصالات وثيقة مع الحركة البوذية وبعض زعمائها . ويفهم الجميع اليوم بأن الجبهة وحدها قادرة على القيام بتوجيه فعال على المستوى الوطني ، وتحقيق وحدة الشعب ، والاشتباك في صراع مسلح لتحقيق الاستقلال . ولقد قال لي بعض قادة الجبهة ، بأن من الخطأ أن يظن البعض بأنهم « وجهوا » الانتفاضات التي وقعت في سايغون وهوي ودانانغ . لأن هذه الأعمال كانت ناجمة عن نجاح أعمال الجبهة ، وعن خيبة أمل المواطنين أمام الموقف المائع الذي أخذه الزعماء البوذيون المشهورون . وهذا ما دفع إلى صفوف الجبهة في النهاية ، عدداً كبيراً من المثقفين في المدن ، وفتح آفاقاً واسعة أمام فكرة تشكيل حكومة وطنية ائتلافية .

ويعتبر إصرار جبهة التحرير الوطنية على حياد فيتنام الجنوبية بعد الاستقلال عاملاً هاماً يجذب إلى صفها قسماً كبيراً بين القطاعات الشعبية العريضة في فيتنام الجنوبية . وتملك الجبهة بالإضافة إلى ذلك مرتكزات سريّة قوية بين كبار الضباط والموظفين في سايغون . إذ أن قبول هانوي والجبهة لفكرة الحياد والاستقلال يمثل في الحقيقة وزناً لا يقل عما تمثله فكرة الوحدة التي كانت من بين أهداف مؤتمر جنيف . وهذا ما يذكرنا به نغوين فان فينه في المقال المذكور آنفاً . عندما يقول بأن الأهداف المباشرة لجبهة التحرير

هي : **الاستقلال والديموقراطية، والحياد** » . وبأن على الأمريكيين أن يتقيدوا بذلك ...
« **إن جبهة التحرير الوطنية لا تطلب سوى حياد فيتنام ... ومن الواضح أن أمام الأمريكيين هنا وسيلة رائعة لتصفية ديونهم بثمن يقل بكثير عن الثمن الذي حدده مؤتمر جنيف . أفليس في هذا وسيلة شريفة للانسحاب ؟** » .

ويكتب نغوين فان فينه بشأن انسحاب القوات الفيتنامية إلى خارج أراضي فيتنام الجنوبية فيقول : « **تخطىء الولايات المتحدة خطأً فاحشاً إذا اعتقدت أن بوسعها فرض انسحاب جيش تحرير فيتنام الجنوبية الذي يطلقون عليه تجنياً اسم « قطعات فيتنام الشمالية » ، مقابل انسحاب القوات الأمريكية وقوات البلاد الدائرة في فلكها. إن العمال والفلاحين ورجال القوى العاملة الأخرى الذين حملوا السلاح للصراع ضد العدوان الأمريكي باقون ولن يذهبوا أبداً . إنهم سيتابعون القتال في حقولهم وقراهم ، ولن يكون هناك أية عمليـــة لإعادة تجميع القوات في الشمال ، على غرار ما تم في عام ١٩٥٤** » .

وعندما يأخذ زعماء هانوي هذا الموقف فإنهم لا يعتبرون أنفسهم « غير عاقلين » أو « معتدين » ولا يرون أمامهم إلا متابعة القتال والتمسك بشروطهم ، أو الاستسلام وخيانة الجنوب . وهم يرفضون موقفاً تستطيع فيه « القوة أن تُسكت الحق » . ولا يقبلون اعتبار الوجود الأمريكي في فيتنام وجوداً دائماً لمجرد أن الأمريكيين أقوياء ، ويملكون قطعات كبيرة في البلاد . وهم يقدرون صعوبة شرح كل هذه الأمور بشكل مقنع لأصدقائهم الأجانب ، الذين لم يتعرضوا إلى المعضلات نفسها من قبل .

وعندما يسألهم سائل : أفلا تتبعون بموقفكم هذا ، السبيل « الشاق » الذي سلكته بكين ؟ ، نراهم يتخلون عن الدماثة التي اشتهر بها الفيتناميون ، ويردون بشكل لم يؤلف منهم . وتختلف حدة أجوبتهم مع شخصية المتحدث وطبعه ، ولكن بوسعنا إجمالها فيما يلي : « **لقد حصلنا على استقلالنا الوطني بأنفسنا . وقمنا بالثورة بناء على حاجاتنا ، وحسب الظروف التي كانت تخيم على بلادنا . ولم تكن ثورتنا إلا استمراراً لصراع دام ألف سنة ، ولكنه استمرار يستنير بهدي تجربتنا ، وبضوء التجربة الماركسية ـ اللينينية الـــتي أرست جذورها العلمية .. لقد أعددنا تكتيكاً خاصاً بنا ، ولم نشأ اتباع أية اتجاهات أجنبية ، ولن نفعل ذلك أبداً . إننا مستعدون ، وأكثر من مستعدين ، للاستفادة من تجربة الآخرين الثورية مهما كان مصدرها . ولاستنباط الدروس من نجاح الأحزاب الشقيقة أو فشلها . ولكننا نود أن نتحمل لوحدنا مسؤولية**

نجاحنا وفشلنا .

إن الحركة الحالية في سبيل الاستقلال الوطني هي في الحقيقة حركة قديمة جداً . ولقد تعرضت هذه الحركة خلال تطورها إلى عدد كبير من التأثيرات . ومنها تأثيرات الثورة الصينية التي قام بها صن يات صن ، وثورة أوكتوبر الاشتراكية . ولكن القتال الذي اشتركنا به كان مختلفاً تمام الاختلاف . إذ أننا مستعمرة تقاتل ضد الاحتلال الأجنبي . وهذا ما حدا بنا إلى خلق « خطنا » الخاص .

ولقد فرض علينا الأمريكيون القتال في هذه المرة . ولم يكن عملنا مدفوعاً بإيديولوجية أجنبية . ويقدم لنا المعسكر الاشتراكي ، الذي نشكل جزءاً منه ، دعماً كبيراً لا ينكر. ولكن حتى ولو لم يكن هذا الدعم موجوداً ، وحتى لو لم يكن هناك موسكو أو بكين لكان حمل السلاح في سبيل مبادئنا هو الطريق الذي اخترناه لأنفسنا ، أسوة بأسلافنا الذين قاتلوا دائماً من أجل بلادهم ... إننا نشكر للصين مساعدتها السخية التي تقدمها بكل رحابة صدر . ولكن هذا لا يعني أنها تحاول فرض « خط » خاص علينا ، كما لا يعني أننا سنقبل بهذا الخط لو أنها فعلت ذلك . إن على سياستنا أن تكون سياسة فيتنامية ، تحدد لنا مهماتنا . ولن نقبل أي توجيه خارجي يتعارض مع أفكارنا . ونحن نحس بالشكر العميق نحو الاتحاد السوفيتي الذي يقدم لنا مساعدات جليلة . ولكن هذا لا يعني خضوعنا لميوله واتجاهاته . فنحن لم نقاتل منذ ألف عام للخضوع إلى سيطرة أجنبية جديدة ، مهما كان الثوب الذي ترتديه . ويفهم أصدقاؤنا في الأحزاب الشقيقة ذلك تمام الفهم ، وهم يؤيدون موقفنا بلا تحفظ » .

ويدل ملخص الأجوبة المذكور بأن مثل هذه الأسئلة عبارة عن أسئلة غير ودية تحمل في طياتها تحدياً للثورة الفيتنامية وجهلاً فاضحاً بتاريخ تطورها ... إن كل فيتنامي يحس بالمهانة إذا ما أشار أحد إلى أن رؤساءه يتبعون خطاً غير فيتنامي ، فتجربتهم الخاصة يخولهم الحق بخلق خط خاص لا يفرضونه على الآخرين .

ويتم التعبير عن الاستقلال بأشكال متعددة . فليس على الأرض الفيتنامية مثلاً قواعد عسكرية أو قوات أجنبية . ولقد قدم آلاف الطيارين الأجانب أنفسهم للتطوع والعمل في فيتنام ولكن الطائرات الفيتنامية مقادة اليوم بطيارين فيتناميين لا روس أو صينيين أو كوبيين . وهناك بطاريات مضادة للطائرات مجهزة بالرادار يعمل عليها سدنة فيتناميون . أما الصواريخ السوفييتية المضادة للطائرات (أرض — جو) فيديرها

الفيتناميون تحت إشراف خبراء جاءوا من موسكو لتقديم النصح والإرشاد حول وضع هذه الأعتدة واستخدامها .. هذا هو الموقف حتى نهاية عام ١٩٦٦ ، وقد يتغير الوضع في المستقبل بتبدل ظروف الصراع .

ومما لا شك فيه أن كل هذا يسهل تطبيق النقطة الثانية من تصريح فام فان دونغ ، بالإضافة إلى المحافظة على الكرامة الوطنية . إن « الخط » الفيتنامي يؤكد ضرورة المحافظة تماماً على إدارة شؤون البلاد بين أيديهم . ولقد قال لي أحد المسؤولين : **إن الفيتناميين وحدهم يبذلون الدماء في هذه الحرب . ونحن لا نطلب من رفاقنا في المعسكر الاشتراكي أن يتألموا من أجلنا . فليتابعوا بناء الاشتراكية في جو من السلام ، أما نحن فسنبنيها وسط المعركة . وما عليهم إلا أن يقدموا لنا الأسلحة التي سنستخدمها أحسن استخدام .** »

وللموقف الخاص بالصراع بين موسكو و بكين دلالة كبرى : « **إننا نود مخلصين أن تتم الوحدة بين جميع البلدان الاشتراكية. فنحن نعتبرها كلها بلاداً شقيقة . وليس هناك ما يستطيع تحويلنا عن هذا الخط . ونحن لا نعتبر هذا نوعاً من الانتهازية ، أو السياسة قصيرة الأمد . ولكننا نعتبره سياسة طويلة الأمد . لأن هذه الاختلافات عبارة عن خلافات عائلية لا ينبغي أن تنشر على رؤوس الأشهاد** » .

ويود الزعماء الفيتناميون أن يبذلوا كل ما في وسعهم للحد من اتساع حقل الصراع وهم يقولون : **إن « التصعيد » هو صلب سياسة الولايات المتحدة الأمريكية . أما سياستنا فمبنية على « الاحتواء » . فنحن نحاول تحديد الحرب الجوية في الشمال والحرب البرية في الجنوب. ولن يتم توسيع الصراع في المستقبل إلا بسبب عملية التصعيد الأمريكية** ».

ويمثل كل ما ذكرته هنا أكمل الأجوبة على الأسئلة التي تطرحها الحرب . ولقد توصلت إلى هذه الأجوبة بعد سبعة أسابيع من البحث الدقيق المتعمق في فيتنام الشمالية وبعد اثني عشر عاماً من الاتصال الوثيق مع فيتنام الشمالية ومعضلاتها .

الخـــاتمة

عندما توقع رئيس الوزراء فام فان دونغ ، أن الرد على كل مرحلة من مراحل التصعيد الأمريكي هو « **مزيد من تجمع قوى شعبنا في كل المجالات** » ، وأنـــه « **كلما حلق الصقور عالياً ، كان سقوطهم أشد خطورة** » كان توقعه عبارة عن تقدير دقيق للقوى الأمريكية والفيتنامية .

لقد بدأ القصف المنهجي لشبكة الطرقات في فيتنام الشمالية في فبراير (شباط) ١٩٦٥ . وتذرع البنتاجون بحجة وجود حركة كبيرة من التموين والقطعات — تقدر بـ (١٥٠٠) رجل في الشهر — تتجه من الشمال إلى الجنوب . وكان الهدف من هذا القصف منع هذه الحركة أو إبطاؤها بشكل واسع .

وبعد ١٦ شهراً . وفي نهاية شهر يونيه (حزيران) قصفت الطائرات الأمريكية مستودعات المحروقات في هانوي وهايفونغ . لأن « عمليات التسلل زادت (كما قال ماكنمارا) بنسبة ١٢٠٪ » بالرغم من تدمير الجسور وشبكة الطرقات . وكان من الضروري أن يؤدي قصف مستودعات المحروقات وتدمير ٥٧٪ من مخزون المحروقات منذ الغارة الأولى — حسب أرقام المصادر الرسمية — إلى إيقاف نقل القوات والمؤن بشكل كامل ، أو إبطائه على الأقل .

ثم حاول الأمريكيون تدمير الـ٤٣٪ الباقية بأن ألقى طيرانهم على فيتنام خلال ٦ أشهر عدداً من القنابل يفوق العدد الذي استخدموه ضد ألمانيا في أقسى ستة أشهر من الحرب العالمية الثانية . ومع هذا أعلنت المصادر الأمريكية بأن التسلل قد زاد بمعدل من

٧٠٠٠ الى ٨٥٠٠ رجل شهرياً . ومنذ ذلك الحين أصبحت أخبار الغارات على مستودعات المحروقات تشكل جزءاً من الروتين اليومي لمراسلي الصحف في سايغون .

وسواء أكانت الأرقام الرسمية الأمريكية المذكورة أعلاه عن عدد المتسللين صحيحة أم لا ، فإن علينا أن نلاحظ ، بأن موقف الأمريكيين ازداد في نهاية عام ١٩٦٦ سوءاً في فيتنام الجنوبية ، ولم يبد على الشمال أي أثر من آثار الضعف والتخاذل ، بالرغم من القصف الجوي المركز ضد الشمال ، وتزايد عدد القوات البرية الأمريكيـــة في الجنوب . علماً بأن في فيتنام الجنوبية اليوم نصف مليون جندي أمريكي وحليف ، تدعمهم البحرية والطيران ، بالإضافة إلى نصف مليون جندي فيتنامي جنوبي من جنود حكومة سايغون .

وبالرغم من عمليات القصف الرهيبة . والخسائر البشرية التي يتبجح الأمريكيون بأنهم أوقعوها بين صفوف قوات جبهة التحرير الوطنية خلال عمليات التطهير المتعددة ، فقد أعلنت واشنطن في نهاية العام عن وجود زيادة منتظمة ومستمرة لمجموع قوات « الفيييتكونغ » ، كما لاحظت أن ميزان القوى يميل بلا انقطاع لصالح جبهة التحرير الوطنية .

ولقد اجتاز التصعيد الأمريكي مرحلة جديدة بالقصف البحري المنتظم الذي بدأ في نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٦٦ ضد المنشآت الساحلية في فيتنام الشمالية ، بحجة إيقاف نقل القطعات والمؤن من الشمال إلى الجنوب أو إبطائه ، وإنقاص الخسائر الكبيرة التي تنزل بالطائرات والطيارين . (ولقد ذكرنا سابقاً أن خسارة الطيارين كانت في منتصف عام ١٩٦٦ أكبر من قدرة سلاح الطيران على تعويضهم) وستكون المرحلة التالية في التصعيد بلا شك ، استخدام صواريخ موجهة ضد المنشآت الدفاعية في فيتنام الشمالية .

وفي نهاية عام ١٩٦٦ قام برتراند راسل بمساعٍ عديدة شكلت على أثرها محكمة لمحاكمة مجرمي الحرب الفيتنامية . وبعثت هذه المحكمة عدداً من اللجان المكلفة بتقصي الحقائق ، والبحث في شمال البلاد وجنوبها عن أدلة تدين جرائم الحرب والجرائم المشابهة الأخرى ، التي ارتكبتها القوات الأمريكية وحلفاؤها في فيتنام .

وهناك دليل يؤكد وجود التصميم المسبق على العدوان ، وهو اشتراك مجلس الشيوخ الأمريكي بالتآمر لخدع الرأي العام الأمريكي والعالمي بشكل واسع حول موضوع الأسباب الحقيقية لحادث خليج تونكين في ٥ أغسطس (آب) ١٩٦٤ . وهو تاريخ

أول غارة قامت بها قاذفات القنابل الأمريكية على المنشآت الساحلية في فيتنام الشمالية . ففي ٢٤ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٦٦ أمكن الحصول على جزء من الشهـادة التي شُوّهت ، وحذفت من تقرير جلسات لجنة الشؤون الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ المنعقدة في اليوم التالي للعدوان . ولقد كانت الحجة الرسمية لغارة ٥ أغسطس (آب) هو قيام قوارب الطوربيد الفيتنامية الشمالية بهجمات « مفتعلة غير مثارة » في يومي ٢ و ٤ أغسطس (آب) ١٩٦٤ ضد المدمرة الأمريكية « مادوكس » المُبحرة « خارج حدود المياه الإقليمية » ..... والحقيقة أن السيناتور مورس أجبر ماكنمارا وراسك في هذه الجلسات على الاعتراف بأن المدمرة الأمريكية « مادوكس » كانت داخل المياه الإقليمية لفيتنام الشمالية ، تقوم بمهمة حماية مراكب حربية تابعة لفيتنام الجنوبية تهاجم جزيرتين من جزر فيتنام الشمالية . واقعتين على مسافة ٥ — ٨ كيلو مترات من الساحل . ثم اثبت مورس في خطاب ألقاه في مجلس الشيوخ يوم ٥ أغسطس (آب) بطلان فكرة أن الهجمات كانت « غير مثارة » عندما طرح السؤال التالي : « **هل غطى الأسطول الأمريكي المراكب الحربية التابعة لفيتنام الجنوبية والتي كانت تقصف شواطىء فيتنام الشمالية أم لا ؟ ... هذه هي الأمور التي تظهر بوضوح من دراسة هذا الحادث .... وليس من الضروري إفهام المجلس والشعب الأمريكي ماذا كان بوسع الولايات المتحدة الأمريكية وشعبها أن يفعلا لو كان الأمر معكوساً ، أي لو كان هنالك مراكب وغواصات سوفيتية تبحر في عرض البحر على مسافة ٨ — ١٥ كم من شواطئنا ، في وقت تقوم به مراكب كوبية مثلاً بقصف كي ويست ...** » .

ومع هذا فإن الحديث عن العدوان « المفتعل غير المثار » هو الذي سمح للرئيس جونسون بأن يأخذ من الكونجرس مطلق الصلاحية ليزج الولايات المتحدة الأمريكية في حرب عدوانية ضد فيتنام الشمالية ، مع احتمال التصعيد بلا حدود . وتدل الأجزاء المتوفرة والتي حذفت من مخطوط التقرير ، أن ماكنمارا وضع في تايلاند منذ ٥ أغسطس (آب) أسراباً كاملة من قاذفات القنابل الأمريكية ، تمهيداً لشن غارات منهجية بدأت بعد ذلك بخمسة أشهر . كما قام بإجراءات سمحت بإرسال وحدات صدمة من الجيش الأمريكي ومشاة البحرية إلى فيتنام الجنوبية .... فأي رد هـذا على بعض الرمايات الدفاعية التي قامت بها زوارق الطوربيد الفيتنامية ضد مركب حربي يقوم بتغطية عدوان « مفتعل وغير مثار » ضد جمهورية فيتنام الديمقراطية ؟..

إن اندفاع البنتاجون بالرغم من هذه الخدعة ، ليزج الولايات المتحدة مباشرة في

حرب فيتنام ، أمر لا يدعو الى الاستغراب . ولكن معرفة لجنة الشؤون الخارجية واللجنة العسكرية التابعتين لمجلس الشيوخ للظروف الحقيقية للعدوان ، وإخفاءها عن الشعب الأمريكي مدة تزيد عن السنتين ، أمر لا بد أن يهز الأمريكيين الذين لا يزالون يعتبرون بلادهم نموذجاً حياً للديمقراطية ، في بلاد « العالم الحر » ! !

فإذا توصلت محكمة مجرمي الحرب التي أوجدها راسل إلى إيجاد الصفحات الناقصة من محضر جلسات ٦ أغسطس (آب) للجنة الشؤون الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ الأمريكي ، فإن بوسعها أن ترد عندئذ على السؤال الأول في قضيتها وهو : « **هل تعتبر حكومة الولايات المتحدة الأمريكية** (ومعها حكومات أوستراليا ونيوزيلاند أو كوريا الجنوبية) **مذنبة بما يتعلق بالعدوان حسب منطوق القانون الدولي ، أم لا .. ؟** »

وبعد انتهاء فترتي إقامتي في فيتنام الشمالية ، اللتين سمحتا لي بكتابة الجزء الأساسي من هذا الكتاب ، قمت في أغسطس (آب) ١٩٦٦ بزيارتي الرابعة للمناطق المحررة في فيتنام الجنوبية فور انتهاء « هجوم فصل الجفاف » لعام ١٩٦٥ ــ ١٩٦٦ ، والذي شنه الأمريكيون . وقمت بأحاديث مطوّلة مع نغوين هوتو رئيس جبهة التحرير الوطنية ، ومع عدد كبير من زعماء الجبهة العسكريين والسياسيين . ثم تحدثت مع كبار المسؤولين في الجبهة في بداية شهر ديسمبر (كانون أول) ١٩٦٦ بعد انتهاء معارك « فصل الجفاف » الكبرى لعام ١٩٦٦ ــ ١٩٦٧ . وقد أكدت لي هذه الأحاديث ، والوضع الذي تظهره الخرائط العسكرية ، ومقارنة تحليلات زعماء جبهة التحرير الوطنية ، مع تقارير أكثر العناصر جدية في الصحافة الأمريكية ، على صحة تحليل الجنرال نغوين فان فينه (انظر الفصل العاشر) .

ولقد استطاعت الجبهة أن توقف بسهولة غير متوقعة الهجوم الأمريكي في فصل الجفاف عام ١٩٦٥ ــ وهوأول مجابهة كبيرة بين القوات الأمريكية وجبهة التحرير الوطنية ــ . ولم يتم التوصل إلى أي هدف من الأهداف الثلاثة التي أعلن الأمريكيون عنها ، وهي : فتح الطرقات ، امتداد سيطرة سايغون إلى بعض الأراضي ، تدمير القوات الأساسية لجبهة التحرير الوطنية .... ولقد صدت هجمات الأمريكيين المتعددة بفضل قوات إقليمية وعصابات محلية ، على حين تابعت القوات الأساسية لجبهة التحرير الوطنية على تحسين أوضاعها ، ورفع مستوى فاعليتها استعداداً لمعارك مقبلة . ولقد وجدت زعماء جبهة التحرير الوطنية ، أكثر ثقة بأنفسهم من أي وقت مضى . ذلك لأنهم اشتبكوا بصورة مباشرة مع خيرة الفرق الأمريكية ، وهذا ما ينتظرونه منذ سنوات . ولأن قوات

جبهة التحرير الوطنية حصلت على النصر في معظم المعارك الكبيرة تقريباً . (وكنت قد قضيت فترة إقامتي الثالثة في نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٦٥ أي في الفترة التي كانت جبهة التحرير الوطنية تستعد فيها لهذا الصدام . وكان الزعماء موقنين آنذاك بتحقيق النصر ، ولكن تفاؤلهم كان مبنياً على تقدير نظري بحت لميزان القوى) .

وبالرغم من تدخل الولايات المتحدة الأمريكية المباشر في الجنوب . وتزايد الغارات الجوية ضد الشمال – الأمر الذي جعل من شطري البلاد جبهة واحدة – فإن أهداف جبهة التحرير الوطنية لم تتبدل . وأعلن نغوين هوتو بأن أهداف جبهة التحرير الوطنية السياسية والعسكرية مرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً . وإن الظروف تسير من حسن إلى أحسن ، من أجل خلق جبهة وحدة وطنية عريضة تضم جبهة التحرير الوطنية ، وبعض المنظمات الموجودة في سايغون أو في أماكن أخرى . وتكون الخطوة الأولى نحو إنشاء حكومة ائتلافية ووحدة وطنية حسب منطوق البرنامج الأساسي لجبهة التحرير الوطنية . ولقد أكد لي الرئيس تو بشكل أكثر دقة بأن هناك « **إمكانيات متزايدة لتوسيع التعاون مع منظمات وقوى وشخصيات أخرى** » . وأضاف بأن تعاون أحـــد الأشخاص في الماضي مع حكومة نغودينه ديم ، أو الحكومات التي تلتها ، لا يشكل بالضرورة حاجزاً أمام اشتراكه في الحكومة الائتلافية ، شريطة أن تقبل خطوط النضال العريضة التي التي تطرحها جبهة التحرير الوطنية في سبيل الاستقلال . ولقد أكد لي على أن موقف الحياد الذي تنادي به الجبهة سيبقى دون تغيير رغم دخول القوات الأمريكية في الحرب على نطاق واسع . وأن برنامجها سيبقى مبنياً على الاستقلال والديمقراطية والسلم والحياد . على أن يكون لها دور فعال وصوت حاسم عند بحث الحل السلمي .

وبعد عملية « أتليبورو » في نهاية نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٦٦ قابلت الإطارات العليا في جبهة التحرير الوطنية فوجدت التفاؤل سائداً بينهم . وهم يعتبرون أن أكبر عملية أمريكية برية تمت حتى الآن ، وأول عملية في فصل الجفاف لعام ١٩٦٦ و ١٩٦٧ قد انتهت بفشل القوات الأمريكية فشلاً ذريعاً . إذ قام ٣٠,٠٠٠ رجل بهجوم قوي موجه نحو مقاطعة تاي نينه ، حيث كانت القيادة الأمريكية تعتقد بوجود قاعدة عمليات هامة وقيادة ثورية عامة . وكانت القوات مؤلفة من فرقتي المشاة الأولى والخامسة والعشرين ولواء المظليين ١٧٣ ، ولواء المشاة الخفيف ١٩٦ الذي كانت القيادة تعتبره قبل القتال أفضل القطعات الخاصة المعدة لمقاومة العصابات ... وقبل وصول هذا اللواء ، كانت فرقة الخيالة الجوية الأولى المزودة بـ ٤٣٤ طائرة هليكوبتر أحسن تشكيل أمريكي للقتال

ضد العصابات . وفي أوكتوبر (تشرين أول) ١٩٦٦ احتلت الألوية الخفيفة من نوع اللواء ١٩٦ مكان الصدارة . ولكن هذا اللواء دمر منذ أول اشتباكات عملية « أتليبورو » وأبيدت إحدى كتائبه مع قائدها ومركز قيادته ، على حين أصيبت الكتيبتان الثانيتان بخسائر فادحة . وسحب قائد العملية الجنرال دوسوسور من مركزه خلال القتال . ويذكر وارد جوست المراسل الحربي لنيويورك هيرالد تريبيون في عدد ٢١ نوفمبر (تشرين ثاني) تصريحاً لأحد « **أفراد القيادة العسكرية العليا** » في سايغون يقول بأن نتائج المعركة أدت إلى « **إعادة دراسة اللواء الخفيف ١٩٦ من جديد** » .

ويعتبر مجموع خسائر الأمريكيين في عملية « أتليبورو » أكبر الخسائر خلال مدة الحرب . وأخيراً وبعد جهد كبير عادت القوات الأمريكية إلى قواعدها ، تاركة لقوات جبهة التحرير الوطنية مهمة السيطرة على غابات تاي نينه . ولقد اصطدمت القوات الأمريكية في هذه العملية بالقوات النظامية لجبهة التحرير لا بالقطاعات الإقليمية أو العصابات المحلية . وأعلمني رجال الجبهة بأن هذا هو بداية ما يمكن أن يذوقه الأمريكيون عندما ستبدأ عمليات فصل الجفاف لعام ١٩٦٦ — ١٩٦٧ فعلاً . كما أكدوا لي تزايد الخسائر الأمريكية وتعزيز مركز جبهة التحرير الوطنية السياسي والعسكري .

وبالإضافة إلى فشل العمليات الأمريكية في ١٩٦٦ ، يمكننا أن نذكر التقرير العام الذي قدمه مارفين ستون حول السلام ونشرته المجلة الأمريكية اليمينية U. S. news and war Reports في عددها الصادر يوم ٥ ديسمبر (كان أول) ١٩٦٦ . ويقول التقرير : « **إننا لم نطهّر في السنة الماضية مقداراً كافياً من الطرق ، كما لم نخضع لسيطرة الحكومة عدداً كبيراً من السكان . ويسحب الحمر إلى الشمال شهرياً حوالي ١٥٠٠ شاب قادمين من قراهم ...** (وقبل أسبوع كانت مجلة time قد قدرت عدد المتطوعين في جبهة التحرير الوطنية بأكثر من ٥٠٠٠ رجل شهرياً و. بورشيت) **وبعد كل هذه السنوات ، فإن الحرب ضد العصابات لم تبدأ حقّاً ... ولا يبدو أن سلطة حكومة سايغون حازت على أي تقدم في الريف .. أما نسبة الفرار من الخدمة فهي نسبة مرتفعة جداً ففي هذه السنة وحدها فر من القوات النظامية والإقليمية والمحلية حوالي ١٠٠,٠٠٠ رجل.**

إن رجلاً من كل ستة رجال يفر من الخدمة سنوياً . وهذا هو سبب عجز الولايات المتحدة الأمريكية عن زيادة عدد الجيش الفيتنامي الجنوبي بمقدار ١٠٠,٠٠٠ رجل ، كما كان متوقعاً .

وهكذا يمكن أن نقول بأن خطة إخلال السلام في عام ١٩٦٦ لم تتحقق ... »

ولقد أكدت لي مصادر جبهة التحرير الوطنية بأن حالات الفرار في جيش سايغون ارتفعت إلى ١٨٠,٠٠٠ حالة في هذه السنة . وكانت هذه المصادر قد أعلمتني في عام ١٩٦٤ بأن البنتاجون سيكون عاجزاً عن تحقيق أية زيادة في قوات سايغون نظراً لكبر الخسائر التي تلحق بها في القتال ، ولتزايد حالات الفرار من الخدمة . وأن عدد قوات سايغون سيبدأ بالتناقص اعتباراً من عام ١٩٦٦ – بالإضافة إلى أن معنوياتها ستتناقص بسرعة أكبر – .

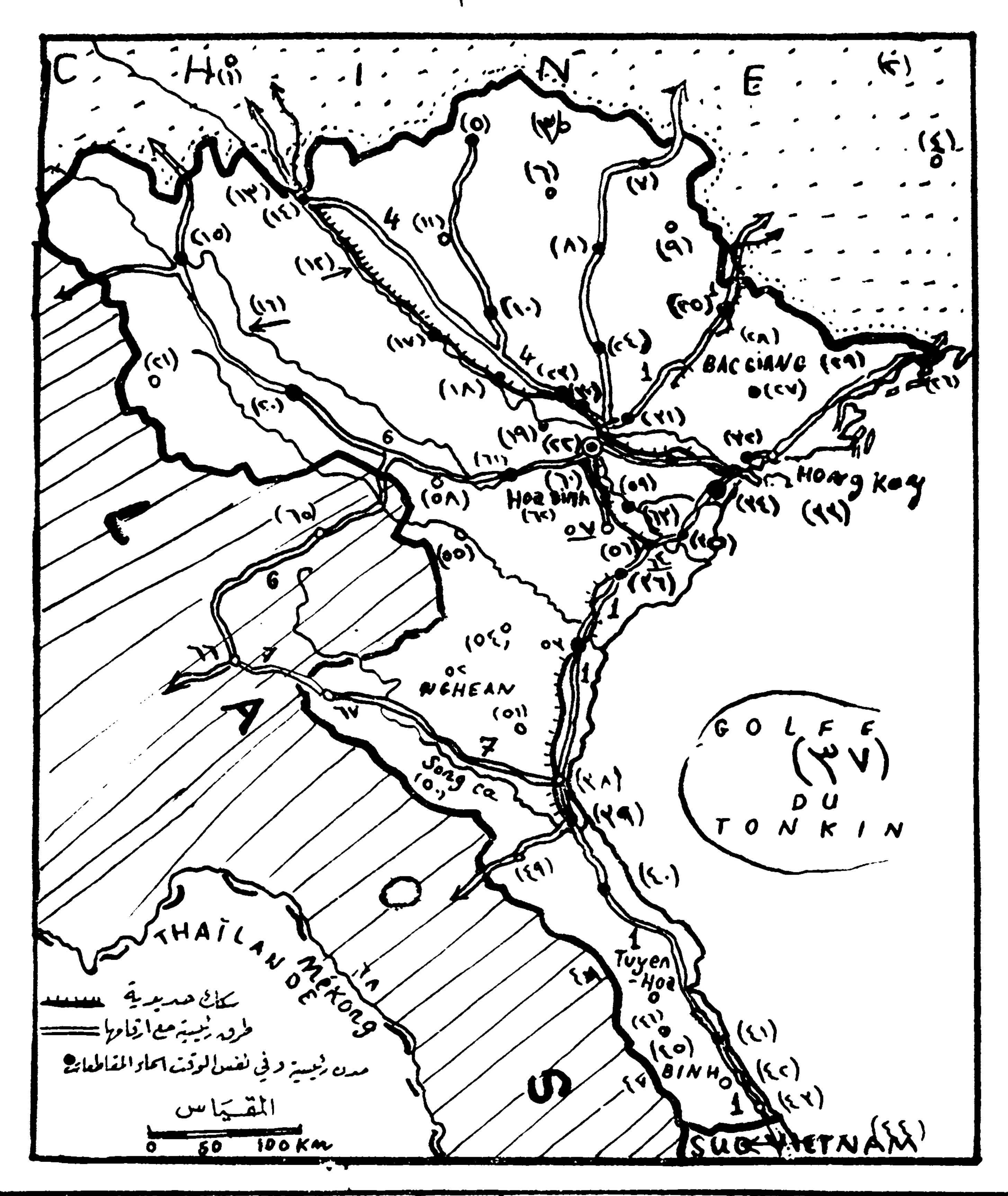
لقد كانت واشنطن تستهدف إيقاف تموين الفييتكونغ بالرجال والعتاد ، وذلك باحتلال دلتا نهر الميكونغ بقوات أمريكية . ولكن انشغال ثلث مجموع قوات المشاة الأمريكية في المناطق الجافة نسبياً من البلاد يؤكد لنا الصعوبة التي ستلاقيها واشنطن عند محاولة سحب قوات كافية للسيطرة على مستنقع الوحل السحيق الذي تشكله دلتا نهر الميكونغ . ولقد قال لي أحد قادة جبهة التحرير الوطنية : « **« إن في الدلتا وحلاً كافياً لابتلاع الجيش الأمريكي كله »** . ففي مقاطعة بينهدينه وحدها لم تستطع ثلاث فرق كاملة (فرقة أمريكية وأخرى كورية جنوبية وثالثة فيتنامية جنوبية) خلال أكثر من سنة « إحلال السلام » – حسب تعبيرهم – إلا في عدد قليل من القرى منتشرة في ثلاثة أقسام من المقاطعة فقط ، علماً بأن في المقاطعة أحد عشر قسماً . ويرى البعض في ذلك « نتيجة رائعة » لجهود « إحلال السلام » متناسين أن في فيتنام الجنوبية ٤٣ مقاطعة . والآلات الحاسبة في البنتاجون عاجزة عن تقدير عدد الفرق اللازمة لاحتلال دلتا نهر الميكونغ وإخضاع سكانها الذين يعدون ستة ملايين فلاحاً يتمتعون بتقاليد ثورية أصيلة . فالدلتا مهد الثورة الفيتنامية ، وحرب العصابات فيها متطورة أكثر من أي مكان آخر ، ولن يكتب للتقنية الأمريكية فيها أي نجاح .

والحقيقة ، إن نتائج الحرب الجوية في الشمال ، والحرب البرية والجوية في الجنوب لم تحققا للبنتاجون وللبيت الأبيض أي نجاح ، ولم تسمحا لهما قبيل إشراقة عام ١٩٦٧ بأن يريا أي « ضوء في نهاية الممر الطويل المظلم » .

و. بورشيت

ديسمبر (كانون أول) ١٩٦٦

خريطة فيتنام الشمالية



منغتزو	١٨	فوتو	٣٥	ني بينه	٥٢	نغهان
الصين	١٩	سون تاي	٣٦	نينه بينه	٥٣	تانه هوا
باو لاك	٢٠	سون لا	٣٧	خليج تونكين	٥٤	بيت لهونغ
نانينغو	٢١	ديان بيان فو	٣٨	فو ديين	٥٥	سونغ ما
هاغيانغ	٢٢	هانوي	٣٩	ڤينه	٥٦	نام دينه
باك مي	٢٣	فينه ين	٤٠	هاتينه	٥٧	فوليه
كاو بانغ	٢٤	تاي نغوين	٤١	دونغ هوا	٥٨	موك شو
باك كان	٢٥	لانغ سون	٤٢	تاش بان	٥٩	كيين آن
دونغ خي	٢٦	مون كاي	٤٣	فينه لينه	٦٠	هاي دوونغ
توين كوانغ	٢٧	آن شو	٤٤	ڤيتنام الجنوبية	٦١	هادونغ
فينه توي	٢٨	باك كيانغ	٤٥	جياب نام	٦٢	هوابينه
النهر الأحمر	٢٩	هينينه	٤٦	كوانغ بينه	٦٣	هونغ ين
هوكو	٣٠	فوك ين	٤٧	〃 〃	٦٤	فولي
لاوكاي	٣١	باك نينه	٤٨	توين هوا	٦٥	سام نوا
لي شاو	٣٢	كوانغ ين	٤٩	هاتان	٦٦	بان بان
النهر الاسود	٣٣	هونغ كاي	٥٠	سونغ كا	٦٧	فيتنيات
ين باي	٣٤	هايفونغ	٥١	فوكي	٦٨	ميكونغ

مطبعة دار الكتب - بيروت

الفهرس

سيصدر عن دار الإرشاد

للمعربين

- المدخل إلى التاريخ العسكري
- قانون الحرب

صدر عن دار الإرشاد

للطباعة والنشر والتوزيع

- الوجيز في العسكرية الإسرائيلية
- الوحدة العسكرية العربية
- إرادة القتال في الجهاد الإسلامي
- دروس في الكتمان من الرسول القائد

تأليف اللواء الركن محمود شيت خطاب

الثمن ٥٠٠ ق . ل
٦٠٠ فلس أو مليم